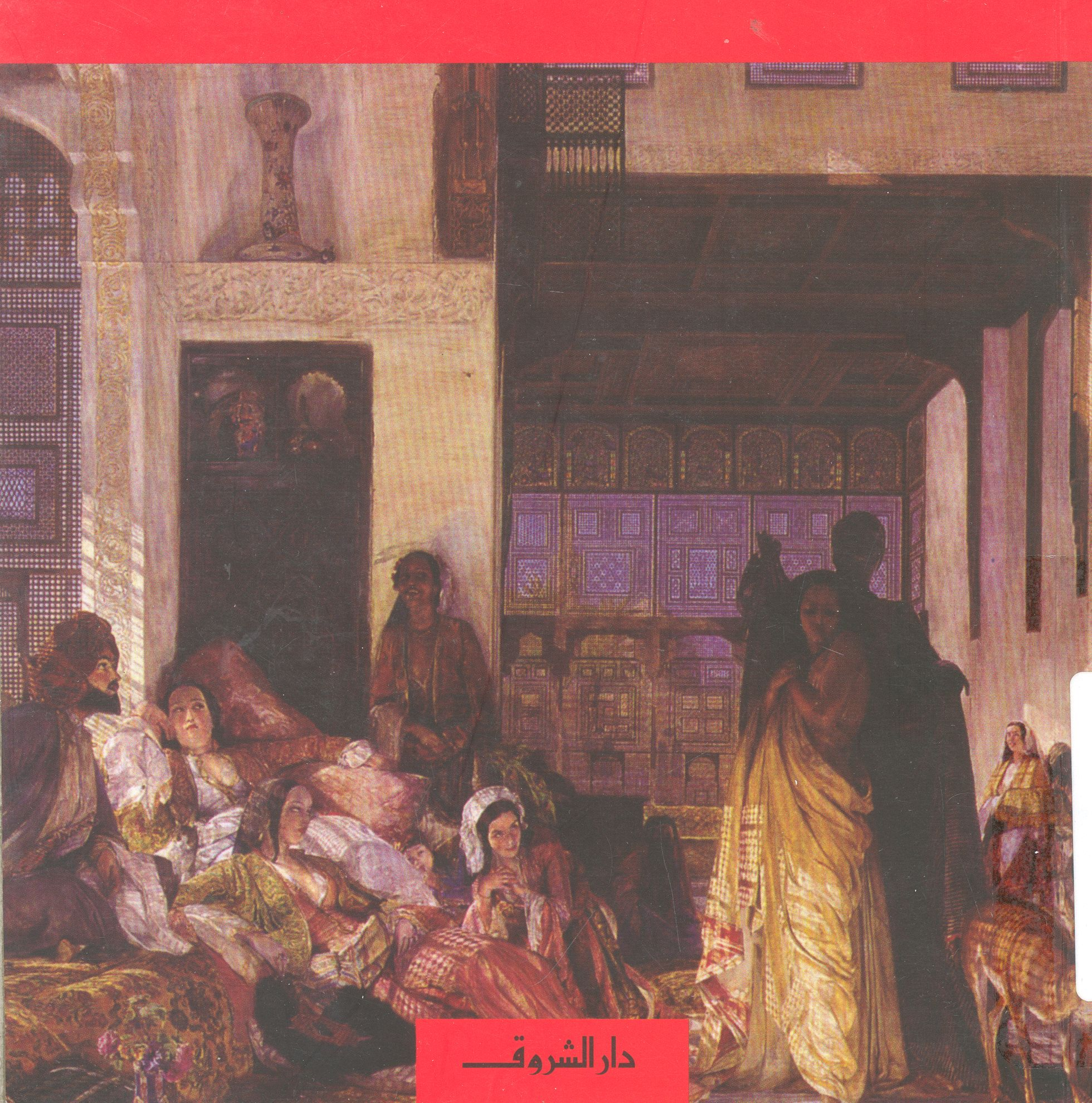
د. إلهام ذهنى

# رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر

## بين النزعة الإنسانية والاستعمارية



دار الشروق

# رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر

## بين النزعة الإنسانية والاستعمارية

اسم الكتاب **رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر بين النزعة الإنسانية والاستعمارية**
المؤلفة **الدكتورة إلهام محمد ذهني**

صدر هذا الكتاب عن سلسلة:
**التاريخ - الجانب الآخر - إعادة قراءة للتاريخ المصري**



الطبعة الأولى ٢٠٠٥
الطبعة الثانية ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٧٨١٥ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولي ISBN 977- 09-1231- 9



٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

د. إلهام ذهني

# رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر

## بين النزعة الإنسانية والاستعمارية

دار الشروق

# تقديم

# رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر

# بين

# النزعة الإنسانية والاستعمارية

هذا العمل الذى تقدمه الدكتورة إلهام محمد ذهنى أستاذة التاريخ الحديث بكلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر هو خلاصة لإبحار طويل فى عالم الرحالة الأوروبيين لمصر خلال القرون الأربعة الممتدة بين بداية القرن السادس عشر ونهاية القرن التاسع عشر، رصدتها فى أربعة من مؤلفاتها.

ولما كان قد غلب على هذا الرصد الطابع التقريرى الأمر الذى كان محل فائدة للراغبين فى التعرف على هؤلاء الرحالة، خاصة من الفرنسيين والإنجليز، فإنها ارتأت أن تمد سلسلة « التاريخ - الجانب الآخر » برؤية تحليلية لنظرة الرحالة الأوروبيين، والتى تراوحت بين السعى لتحقيق المطامع الأوروبية فى هذا القطر الذى اعتقدوا بثرائه، خاصة وأن تلك الرحلات قد تمت فى عصر التوسع الأوروبى بمرحلتيه، المرحلة الاستعمارية Colonization التى انتعشت خلال الفترة بين القرنين السادس عشر ومرحلة الإمبريالية Imperialism التى تعاظمت خلال القرن التاسع عشر، وبين الرؤية الإنسانية التى غلبت على مشاعر عدد من هؤلاء الرحالة.

بعض هذه الرؤية التحليلية انسحبت على توصيف الدوافع وراء رحلات هؤلاء؛

الفضول والعاطفة الدينية، الدراسة الأكاديمية، والتى اختلطت اختلاطًا واضحًا بالأطماع الاستعمارية وانتهت بإرسال الحملة الفرنسية إلى مصر أواخر القرن الثامن عشر.

وترك قدوم تلك الحملة بصمته على الأحوال المصرية عمومًا وما صاحبها من بناء الدولة الحديثة، وعلى حد ما قيل إن نابليون جاء إلى مصر بالمدفع والمطبعة وأخذ المدفع وترك المطبعة، الأمر الذى انعكس بالضرورة على طبيعة الرحالة الأوروبيين خلال هذا القرن، فيما رصدته صاحبة هذا العمل الذى بين أيدينا، حين غلبت النزعة الاستعمارية على النوازع الإنسانية.

ولما كان مطلوبًا التعرف على أهم الرحالة الأوروبيين إبان الفترة موضع الدراسة، حتى يستنير القارئ بالظروف التى أملت عليهم آراءهم، فقد خصصت الدكتورة إلهام هذا الفصل لتلك العملية؛ عملية التعرف، لتدلف منه إلى الفصل الثالث الذى عالجت فيه موضوعين نعتبرهما حجر الأساس فى هذا العمل.

الموضوع الأول تحت عنوان « حكومة مصر »، وعلى الرغم من كل ما هو معلوم عن تلك الحكومة من كتابات محلية، غير أن تلك الكتابات غلب عليها الانحيازات الشخصية لأصحابها فى بعض الأحيان وكثير من المخاوف فى أحيان أخرى، على خلاف مع كتابات الرحالة الأوروبيين الذين تحلوا بقدر كبير من الرؤية الموضوعية، وكانوا بحكم غربتهم يرون من ظواهر الحياة ما لا يراه أبناء البلد، غير أن ذلك لم يمنع فى ذات الوقت من ظهور « دوافع كامنة ». . بعضها تاريخى موروث من الحروب الصليبية، والبعض الآخر إنسانى ناجم عن الرؤية الأوروبية التى تغيرت منذ عصر النهضة والقائمة على النظر للإنسان كإنسان، والبعض الأخير استعمارى ذو طبيعة اقتصادية فيما بدا فى الموضوع الثانى من هذا الفصل الذى جاء تحت عنوان « ثروة مصر الاقتصادية - إعجاب أم مخطط استعمارى ».

أما الفصل الأخير الذى رصد رؤية الرحالة الأوروبيين للحياة الاجتماعية خلال الفترة التى تناولها الكتاب، فهو بالإضافة إلى ما قدمه من ملاحظات دقيقة وقعت عليها عين مدربة، الأمر الذى قد يغيب عن عيون سكان البلاد، فإنها قد تباينت على

نحو ملحوظ . . حيث كتب كل عما شاهده ، وكان بالضرورة مختلفًا عما شاهده الآخرون ، غير أن « الدوافع الكامنة » ظلت تفرض نفسها مرة أخرى على الرؤى الأوروبية لسائر طبقات وفئات الشعب المصرى .

وفى تقديرنا أن ما فعله الرحالة الأوروبيون كان أقرب إلى إعادة اكتشاف تاريخ مصر بعيون جديدة ، حتى لو بدت أحيانًا مغرضة ، الأمر الذى نرجو أن يوافقنا عليه القارئ .

وعلى الله قصد السبيل ، ،

دكتور

يونان لبيب رزق

رئيس تحرير الكتاب

# مقدمة

تتناول هذه الدراسة رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر سواء من وجهة نظر إنسانية تعكس تعاطفهم مع المصريين لأحوالهم المتردية، أو من وجهة نظر استعمارية تبحث وتنقب عن كل ما يتعلق بمصر تمهيداً لغزوها.

اختلفت دوافع توافد الرحالة الأوروبيين على مصر منذ القرن السادس عشر وحتى أواخر القرن التاسع عشر.

ففى القرنين السادس عشر والسابع عشر انتمى معظم الرحالة إلى طبقة رجال الدين، الذين حرصوا على تأدية فريضة الحج فى القدس، ثم اتجهوا إلى مصر حيث المزارات المسيحية الشهيرة، ورغم خلفية الرحالة الدينية إلا أنه وجد من بينهم السياسى، وعضو البرلمان، والعالم والجغرافى، والضابط، وقد اقتصرت رحلات هؤلاء على مدن مصر السفلى والمزارات المسيحية.

ورغم عدم اتساع المعرفة بمصر خلال هذه الفترة إلا أنه ظهر فى مؤلفات الرحالة فكرة غزو مصر وتكوين الأحلاف الصليبية من جديد. كذلك اعتبر أعضاء البعثات الدينية أن مهمتهم الإنسانية تقتضى عليهم تحويل أقباط مصر إلى المذهب الكاثوليكى، والقضاء على الدولة العثمانية المهيمنة على الشرق.

أما فى القرن الثامن عشر فقد تزايدت المعرفة بمصر واتسمت مؤلفات الأوروبيين عنها بالعمق ولا سيما وأنهم جابوا مدن مصر وصحاريها، وتوغلوا فى الوجه

القبلى. ولم تكن زيارتهم قصيرة وسريعة، وإنما مكث البعض منهم عدة سنوات. وظهر خلال هذه الفترة ما يمكن أن نطلق عليه الرحالة الجواسيس الذين مهدوا لغزو مصر فى نهاية القرن الثامن عشر.

حوت مؤلفات الرحالة فى هذا القرن العديد من الدراسات عن مصر، فقدموا المشاريع الاستعمارية كفكرة وصل البحرين، أو إحياء طريق التجارة القديم ودعوا للإفادة من تصارع القوى السياسية العاجزة عن النهوض بالبلاد. واتسمت هذه المؤلفات بالطابع العلمى؛ وحقق الرحالة تقدمًا فى علوم الاستشراق والجغرافيا والأثنوجرافيا.

هذا وقد أبدى البعض فى مؤلفاته التعاطف الشديد مع المصريين، بينما أظهر البعض الآخر نزعة استعلائية تمثلت فى الدعوة لإحلال شعب آخر فى مصر بدلاً من المصريين الذين لا يقدرون ولا يعرفون مكانة بلدهم.

جذبت الأسرة العلوية انتباه الرحالة فى القرن التاسع عشر، بمشاريع التحديث والتطوير وتعمقت خلال هذه الفترة المعرفة بمصر بل عمل العديد من هؤلاء الرحالة فى خدمة أسرة محمد على فى مختلف المجالات فى الإدارة والتعليم والجيش والمشاريع العمرانية المختلفة.

علل العديد من الرحالة أسباب رحلتهم إلى مصر لدوافع إنسانية مثل أعضاء جمعيات محاربة تجارة الرقيق فى أوروبا، كما سجل العديد منهم مأساة الفلاح المصرى والأعباء التى أثقلت كاهله. غير أن أهم الجماعات التى جاءت إلى مصر بدعوى تحقيق أهداف إنسانية، كانت جماعة السان سيمون التى دعت لشق قناة السويس لكى تتلقى الشعوب فى وسط أفريقيا النور والحضارة الأوروبية، عن طريق مصر كما ذكروا.

لفتت الآثار المصرية الانتباه وتقدم علم الآثار تقدمًا كبيراً بالكشف عن أسرار الهيروغليفية. كما ازدادت المعرفة وتعمقت بالآثار الإسلامية والقبطية.

وشهد القرن التاسع عشر ظاهرة مجيء الرحالة الأوروبيات اللاتى أتيح لهن دخول الحريم فسجلن كل ما يتعلق بهذا العالم السحرى الغريب بالنسبة للقارئ الأوروبى.

ظهرت خلال هذه الفترة أصوات طالبت باحتلال مصر ولا سيما من قبل البريطانيين، وهو ما حدث بالفعل فى أواخر القرن التاسع عشر، كما تطلع الفرنسيون لنشر النفوذ الفرنسى وإقامة مستعمرة بلا نفقات فى مصر ولا سيما بعد حفر قناة السويس. وينبغى ألا نغفل أن فترة القرن التاسع عشر فى أوروبا مثلت ذروة الاستعمار اتخذت خلالها الدول الأوروبية عدة شعارات إنسانية لإخفاء أهدافها الحقيقية مثل مهمة الرجل الأبيض، إدخال الحضارة والمدنية للشعوب المتخلفة، وكانت مصر ضمن مشروع بريطانيا الاستعمارى فشعار غلاة المستعمرين أمثال سيسل رودس من الكيب جنوبًا حتى القاهرة شمالاً بمعنى أن مستعمرات بريطانيا لابد أن تشق القارة الأفريقية رأسيًا.

وبعد ينبغى أن نشير لظهور العديد من الدراسات الجادة عن الرحالة، نذكر من بينها دراسة جان مارى كاريه عن الرحالة الفرنسيين، ودراسة الدكتور ثروت عكاشة عن رحالة القرن التاسع عشر، وجاءت بعنوان مصر فى عيون الرحالة والفنانين والأدباء ودراسة الدكتورة سحر عبد الكريم عن الرحلة إلى مصر عام ٤٥٠ ق. م حتى القرن العشرين والتى أوردت فيها أسماء العديد من الرحالة البريطانيين الذين تم الكشف عن مخطوطاتهم ونشرت فى لندن. إلا أن مؤلفات الرحالة مازالت فى حاجة إلى المزيد من الدراسة لأنه يتم الكشف عن الجديد منها، فعلى سبيل المثال قام جيسون تومسون أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة بنشر مخطوط إدوارد لين وصف مصر الذى دون فيه ملاحظاته عن آثار مصر والنوبة ١٨٢٥ - ١٨٢٨ وهو يختلف عما نعرفه عن لين من دراسته القيمة للعادات والتقاليد.

وأخيرًا هذه هى الدراسة الخامسة التى أقدمها عن كتابات الرحالة فى مصر

ركزت الحديث فى الدراسات الثلاث السابقة عن كتابات الفرنسيين ثم جاءت الدراسة الرابعة عن مؤلفات البريطانيين.

أما هذه الدراسة فهى محاولة للتعرف على الأهداف الحقيقية لهذه المؤلفات وإبراز الجوانب الإنسانية والأهداف الاستعمارية ولا سيما وأن الرحالة وفدوا من جميع بلدان أوروبا من فرنسا وبريطانيا وبروسيا وسويسرا وإيطاليا وروسيا. بل وفد أيضاً على مصر رحالة من أمريكا.

وختاماً هذه الدراسة محاولة تعكس رؤية الأوروبى للآخر الشرقى.

والله ولى التوفيق،،

أ. د. إلهام محمد ذهنى

## الفصـــل الأول

# الرحلـة إلى مصـــر

- المرحـلة الأولى : فضول وعاطفة دينية.
- المرحلة الثانية : الدراسة الأكاديمية.
- المرحلة الثالثة : الولـع بمصر.

الفصل الأول

# الرحلة إلى مصر

يرجع لإيطاليا الفضل فى الاهتمام بالدراسات الإنسانية خلال عصر النهضة، وقد قامت هذه الحركة على دراسة المخطوطات القديمة الموجودة فى الكاتدرائيات والكنائس والأديرة سواء داخل إيطاليا أو خارجها.

جاء اختراع الطباعة ليرفع شأن الدراسات الإنسانية كما ظهرت اللغات الحديثة فى أوروبا بعد أن كانت اللاتينية هى لغة العلم فى العصور الوسطى. وشهدت تلك الفترة اهتمامًا كبيرًا بالمحافظة على الآثار الرومانية والاهتمام بعلم التاريخ والفنون الجميلة التى لم تعد تؤدى دورها لخدمة الكنيسة فحسب.

لقيت الدراسات الإنسانية اهتمامًا كبيرًا فى أوروبا ولا سيما فرنسا فأنشأ الملك فرانسوا الأول كلية فرنسا عام ١٥٣٠ فى باريس وعين فيها أساتذة متخصصين فى اللغة الأغريقية، وقد أطلق عليه باعث الآداب نتيجة لجهوده فى هذا المجال.

وفى بريطانيا اهتم مصلحوا أكسفورد بدراسة الآداب القديمة ونادوا بضرورة إطلاق الفكر الإنسانى بعيدًا عن الكنيسة ثم انتقل هذا الاهتمام إلى جامعة كامبريدج.

وتجدر الإشارة أن الاهتمام بالدراسات الإنسانية لم يلق قبولاً بين عدد من الدول الأوروبية ولا سيما إسبانيا لوجود محاكم التفتيش فيها، كذلك فى الأراضى المنخفضة التابعة لها أى بلجيكا وهولندا، ولكن سرعان ما أنشأ الهولنديون جامعة ليدن فى عام ١٥٧٤م التى أصبحت مركزًا للدراسات الإنسانية الخاصة بالتاريخ والآثار.

يمكننا القول فى إيجاز شديد إنه من نتائج النهضة منع احتكار الكنيسة للعلم

وظهور المدارس ونمو الجامعات، وظهور المخترعات ولا سيما الطباعة ثم حركة الكشوف الجغرافية.

أعقبت حركة الكشوف الجغرافية عصر النهضة وكان اتجاهها العالم الجديد والهند، وتعددت دوافع هذه الكشوف ومنها الدافع الدينى الذى حرك البرتغال وإسبانيا لنشر المسيحية، وتحويل المسلمين إلى المذهب الكاثوليكى، والتركيز على الاتصال بالحبشة وتحويل كنيستها القبطية الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية مع ضرورة تحويل أقباط مصر إلى نفس المذهب.

شجع البابوات فى روما الدولتين على محاربة المسلمين والإسلام، فوصف البعض منهم الإسلام بأنه طاعون ووضع البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) خطة تهدف لضرب المسلمين عرفت بخطة الهند.

هذا وقد أسفرت الكشوف الجغرافية إلى زيادة التنافس الاستعمارى بين الدول الأوروبية التى اشتبكت فى عدة حروب فيما بينها لعل أشهرها الحرب الإيطالية بين فرنسا وإسبانيا والتى استمرت (١٤٩٤ - ١٥٥٩).

تعرضت أوروبا لأخطار داخلية تمثلت فى ظهور حركة الإصلاح الدينى بزعامة مارتن لوثر فى ألمانيا وزونجلى وكلفن فى سويسرا. ولجأت البابوية إلى أساليب عنيفة لمنع انتشار المذهب البروتستنتى وجاء تأسيس جمعية الجزويت بمرسوم من البابا فى عام ١٥٤٠، وكان أعضاء الجمعية رهن إشارة البابا وازداد نفوذهم بعد أن منحهم جريجوار الثالث عام ١٥٧٥ العديد من الإمتيازات فانتشرت مدارسهم فى أوروبا. وفى القرن السابع عشر أصبحت المعاهد العلمية من مدارس وجامعات فى أوروبا فى أيدى الجزويت الذين حرصوا على تثبيت مذهبهم فى أوروبا وفى العالم الجديد المكتشف فى الشرق الأقصى أى فيما وراء البحار كما حاولوا أيضًا العمل فى الحبشة ومصر.

رغم اتجاه الدول الأوروبية نحو العالم الجديد والهند خلال فترة الكشوف الجغرافية إلا أن هذا لم يمنعها فى فترة لاحقة من الاهتمام بمناطق الشرق الإسلامى. ولذلك توافد الرحالة الأوروبيون على مصر فى الفترة الممتدة من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر حركتهم عدة دوافع منها الرغبة فى زيارة

# الفصـل الثانى

# التعريف بالرحالة الأوروبيين

الفصل الثانى

## تعريف بالرحالة الأوروبيين

توافد على مصر أعداد هائلة من الرحالة الأوروبيين تباينت خلفيتهم الثقافية والحضارية وأهدافهم من الرحلة إلى مصر. يمكن أن نجملهم فيما يلى :

**أولاً: رجال الدين:**

يعتبر ليو الأفريقى من أشهر الرحالة الذين زاروا مصر فى مطلع القرن السادس عشر وهو ليس من رجال الدين المسيحى وإنما سجل تجربته فى الترحال بأمر من البابا ليو العاشر مما يدل على الاهتمام بمصر وأفريقيا فى هذه المرحلة المبكرة.

وقع الحسن بن محمد الوزان الزياتى فى الأسر ولقب بليو الأفريقى تيمنًا بالبابا ليو العاشر الذى أجبره على اعتناق المسيحية بعد أن مكث فترة فى إيطاليا تعلم خلالها اللغة الإيطالية واللاتينية.

زار ليو مصر فى عام ١٥١٧ والتقى بالسلطان سليم فى رشيد، وقدم فى مؤلفه وصفًا لمدن الوجهين القبلى والبحرى، ثم قام بعدة رحلات فى أفريقيا حتى سقط أسيراً فى عام ١٥١٨ . وبعد ثمانية أعوام من الأسر، وضع مؤلفه وصف أفريقيا فى عام ١٥٢٦ . ونظراً لأهمية هذا المؤلف فقد نشر بالفرنسية فى عام ١٥٥٥ ، ثم باللاتينية فى عام ١٥٥٦ . والإنجليزية فى عام ١٦٠٠ . والهولندية فى عام ١٦٦٥ ، وأعيد نشره بمختلف اللغات.

يتضح مما سبق أن ليو الأفريقى لم يكن ضمن بعثة دينية زارت مصر لها هدف

ديني محدد، ولكن كتابه نشر بأمر من ليو العاشر لأسباب دينية هي زيادة المعرفة والدراسة عن مصر وأفريقيا تمهيداً لعمل البعثات الدينية ونشر المذهب الكاثوليكي.

ويجب ألا نغفل أن الزيارة تمت في فترة حرجة من تاريخ مصر بعد إنهيار دولة سلاطين المماليك وتبعية مصر للدولة العثمانية العدو اللدود للبابوية في روما.

ـ **جريفان أفاجار**: رجل دين فرنسي زار مصر في عام ١٥٣٣ تجول في الثغور المصرية ثم ذهب لزيارة الأماكن المقدسة في بيت المقدس. وعاد لمصر مرة ثانية. اهتم كغيره من رجال الدين بزيارة المزارات المسيحية الهامة في سيناء، ولا سيما جبل موسى وكنيسة سانت كاترين.

ـ **أندريه تيفيه**: رغم أنه رجل دين فرنسي إلا أنه اهتم بجغرافية الشرق ومصر اهتماماً كبيراً، زار العديد من البلاد في الفترة ١٥٤٦ ـ ١٥٥٣ منها الأماكن المقدسة في الشام والمزارات المسيحية في مصر. وضع ثلاثة مؤلفات سجل فيها رحلاته عن الشرق، نشر الأول في عام ١٥٥٤ خصصه عن جغرافية الشرق. واهتم في الثاني بجغرافية العالم ونشره في عام ١٥٧٥ . أما الثالث فكان عن ملوك فرنسا. هذا وقد اهتم تيفيه في مؤلفه الثاني بإلقاء الضوء عن مصر وزوده بالعديد من الرسومات عنها.

ـ **جان بالرن**: رجل دين فرنسي زار مصر في عام ١٥٨١ ، طاف بالقاهرة، والإسكندرية، ورشيد، وسيناء. وعلى الرغم من كونه من رجال الدين إلا أنه كان شاعراً أيضاً وله أشعار محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس. سجل بالرن رحلاته في كتاب طبع عام ١٦٠٦ ، ضمن فيه البلاد التي زارها في الشرق ولا سيما الشام والأراضي المقدسة والدولة العثمانية ومصر.

ـ **دي فيلا مون**: رجل دين فرنسي زار مصر عام ١٥٨٩ بعد أن حصل على إذن من بابا روما بزيارة الأماكن المقدسة في الشام، والمزارات المسيحية في مصر. وأثناء عودته وقع في أسر المغاربة ولكنه نجح في العودة إلى البندقية ومنها إلى فرنسا. نشر كتابه في عام ١٥٩٥ ثم توالت طبعات النشر فطبع حوالي ٢٦ طبعة في ليون وروان وباريس.

ـ **الأب كوبان**: تعتبر رحلة الأب كوبان من أهم الرحلات التي قام بها رجل دين فرنسي، فقد زار مصر في عام ١٦٣٨ وكان يعمل في سلاح الفرسان وسافر وعدة

زيارات إلى الآستانة، وقام برحلتين إلى مصر الأولى في عام ١٦٣٨ استمرت حتى عام ١٦٣٩ . أما الثانية فكانت في عام ١٦٤٣ ، عمل خلالها قنصلاً لفرنسا في دمياط . هذا وقد نشر كوبان رحلاته في عام ١٦٨٦ . ولعل أخطر ما تضمنته مؤلفاته هو الدعوة لتكون حملات صليبية جديدة ضد الشرق، وقد سجل مؤلفًا بعنوان الحرب الصليبية دعا فيه لتحرير الشرق المسيحي من الدولة العثمانية .

ـ **الأب فانزليب**: ألماني الأصل أرسله الوزير الفرنسي كولبير في بعثة إلى أثيوبيا فزار مصر في عام ١٦٧٢ وتجول في صعيدها وحرص خلال رحلته على شراء المخطوطات، وقد نشر مؤلفه عن مصر في عام ١٦٧٧ .

إذا كنا قد تحدثنا عن رجال الدين والحجاج الأوروبيين فينبغي ألا نغفل من اعتنق منهم الإسلام، ولعل أشهر هؤلاء جوزيف بيتس أو الحاج يوسف . وهو بريطاني الأصل عمل بحاراً في عام ١٦٧٨ ثم وقع في أسر البحارة الجزائريين، فباعوه لفارس جزائري، وظل يباع حتى اشتراه رجل طاعن في السن . اعتنق بيتس الإسلام وهو في خدمته، وقد اعترف في مؤلفه بأن سيده لم يجبره على اعتناقه . وقد أدى فريضة الحج إلى مكة مع سيده، وسلك طريقًا بريًا من الجزائر إلى الإسكندرية ثم رشيد، ومنها أبحر في النيل وزار مدن البحر الأحمر، ولا سيما السويس، ثم اتجه نحو الأراضي الحجازية . وبعد أداء الفريضة أعتقه سيده في مكة فزار المدينة المنورة ثم عاد إلى الجزائر ومنها تمكن من العودة إلى موطنه الأصلي بريطانيا فبدأ جولة جديدة في أوروبا زار خلالها إيطاليا وهولندا وألمانيا .

نشر الحاج يوسف في عام ١٧٠٤ كتابًا بعنوان «حقائق عن الإسلام» .

في أواخر القرن السابع عشر زار الأب فرزيان مصر في عام ١٦٩٧ وكان ينتمي لليسوعيين (الجزويت) كلف من قبل ملك فرنسا بإقامة المنشآت في القاهرة لتسهيل نشر المسيحية في أثيوبيا . ولكن لم يكتب لبعثته النجاح بسبب مقاومة بعثات الفرانسيسكان للبعثات اليسوعية في الحبشة . وإذا كان هدف فرزيان الأساسي من رحلته هي أثيوبيا فإن مصر كانت المحطة الهامة والمركز الرئيسي .

يتضح مما سبق أن معظم رجال الدين الذين زاروا مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانوا من الفرنسيين نظراً لطبيعة العلاقات العثمانية الفرنسية خلال

هذه الفترة وحرص فرنسا على تجديد امتيازاتها والتعرف على الشرق ولا سيما مصر ونشر مذهبها الكاثوليكى وتنمية تجارتها .

يلاحظ أن زيارات رجال الدين لمصر ولا سيما فى القرن السادس عشر جاءت بعد تأدية فريضة الحج ، فكان هدفهم هو استكمال زيارة المزارات المسيحية فى مصر ولا سيما دير سانت كاترين وكنائس مصر القديمة وبستان مريم فى المطرية .

دعا بعض رجال الدين ولا سيما الأب كوبان لإحياء الحروب الصليبية ، يتضح أيضًا أن هدف رجال الدين الرئيسى كان نشر المذهب الكاثوليكى ولا سيما فى أثيوبيا الأرثوذكسية .

وأخيرًا رغم انتماء الرحالة الدينى إلا أن البعض منهم كان جغرافيًا وشاعرًا .

استمر تزايد أعداد رجال الدين وزيارتهم لمصر فى القرن الثامن عشر نذكر أشهرهم :

ـ **الأب كلود سيكار**: عمل أستاذًا للدراسات الإنسانية فى ليون بفرنسا ، وصل إلى الشرق على رأس بعثة دينية ، تعلم اللغة العربية واليونانية والسريانية والعبرية ، زار مصر فى عام ١٧٠٧ ومكث فيها عشرين عامًا ، وتوفى بسبب إصابته بالطاعون . هذا وكان الهدف الرئيسى للزيارة هو تحويل الأقباط فى مصر إلى المذهب الكاثوليكى .

ـ **الأب دورفال**: زار مصر فى عام ١٧٤٧ وكان الهدف الرئيسى من رحلته هو الحصول على المخطوطات العربية لإمداد المكتبات فى فرنسا . وقد حصل دورفال على دعم الفاتيكان ، وهو من القلائل الذين زاروا الأزهر الشريف وتعرف على علمائه ونجح فى الحصول على العديد من المخطوطات العربية .

ـ **الراهب كلودلويس فورمون**: انحدر فورمون من أسرة اهتمت بالآثار والاستشراق فى فرنسا . زار مصر عام ١٧٤٧ ومكث فيها أربعة أعوام ثم عاد إليها مرة ثانية فى عام ١٧٥٤ أجاد اللغة العربية . ولذلك اطلع على مؤلفات المقريزى وابن دقماق وأعجب بها إعجابًا شديدًا وحرص على تعريف القارئ الفرنسى بها .

ـ **الأب شانوان دى بينو**: زار مصر فى عام ١٧٧٧ وكان يعمل فى كاتدرائية بيرنيه بفرنسا ونشر مؤلفه عن مصر فى عام ١٧٨٧ .

ـ **أنتس**: يعتبر أنتس من أشهر رجال الدين البريطانيين جاء إلى مصر لنشر مذهب الكنيسة الإنجيلكانية بين الأقباط فوصل مصر فى عام ١٧٧٠ واتجه منها إلى أثيوبيا لتحقيق نفس الغرض ولكنه فشل فى مهمته لتمسك الأقباط فى الدولتين بمذهبهم الأرثوذكسى .

ـ يعتبر **الراهبان هيبوليت فيسكنسكى وبارسكى** من أشهر رجال الدين الروس . زار الأول مصر فى عام ١٧٠٨ بعد زيارته للأماكن المقدسة فى الشام . مكث فيها أسبوعين تجول خلالهما فى دمياط والإسكندرية ، وشبه جزيرة سيناء ، حيث زار دير سانت كاترين . ورغم كونه من رجال الدين.إلا أنه قدم فصلين فى مؤلفه خصصهما عن الطيور فى مصر ، ونشرت الجمعية الملكية للتاريخ والآثار الروسية التابعة لجامعة موسكو رحلة هيبوليت فى عام ١٨٧٧ .

أما **بارسكى** فقد زار مصر والشام وتجول فى شبه جزيرة سيناء والمدن المصرية خلال الفترة من عامى ١٧٢٦ ـ ١٧٢٩ . وقد اهتمت الأكاديمية الملكية للعلوم فى سانت كاترين ببترسبورج بنشر رحلته .

يتضح مما سبق أن رجال الدين تعددت وظائفهم ، فمنهم المستشرق ، ومنهم الأساتذة فى الكليات ، ومنهم أعضاء فى جمعيات التاريخ الطبيعى ، ولم يكن هدفهم دينيًا فحسب وإنما اهتموا برصد المجتمع المصرى ودراسة المدن المصرية .

استمر توافد رجال الدين وزيارتهم لمصر فى القرن التاسع عشر ولعل أشهرهم وأخطرهم ما يلى :

ـ **جماعة السان سيمون** : زار الأب بروسبيه انفتان مصر مع إرساليته فى عام ١٨٣٤ على أمل إقناع محمد على بمشروع قناة السويس مؤكدًا بأنه مشروع للسلام والوفاق بين القارات ، إلا أنه لم يستطع أن ينكر بأنه كان أيضًا مشروعًا دينيًا «إنها صليبية جديدة تقودها فرنسا» كما صرح .

اتخذ السان سيمون كلمة بونابرت المأثورة شعارهم «عن طريق مصر وحدها يمكن أن تتلقى شعوب وسط أفريقيا النور والرفاهية»، هذا وقد اقتنع السان سيمون بضرورة اختلاط السلالات البشرية خاصة السلالة الأفريقية النابضة بالعاطفة مع السلالة البيضاء المتسلحة بالعلم.

- عبر الأب بروسبيه انفتان عن هدفه بقوله: «إن الغرب هو الأب الذى أنجبنى والشرق هو الأم التى احتضنتنى»، ثم عبر عن مشروع شق قناة السويس: «نشق أحد الطرق الأوروبية الجديدة بين مصر العريقة ومملكة يهوذا جنوب الهند والصين، ولنضع قدمًا على النيل وأخرى فى أورشليم، ولنمد يدنا اليمنى صوب مكة فى حين تغطى ذراعنا اليسرى روما بينما مازلنا نتكىء على باريس، السويس هى بؤرة حياتنا وكفاحنا».

- جيسكيه: كان من رجال الدين الفرنسيين زار مصر فى عام ١٨٤٨ ودعا إلى شن حرب صيليبية وإدخال الحضارة والمدنية الأوروبية فيها، ووضع مؤلفًا من جزأين شق فيهما سلسلة من الحملات على محمد على ونظام حكمه.

يتضح مما سبق تزايد خطورة رجال الدين فى القرن التاسع عشر فوضعوا المشاريع الاستعمارية ودعوا لاحتلال مصر متخفين وراء شعارات إنسانية آملين استردادها بعد خروج الحملة الفرنسية.

يلاحظ أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر مازلنا نقرأ فى مؤلفات رجال الدين الدعوة إلى إعلان الحروب الصليبية على الشرق ومصر.

**ثانيًا: رحالة سياسيون:**

- جان تينو: يعتبر جان تينو أول من زار مصر من الرحالة الفرنسيين فى مطلع القرن السادس عشر أى قبيل وقوعها فى يد الدولة العثمانية، وقد كان موفدًا مع بعثة السفير الفرنسى أندريه لى روى إلى السلطان قانصوة الغورى آخر سلاطين دولة المماليك. وكان الهدف الرئيسى من رحلته إيجاد تقارب وتقوية العلاقات الفرنسية المملوكية.

أثارت مصر إعجاب تينو فسجل عبارته الشهيرة: «رغم ما كتبه العرب عن مصر والقاهرة إلا أن مؤلفاتهم لا تضارع الأوروبيين عنها لأنها تعكس وجهة النظر الأوروبية».

ـ **السفير الفرنسي درامون**: زار سفير فرنسا في الآستانة مصر بعد أن استأذن السلطان سليمان القانوني في زيارة الأماكن المقدسة في بلاد الشام في عام ١٥٤٩ ومنها توجه إلى مصر حيث استقبله على باشا الوالي العثماني. والطريف أن درامون لم يسجل رحلته وإنما قام بهذه المهمة سكرتيره الذي رافقه في الرحلة ويدعى شسنو.

ـ **فرانسو دي بريف**: تعتبر رحلة دي بريف من أهم الرحلات التي تمت في القرن السابع عشر، فقد أرسله الملك هنري الرابع ملك فرنسا إلى الدولة العثمانية لتجديد الامتيازات الفرنسية.. أتم دي بريف مهمته ثم اتجه إلى بلاد الشام لتأدية فريضة الحج في عام ١٦٠٤ ثم زار مصر وسجل رحلته مرافقه دي كاستل ونشرها بعد وفاته.

ـ **فنسان ستو شوف**: رحالة بلجيكي رافق جيل فرمنال عضو برلمان نورماندي الفرنسي في رحلة لأداء مناسك الحج وصاحبهما الفرنسي روبرت فوفيل، تجولوا جميعًا في بلاد الشام في عام ١٦٣١ ثم اتجهوا إلى مصر لزيارتها ونشر فنسنان أخبار رحلتهم في عام ١٦٤٣، ومازالت مكتبة بروكسل تحوي نسختين من مخطوط المؤلف.

ـ **الفارس دارفيو**: زار مصر في عام ١٦٥٨ بتكليف من الوزير الفرنسي كولبير في مهمة رسمية إلى الباب العالي لإطلاق سراح بعض الفرنسيين تم أسرهم في تونس أثناء سفرهم، ودعا دارفيو لشن حرب صليبية ضد الدولة العثمانية، وقد نشر الأب لابا رحلة دارفيو في عام ١٧٣٥.

يلاحظ مما سبق أنه رغم وجود الدافع السياسي للرحلة إلى مصر لأداء مهمة رسمية إلا أن البعض منهم طالب بضرورة غزو مصر وإعلان الحرب الصليبية على الدولة العثمانية رغم أنه كان مكلفًا في الأصل بمهمة سياسية لتوطيد العلاقات مع الدولة العثمانية أو تجديد امتيازات أو إطلاق سراح أسرى.

هذا وقد شـهد القرن الثامن عشر ظاهرة هامة ألا وهى قيام القناصل ونوابهم بالتجول فى مصر ووضع المؤلفات عنها ولعل أهم هؤلاء :

ـ لى نوار لى رول: الذى عمل نائبًا للقنصل الفرنسى فى طرابلس ثم فى دمياط فى عام ١٧٠١ ، وقد كلفته الحكومة الفرنسية بالاتصال بالحبشة لإقامة علاقات بين البلدين وفتح أسـواق لتصريف المنتجات الفرنسية الصناعية ونشر المذهب الكاثوليكى . وقد اتجه لى رول جنوبًا إلى أسيوط ومنها إلى وادى حلفا ثم توغل فى السودان حتى وصل سنار فى عام ١٧٠٥ حيث قتل هو ومعظم أفراد بعثته .

وهكذا لم تلق البعثات الكاثوليكية نجاحًا فى الحبشة حتى القرن الثامن عشر بسبب تمسك أهلها بالمذهب الأرثوذكسى ، كذلك بسبب عمل الفرنسيسكان فى المنطقة لمدة طويلة فحرضوا المسئولين على استبعادها .

ـ ميليه: مكث القنصل الفرنسى بينو دى ميليه فى مصر ستة عشر عامًا من ١٦٩٢ حتى ١٧٠٨ حرص خلالها على تدوين مشاهداته عن مصر ، وقد قام الراهب لى ماسكريه بنشر مذكرات ميليه فى عام ١٧٣٥ باسم وصف مصر وهو الاسم الذى اقتبسه بونابرت وعلماء الحملة الفرنسية .

كتب ميليه مذكراته حول مصر على هيئة رسائل بلغ عددها ثلاث عشرة رسالة خصصها للحديث عن جغرافيتها ووصف مدن الدلتا والثغور والثروة الاقتصادية . كما قدم وصفًا للعمارة الإسلامية فكانت هذه المذكرات حصيلة لمشاهداته واكتشافاته للآثار المصرية القديمة والموميات والمخطوطات القبطية التى أولاها اهتمامًا شديداً .

وفى عام ١٧٤٣ ظهر مؤلف آخر لميليه عن حكومات مصر القديمة والحديثة .

أما عن أهم كتابات الرحالة السياسيين فى القرن التاسع عشر يمكن إجمالها فيما يأتى :

ـ هنرى صولت: عين قنصلاً لبريطانيا فى مصر فى عام ١٨٠٦ ، وقد أولى الآثار المصرية اهتمامه فجمع عدداً كبيراً من القطع الأثرية وقد ساعده جيوفانى بلزونى أحد الإيطاليين الذين عملوا فى مصر ونشر صولت مؤلفه الذى يحوى ملاحظات هامة عن مصر والهند وأثيوبيا والبحر الأحمر .

رغم صفة صولت السياسية والدور السياسى الهام الذى لعبه فى مصر خلال فترة وجوده إلا أن هذا لم يمنعه من الاهتمام بالآثار المصرية والقيام ببعض الاكتشافات الأثرية.

ـ **الكولونيل بوتان**: زار بوتان مصر فى عام ١٨١١ مندوبًا عن الحكومة الفرنسية بصحبة القنصل دروفتى فتجولا فى مدن الوجه القبلى مما أثار القنصل البريطانى ميست الذى عمل على الدس بينه وبين محمد على.

تجول بوتان فى وادى الملوك والقرنة ومدن البحر الأحمر. وعاد ومعه كميات كبيرة من المخطوطات والآثار وأوراق البردى والتماثيل وحرص على تسجيل أخبار رحلته عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية والعسكرية فى الشرق.

وكانت هذه الرحلة بتكليف من الإمبراطور بونابرت ليدرس إمكانية غزو الشرق ومصر مرة ثانية إذا ما أتيحت له الفرصة.

ـ **الكونت دى ماسيليوس**: رحالة فرنسى زار مصر فى عام ١٨٢٠، تمتع بثقافة عالية وكان يعمل فى السلك الدبلوماسى.

ـ **البارون رونوار دى بوسيير**: فرنسى زار مصر فى مهمة دبلوماسية، ونشر رحلته فى عام ١٨٢٩ بعنوان رسائل عن الشرق وزود مؤلفه بأطلس كبير وعدة رسومات والكتاب خير شاهد على رحلات الفرنسيين فى جنوب مصر.

ـ **جيمس أوجستس سانت جون**: رحالة بريطانى زار مصر فى عام ١٨٣٢، التقى بالعديد من المسئولين فى حكومة محمد على كما التقى بقناصل الدول الأوروبية ولا سيما القنصل الأمريكى وأجرى عدة لقاءات مع البريطانيين العاملين فى خدمة محمد على.

ورغم اهتمامات سانت جون السياسية إلا أنه قدم وصفًا لأحوال مصر الاقتصادية.

ـ يعتبر **جون بورنج** من أهم السياسيين البريطانيين الذين زاروا مصر، وترجع شهرته بسبب التقرير الهام الذى قدمه إلى بلمرستون وزير الخارجية البريطانية فى

عام ١٨٣٩ وكان عنوانه «تقرير عن مصر وكريت»، وقد طبعته الحكومة البريطانية وقدمته إلى البرلمان فى عام ١٨٤٠ .

كان بورنج مكلفًا من قبل الحكومة لوضع تقرير عن مصر وحالتها وما ينتظر أن تكون عليه فى المستقبل، ولذلك أظهر منذ قدومه نشاطًا واسعًا وعكف على جمع المعلومات والإحصاءات عن البلاد ومنتجاتها واعتمد على السلطات المحلية والعاملين البريطانيين فى خدمة محمد على لجمع البيانات اللازمة .

يتضح مما سبق أن السياسيين الأوروبين الذين زاروا مصر أو أقاموا لفترة فيها كانوا مكلفين بمهام سياسية، ولكن لم يمنعهم ذلك من تسجيل رحلاتهم فى مصر وتقديم وصف للمدن المصرية . كما اهتموا بشراء المخطوطات وبدراسة الآثار المصرية .

## ثالثا: رحالة عسكريون:

ـ **البارون دى توت**: رحالة مجرى عمل فى خدمة فرنسا عين مفتشًا لأساكل الشرق. زار مصر فى عام ١٧٧٧ وتفقد سواحلها واستحكاماتها العسكرية .

ـ **الضابط أوليفيه**: زار مصر فى عام ١٧٩٦ بتكليف من حكومة الإدارة فقد كان عضواً فى الجمعية الجغرافية الفرنسية فى السين . زار مصر وفارس ووضع مؤلفه قبل مجىء الحملة الفرنسية وأوضح فيه سهولة الاستيلاء عليها لأن قلاعها وحصونها واستحكاماتها بلا دفاع .

يمكن أن نطلق على كل من البارون دى توت وأوليفيه الرحالة الجواسيس، ولا سيما وأن زيارة الأخير وما دونه كان من أهم أسباب مجىء الحملة الفرنسية على مصر .

بمجىء الحملة الفرنسية على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر جاء القائد البريطانى وليم ويتمان إلى مصر لمشاركة قوات الدولة العثمانية فى طرد الفرنسيين، وقد شارك فى الحملة بصفته ضابطًا فى المدفعية، كما كان عضواً فى الكلية الملكية الطبية فى لندن .

لم يكتف ويتمان بعمله كضابط وجراح، وإنما حرص بعد عودته إلى بلاده على تسجيل مؤلفه وجاء بعنوان «رحلات فى تركيا وآسيا الصغرى وسوريا عبر الصحراء إلى مصر خلال أعوام ١٧٩٩ ـ ١٨٠٠ ـ ١٨٠١»، ونشر مؤلفه فى لندن عام ١٨٠٣ قدم من خلاله وصفًا جغرافيًا واقتصاديًا للمدن المصرية التى حرص على التجول فيها.

جذبت مصر انتباه الرحالة الأوروبيين من العسكريين فى القرن التاسع عشر نذكر من بينهم:

ـ **دومنيجو باديا لبلخ (على العباسى)**: إسبانى الأصل أوفده بونابرت فى مهمة رسمية إلى الشرق بهدف الاتصال بالمسلمين والتعرف على أحوالهم وعلى أهم القوى السياسية فى مصر والجزيرة العربية.

ادعى دومنيجو بأن اسمه على العباسى وأنه آخر سلالة العباسيين، زار الحجاز ونشر مخطوطه الذى ترجم من الإسبانية إلى الفرنسية. ثم حاول العودة إلى الشرق مرة أخرى ولكنه توفى فى دمشق عام ١٨١٨، وقيل إن السلطات البريطانية دست له السم لأنها اعتبرته جاسوسًا فرنسيًا. وهناك من ينفى صفة التجسس ويؤكد أنه أحد موظفى البحرية الفرنسية؛ أرسل لتدوين بعض الملاحظات عن منطقة البحر الأحمر.

ـ **جيوفانى فيناتى**: إيطالى عمل فى الجيش الفرنسى ثم فى خدمة محمد على، عمل فى القنصلية البريطانية فى مصر، دون مذكراته عن الرحالة البريطانيين فى مصر والشرق الأدنى، وقد نشر مؤلفه فى لندن فى عام ١٨٣٠.

ـ **المارشال مارمون (دوق دى راجوز)**: جاء المارشال مارمون إلى مصر ضمن قوات الحملة الفرنسية ثم عاد إليها مرة ثانية فى عام ١٨٣٤ وكتب عنها بأنها تذكره بشبابه.

كان الهدف من زيارته هو تزويد الجيش المصرى بالمعدات والأسلحة، وقد وجد مارمون أن مصر قد تغيرت بدرجة كبيرة عما كانت عليه فى عهد الحملة الفرنسية.

لم يكتف مارمون بالعمل لدى محمد على وإنما تجول فى المدن المصرية ووضع مؤلفًا عن رحلاته يعتبر مصدرًا للحياة العسكرية والاقتصادية والاجتماعية.

ـ **الكونت بارديو**: زار مصر فى عام ١٨٤٩ بعد وفاة محمد على، كان ضابطًا فى الجيش الفرنسى اختلف مع الساسة الفرنسيين بعد نشوب ثورة ١٨٤٨ فى فرنسا، وقام بعدة رحلات إلى الشام والجزيرة العربية وليبيا ونشر مؤلفه الذى ألقى فيه الضوء على الحياة الاجتماعية فى مصر.

**رابعًا: علماء وأكاديميون:**

زار مصر العديد من العلماء وأعضاء البعثات الأكاديمية نذكر من أهمهم ما يلى:

ـ **بير بيلون دى مان**: كان عالمًا فرنسيًا متخصصًا فى العلوم الطبيعية قدم وصفًا دقيقًا للبيئة المصرية، زار مصر فى الفترة (١٥٤٧ ـ ١٥٤٩) وتجول فى آسيا واليونان والجزيرة العربية، وترجع أهمية رحلاته أنه قدم وصفًا للبيئات الطبيعية التى زارها فنشر كتابه عن الأسماك فى عام ١٥٥١، وكتابه الثانى عن العصافير عام ١٥٥٥، أما الثالث فخصصه عن رحلاته فى الشرق.

ـ **بلتازار دى منكونى**: كان يعمل ضابطًا فى الجيش الفرنسى ينتمى لعائلة أفرادها من الضباط، ولكنها تهتم بالعلم اهتمامًا كبيرًا، تلقى تعليمه فى كلية الجزويت فى ليون حيث تعلم اللغة العربية. ولما كانت له اهتمامات بالفيزياء والكيمياء والرياضيات فقد أرسله والده إلى إسبانيا لإتمام دراسته فى إحدى الجامعات، زار مصر فى عام ١٦٤٦ ونشر نتائج رحلته عام ١٦٦٥ وسجل فيها حرصه على إجراء التجارب والاهتمام بالعلوم. وقد عين فى أكاديمية باريس وقام بعد ذلك بعدة جولات فى أوروبا وبريطانيا حيث التقى بعلماء جامعة أكسفورد، وبعد عودته إلى فرنسا أسس فى ليون أكاديمية الفيزياء. ولذلك غلبت عليه الصفة العلمية أكثر من العسكرية.

ـ **جان تيفنو**: تعتبر رحلة جان تيفنو من أهم الرحلات فى النصف الثانى من القرن السابع عشر. وكان تيفنو يعمل فى مكتبة ملك فرنسا، تعلم اللغة العربية وزار أوروبا والدولة العثمانية والهند وفارس، ثم زار مصر فى عام ١٦٥٧ ومكث فيها عامين. وترجع أهمية كتابات تيفنو إلى أنها ألقت الضوء على بعض الاحتفالات فى القاهرة

سُجلت لأول مرة، مثل احتفالات سفر الخزنة إلى الآستانة، استقبال باشا جديد وغيرها من الاحتفالات. كما أنه اهتم بتعريف أهم الوظائف الرئيسية فى مصر.

ـ **الطبيب شارل بونسيه**: أقام فى القاهرة وكلف من القنصل الفرنسى دى ميليه بالسفر إلى أثيوبيا لإقامة علاقات تجارية مع فرنسا ونشر المذهب الكاثوليكى وتحقيق آمال اليسوعيين فيها. وقد أرسله ميليه لعلاج حاكم الحبشة من الجذام، توغل بونسيه فى مدن مصر العليا عام ١٦٩٨ ومنها اتجه مع زميله بريدفان إلى السودان حيث توفى فى جوندار وأكمل بونسيه رحلته وحاول إقناع ملك الحبشة بإرسال بعثة حبشية إلى باريس.

ـ **الطبيب جرانجيه**: ذاعت شهرته فى مارسيليا وطولون وفى عام ١٧٢١ عمل جراحًا فى مستشفى رجال الدين الإسبان فى تونس ثم زار مصر فى عام ١٧٣٠ وعاد إليها مرة ثانية فى عام ١٧٣٤، وكان مكلفًا فى الزيارة الثانية بمهمة رسمية من قبل ملك فرنسا ألا وهى البحث عما يخدم التاريخ الطبيعى.

ـ **ريتشارد بوكوك**: زار بوكوك مصر فى الفترة من ١٧٣٧ إلى ١٧٤٢ وتجول خلالها فى المدن المصرية ولا سيما مدن الوجه القبلى ومنطقة البحر الأحمر وسيناء، ونشر مؤلفه فى لندن عام ١٧٦٣ واهتم بزيارة الأديرة القبطية.

ـ **كلود إيتيان سافارى**: من أهم الرحالة الذين زاروا مصر فى عام ١٧٧٧، درس فى كلية الراين، مكث فى مصر حوالى ثلاث سنوات، درس اللغة العربية وله مؤلفات عن النحو العربى وعن شمائل محمد طبع فى عام ١٧٨٤. كانت له صلاته بالاكاديمية العلمية فى باريس. كان الغرض من رحلات سافارى هو تدوين ملاحظته عن الإمبراطوريات والديانات وبطولات الشعوب والاتصال بالعرب واليونانيين، وقد سجل سافارى إعجابه بالحضارة الإسلامية إعجابًا كبيراً.

ـ **سونينى دى مانكور**: عمل محاميًا ومهندسًا بحريًا زار أمريكا (١٧٧٢ـ١٧٧٥) وأفريقيا الغربية وكان مهتمًا بالتاريخ الطبيعى والطبى، سافر إلى مصر (١٧٧٧ ـ ١٧٨٠) بتكليف من الكونت بوفون للقيام بعدة أبحاث، وكانت رحلته إلى مصر رسمية ولذلك أمدته غرفة تجارة مارسيليا بالأموال، نشر مؤلفه فى ثلاثة أجزاء مزودة بالرسومات عن آثار مصر وثرواتها الاقتصادية.

ــ فولني: عمل محاميًا أعجب بالمفكر الفرنسي فولتير فأخذ منه المقطع الأول من اسمه والمقطع الأخير من اسم المقاطعة التي ولد فيها وهي فيرني ليصبح اسمه فولني. أتقن اللغات القديمة وعكف على دراسة التاريخ والطب وعلل أسباب رحلاته بأنها لإرضاء نزعته الثقافية وزار مصر عام ١٧٨٢ . اتسمت كتاباته تجاه مصر بالتعصب والكراهية بينما أعجب بسوريا إعجابًا شديدًا ونشر مؤلفه عن سورية ومصر وزوده بالخرائط. عين في عهد حكومة الإدارة أستاذًا للتاريخ الطبيعي بمعهد المعلمين العالي. تأثر بونابرت بمؤلفات فولني وعرض عليه اصطحابه إلى مصر ولكنه رفض.

ــ جيلجهورن: كان أستاذًا للتاريخ الطبيعي في جامعة سانت أندروز، زار مصر وهو في طريقه إلى سيلان، قدم عدة مقترحات بشأن تحسين وتطوير مواصلات بريطانيا مع الهند عن طريق البحر الأحمر ومصر.

ــ الجراح مادين: عاش ريتشارد مادن الجراح الأيرلندي الأصل في مصر في الفترة من ١٨٢٤ حتى ١٨٢٧ ووضع مؤلفه عن رحلته إلى مصر والنوبة وفلسطين. وفي عام ١٨٢٥ أصبح مادين الطبيب الخاص للقنصل البريطاني في مصر هنري سولت.

ــ كلوت بك: طبيب فرنسي وضابط وعضو بالأكاديمية الملكية الطبية في باريس زار مصر ثم استقر فيها ويعتبر مؤسس الخدمات الطبية في مصر. وضع مؤلفه عنها في عام ١٨٤٠ ضمن فيه تجاربه وخبرته لمدة خمسة عشر عامًا قضاها في خدمة محمد علي، ويعتبر مؤلفه سجلاً لكل ما يتعلق بمصر من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأثرية.

ــ المؤرخ الفرنسي جوزيف ميشو: هو مؤرخ الحرب الصليبية الشهير ووصل مصر في عام ١٨٣٠ ، أعجب بمصر وركز اهتمامه وحديثه عن المصريين وسجل إعجابه بمحمد علي.

أفاد ميشو من عمل شقيقه لوي جابريل ميشو ناشرًا فنشر كتابه عن الحروب الصليبية في سبعة أجزاء، كذلك وضع كتابًا عن رحلته إلى الشرق برفقة صديقه بوجولا فسجل الأخير ملاحظاته عن فلسطين بينما دون ميشو ملاحظاته عن مصر.

ـ **جان جاك أمبير**: زار أمبير مصر في عام ١٨٤٢ وهو ينتمي لعائلة تهتم بالنواحي العلمية، فوالده المكتشف الفرنسي أندريه أمبير الذي اكتشف قياس التيار الكهربائي والذي اتخذ اسمه أمبير اسمًا لوحدة التيار الكهربائي. درس جان أمبير اللغة السنسكريتية وسافر إلى ألمانيا والتقى بالعالم الألماني الشهير جيته عام ١٨٢٧، ثم عين أستاذًا بالأكاديمية اللاتينية في مارسيليا حتى عام ١٨٣٣، ثم أستاذًا في كوليج دي فرنس. وفي عام ١٨٤٢ انتخب عضوًا بأكاديمية الوثائق ثم قرر السفر إلى مصر بعد أن قرأ ما كتبه شامبليون عنها وحصل على بعثة من وزير التعليم في فرنسا، وجاء إلى مصر وكلف بمتابعة جهود شامبليون ووضع مؤلفه عن مصر واهتم فيه بالآثار المصرية، ثم أصيب بالمرض والحمى فسافر إلى فرنسا ثم عاد إلى مصر مرة ثانية في عام ١٨٤٦ ليضع مؤلفه رحلة إلى مصر والنوبة الذي حوى ثروة من المعلومات عنها.

ـ **بارتليمي سان هيلار**: كون دي ليسبس لجنة دولية للإشراف على مشروع قناة السويس فعين سان هيلار سكرتيرًا عامًا وكان يعمل مهندسًا وأستاذًا في كلية فرنسا. وصل مصر مع دي ليسبس في عام ١٨٥٥ وكانت له اهتمامات بالحضارة الإغريقية القديمة، اهتم بمصر اهتمامًا كبيرًا فهو عالم سياسي وفيلسوف فكتب عنها خمسة عشر رسالة ظهرت في عام ١٨٥٧ منها ثماني رسائل وجهت من مصر إلى المستشرق الشهير دي ساسي نشرها في مجلة ديبا عام ١٨٥٦، وعندما عاد إلى فرنسا جمع هذه الرسائل ونشرها وكان لها طابعها العلمي المميز.

ـ **الكونت جوبينو**: له العديد من الدراسات عن الشرق ووصل السويس في عام ١٨٥٥ في طريقه إلى فارس حتى عين سفيرًا في طهران، نشر رحلته في عام ١٨٥٩ بعنوان «ثلاثة أعوام في آسيا» سجل فيها انطباعاته عن مصر، باختصار اتسمت كتاباته بالتعصب ضد الإسلام.

ـ **الطبيب كوني**: طبيب فرنسي كان يعمل في أسيوط، قام بعدة رحلات إلى مصر العليا وتزوج من ابنة لينان دي بلفون، عينه محمد على للإشراف الصحي في أسيوط ووطد صلاته بالتجار. وفي عام ١٨٥٨ قام بعدة رحلات إلى السودان.

ـ **أرنست رينان**: فيلسوف فرنسي زار مصر مرتين الأولى في عام ١٨٦١ وهو في طريقه إلى الشام والمرة الثانية في عام ١٨٦٢ حيث دون خلالها انطباعاته في عدة

مقالات فى مجلة العالمين . اهتم خلال فترة وجوده بزيارة الوجه القبلى حيث نزل ضيفًا على ماربيت عالم الآثار . نشرت رسائله وأعماله فى عام ١٩٤٨ .

ــ **أدمون ابو**: كان عضواً فى الأكاديمية الفرنسية جاء إلى مصر عام ١٨٦٨ مكلفًا من قبل حكومة نابليون الثالث لمساندة مشروع قناة السويس ومدى التقدم الذى أحرزته مصر ومراقبة إنشاء المحاكم المختلطة . ورغم اهتمامه بمشروع قناة السويس إلا أن شهرته جاءت عن طريق مؤلفة بعنوان «الفلاح أحمد» وهى دراسة وافية لعادات المصريين وتقاليدهم .

إذا تحدثنا عن أهم الأثريين الذين زاروا مصر فيجب أن نشير إلى :

ــ **بول لوكا**: تعتبر رحلة بول لوكا من أهم الرحلات التى تمت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد لقب لوكا بأثرى لويس الرابع عشر كلف من قبل الوزير بونشرتران بالسفر إلى الشرق بحثًا عن النباتات والأحجار الكريمة فقام بعدة رحلات زار مصر وسوريا عام ١٧٠٠ ، وفى الفترة من ١٧٠٤ ـ ١٧٠٨ زار اليونان وآسيا الصغرى وأفريقيا وقام بعدة رحلات إلى الدولة العثمانية ومصر فى الفترة من ١٧١٤ ـ ١٧١٩ ، استعان بول لوكا بأعضاء أكاديمية المخطوطات وعلماء الآثار فى تفسير العديد من المخطوطات والنقوش التى أحضرها معه من مصر .

ــ **إدوارد كلارك**: يعتبر كلارك من أهم الأثريين البريطانيين الذين زاروا مصر فى مطلع القرن التاسع عشر بعد جولة له فى الأراضى المقدسة . حضر عملية تسليم حجر رشيد للبريطانيين فى عام ١٨٠١ ، ظهر مؤلفه فى لندن عن رحلاته فى أفريقيا وأوروبا .

ــ **وليم هاملتون**: بريطانى زار مصر ونشر كتابه «مصريات» بعد ثمانى سنوات من زيارته وأصبح الكتاب مصدراً رئيسيًا للبريطانيين ولا سيما فى مجال الآثار ، وكان الغرض من مؤلفه هو سد الثغرات التى تركها الدانمركى نوردن وغيره عند الحديث عن الآثار المصرية ، وقد أخرج كتابه بأسلوب اليوميات وانحصرت اهتماماته فى المجال الأثرى .

ــ **جيوفانى بلزونى**: مهندس إيطالى زار مصر فى عام ١٨١٥ ، كلفه القنصل البريطانى صولت بالبحث عن الآثار . نجح فى فتح منفذ إلى معبد أبى سمبل وأزاح

الرمال عن مدخل الهرم الأوسط، وكشف مقبرة سيتى الأول فى وادى الملوك، ووضع مؤلفًا فى عام ١٨٢٠ فى لندن ثم ترجم ونشر فى باريس فى عام ١٨٢٦ .

ــ **فردريك كايو**: أثرى فرنسى زار مصر فى عام ١٨١٥، كان شغوفًا بالآثار المصرية ونظرًا لاهتماماته الأثرية وصف فى فرنسا بأنه مجمع علمى مصغر بسبب ملاحظاته الدقيقة، مكث فى مصر ثلاث سنوات قام خلالها بالعديد من الاكتشافات فى صحراء ليبيا (الغربية) وفى أعالى النيل وسنار فى السودان، وقد كلفه محمد على بالقيام بعدة جولات فى الصحراء الشرقية والغربية فتوغل جنوبًا حتى وادى حلفا وجنوب الشلال الأول، وقدم مجموعة من الرسومات والمخطوطات أحدثت ضجة كبيرة فى فرنسا .

ــ **ريفو**: زار ريفو مصر ومكث فيها أربعة عشر عامًا ركز اهتمامه فى الآثار، وعمل مع دروفتى القنصل الفرنسى فى الأقصر، وقد أطلق عليه محمد على لقب أبو أنتيك لاهتمامه الشديد بالآثار القديمة، وقد نجح فى اكتشاف بعض المعابد الملحقة بالكرنك والتى لم يلحظها علماء الحملة الفرنسية . كما قدم عدة رسومات تصور مصر القديمة والحديثة وقد أفاد منها شامبليون .

ــ **جان جاردنر ويلكنسون**: من رواد علم الآثار البريطانيين وصل مصر فى عام ١٨٢١ وأمضى اثنى عشر عامًا أفاد من فك رموز اللغة الهيروغليفية . اكتشف العديد من المقابر ونشر جهوده فى مجال الحفائر (١٨٢٨ـ١٨٣٤)، ويعتبر مؤلفه أول تنقيح لما ورد فى وصف مصر، وفى عام ١٨٣٧ نشر كتابه عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم وزود مؤلفه بعدد من الرسوم .

ــ **جان فرانسوا شامبليون**: أظهر شامبليون العالم الفرنسى اهتمامًا كبيرًا بالحضارة المصرية القديمة شجعه على ذلك المناخ الذى عاش فيه فى فرنسا، فقد جذبت مصر بحضاراتها القديمة الانتباه ولا سيما بعد مجىء الحملة الفرنسية التى ضمت العديد من العلماء والمستشرقين .

عكف شامبليون على دراسة اللغات الشرقية المعروفة ومنها القبطية . وقد عين مدرسًا فى كلية الآداب ونشر كتابه «مصر فى أيام الفراعنة»، ثم انكب على دراسة

الحضارة المصرية القديمة ونجح فى فك أسرار وطلاسم الهيروغليفية بفضل دراسته لحجر رشيد.

وفى عام ١٨٢٤ توجه إلى إيطاليا لدراسة المجموعات الأثرية المصرية فى متحف تورينو وأتقن الهيراطيقية والديموطيقية، وأعاد ترتيب قائمة ملوك مصر وجمع المعلومات الخاصة بالفن المصرى، ثم كلفه ملك فرنسا بالسفر إليها لشراء مجموعة الآثار المصرية التى يعرضها القنصل البريطانى هولت لنقلها إلى متحف اللوفر.

جاء شامبليون إلى مصر عام ١٨٢٨ مصممًا على تحقيق حلمه بدراسة الآثار المصرية، فقام بدراسة جادة للمعابد المشيدة على ضفتى النيل من الشلالين الأول والثانى، كما قدم لمحمد على مذكرة عن مجموعات معمارية ضخمة خاصة بمنطقة الأشمونين. كما قام بدراسة إقليم النوبة.

وعلى الرغم من جهوده إلا أنه وقع فى بعض الأخطاء فلم يميز هوية الملكة حتشبسوت فى الدير البحرى، ولكنه صحح اسم مقبرة أوسيما ندس الذى أطلقته لجنة المجمع العلمى وسماها باسمها الحقيقى الرامسيوم.

وأخيرًا بفضل شامبليون تكلمت الأحجار العريقة وأفصحت عن حضارتها.

ـ بريس دافين: ينتمى دافين لأسرة إنجليزية الأصل هاجرت إلى فرنسا. تعلم دافين الهندسة المعمارية ثم حضر إلى مصر عندما علم بحاجة محمد على للأوروبيين لتنفيذ مشروعات الرى والزراعة، فالتحق بخدمته عام ١٨٢٩ فعينه مهندسًا للرى ثم أستاذًا للطبوغرافية فى مدرسة أركان الحرب بالخانكة، ورغم جهوده فى مجال الزراعة والرى إلا أن أبحاثه فى الآثار أثارت الانتباه، فقد نبه على ضرورة الحفاظ على الآثار المصرية وحمايتها، ونجح فى كشف اثنتى عشرة غرفة فى معبد خوفو، كما كشف بردية عرفت باسمه ونجح فى نقل رسومات عن غرفة الملوك الشهيرة فى الكرنك وهى من أهم آثار تحتمس الثالث وحملها إلى باريس بعد أن فصل أحجارها وقد حفظت فى متحف اللوفر. ونظرًا لاهتمامه بالآثار حدثت منافسة شديدة بينه وبين الألمانى لبسيوس فى مجال التنقيب عن الآثار.

عاد دافين إلى مصر فى عهد سعيد باشا عام ١٨٥٨ وتجول فى البلاد مسجلاً

مشاهداته ومصوراً للآثار والمعالم الهامة، وله مؤلف عن مصر والآثار المصرية يضم نحو خمسين لوحة ويعتبر مكملاً لكتاب شامبليون عن آثار مصر والنوبة.

اهتم دافين بمصر الحديثة فوضع مخطوطة عن السياسة والإدارة فى مصر الحديثة وآخر بعنوان «أخلاق وعادات».

ـ **البارون تيلور**: أديب وأثرى زار مصر فى عام ١٨٣٠ وعمل مفتشًا للفنون الجميلة فى فرنسا، وهو مؤسس جمعية الأدباء وجاء إلى مصر بتكليف من الملك شارل العاشر فى مهمة رسمية لنقل مسلتى الأقصر إلى فرنسا وجاء بصحبة اثنين من الرسامين قدما رسومات رائعة عن آثار ومعابد مصر.

ـ **البارون كيرزون**: زار مصر وفلسطين فى عام ١٨٣٣ بحثًا عن المخطوطات الأثرية فى المكتبات ولا سيما فى الأديرة القديمة، ظهر مؤلفه فى لندن عام ١٨٤٩.

ـ **جون ستيفنس**: محام أمريكى تجول فى أوروبا واليونان وروسيا، زار مصر فى عام ١٨٣٦، انصب اهتمامه على الآثار المصرية فى سيناء ونشر مؤلفه فى لندن عام ١٨٧٦.

ـ **ريتشارد لبسيوس**: أثرى ألمانى قاد بعثة أثرية بروسية إلى مصر والنوبة (١٨٤٢ ـ ١٨٤٥)، زار سيناء وتوغل فى السودان حتى وصل إلى الخرطوم.

ـ **أوجست مارييت**: أثرى فرنسى زار مصر عام ١٨٥٧ اهتم بالتنقيب عن الآثار. أقنع سعيد باشا بإنشاء متحف لآثار فى بولاق. اتسعت دائرة اهتماماته فشملت مناطق سقارة والجيزة وميت رهينة وأبو صير ودهشور، وأكمل ما بدأه شامبليون. ويعتبر اكتشافه للسرابيوم من أهم الإنجازات. عين مديراً فى المكتبة الوطنية ثم أستاذًا فى كلية فرنسا، أفادت دراسته للآثار فألف أوبرا عايدة التى لحنها الموسيقار فيردى.

أما عن أهم المستشرقين الذين زاروا مصر فيمكن أن نذكر:

ـ **إدوارد وليم لين**: أظهر لين منذ صغره تفوقًا فى الرياضيات والأدب، أرسله والده إلى جامعة كامبريدج بهدف الانضمام للكنيسة ولكنه تخلى عن هذه الفكرة واتجه إلى لندن حيث تعلم اللغة العربية ثم اختار السفر إلى الشرق، فوصل مصر عام ١٨٢٥ وعقد العزم على دراسة اللغة العربية وطبائع الشعب المصرى على حد

سواء، ولذلك ارتدى الزى التقليدى المصرى وعهد إلى أستاذين لتعليمه اللغة العربية وأحكان الشريعة واختلط بالناس وعاش وسطهم متخذًا لنفسه اسمًا عربيًا، وارتاد منازل القاهرة وأسواقها وجوامعها حتى اكتسب ثقة المصريين وتمكن من التغلغل إلى أعماقهم، وحذا لين حذو العديد من الرحالة السابقين مثل الأمريكى فرنسيس باركمان الذى عاش مع هنود أمريكا الشمالية وأرمينيوس فامبرى الذى تنقل بين تتار آسيا، ولكن ميزة لين أنه استمر مدة أطول ممن سبقوه، وقد عاد لين إلى بريطانيا عام ١٨٢٨ ولم يجد ناشرًا لمؤلفه فى وصف مصر ثم رأى العودة إليها مرة ثانية لتحسين مؤلفه فوصلها عام ١٨٣٣ وبقى فيها عامين اكتسب خلالهما معرفة بها، ووضع مؤلفه «عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم» الذى صدر فى عام ١٨٣٦ فى جزأين زوده برسومات رسمها بنفسه فحقق مؤلفه الثانى نجاحًا سريعًا منقطع النظير، ثم عاد لين إلى مصر فى عام ١٨٤٢ بعد أن وضع فى بلاده العديد من المؤلفات وبقى فيها لمدة سبع سنوات أخذ يعد خلالها العدة لإصدار المعجم العربى، وقد صدر الكتاب بعد وفاته.

ــ **أوزيب دى سال:** زار مصر وهو فى طريقه إلى بيت المقدس خلال عامى ١٨٣٧ ـ ١٨٣٩ ونشر مؤلفه عنها فى عام ١٨٤٠، واتسمت كتاباته بالتعصب الشديد ضد الإسلام والمسلمين.

ــ **جيرار دى نرفال:** جاء إلى مصر عام ١٨٤٣ بصحبة صديقه تيوفيل جوتيه ـ اهتم بتسجيل رحلته إلى الشرق، وكتابه عن رحلته مزيج من الثقافة الرفيعة والمغامرات الممتعة والوصف الخلاب للعادات والتقاليد، جذبت الحياة الاجتماعية فى مصر أنظار جيرار خاصة الحفلات والموالد والراقصات والعوالم فى أسواق النخاسة.

حرص جيرار على تعلم اللغة العربية مما مكنه من الاطلاع على التراث الإسلامى وأعجب بتسامحه مع الأديان الأخرى.

ألهبت مقالات جيرار عن مصر خيال الفرنسيين خاصة تلك التى نشرها فى مجلة العالمين فى عام ١٨٤٦ عن نساء القاهرة وعبيد القاهرة وحريم القاهرة أضف إلى ذلك عدة مقالات أخرى عن احتفالات القاهرة.

ــ **أوجين فرومنتان:** كان فنانًا ومستشرقًا مشهورًا عميق الثقافة واسع الاطلاع

يعشق العزلة ولم يحتمل البقاء فى الصحراء، وصل مصر عام ١٨٦٩ وقدم مؤلفه عنها واصفًا مدن مصر العليا.

**خامسًا: مكتشفون:**

تزايدت رغبة الدول الأوروبية فى كشف قارتى آسيا وأفريقيا منذ منتصف القرن الثامن عشر وقد زار عدد من المستشرقين مصر ودونوا تجربتهم فيها لعل أهمهم ما يلى:

ـ **فردريك نوردن**: رحالة دانمركى زار مصر والنوبة (١٧٥١ـ١٧٥٥) قدم وصفًا لاضطرابات البدو فيها. عمل فى البحرية الدانمركية ونشرت رحلاته وطبعت عدة طبعات.

ـ **جيمس بروس**: يرجع الفضل لجيمس بروس الرحالة الأسكتلندى والطبيب فى كشف غموض نهر النيل وقد قام بعدة رحلات فى أوروبا ومنها سافر إلى بلاد الشام فى مصر فى عام ١٧٦٨ اتجه إلى القاهرة ومنها توغل جنوبًا فى مدن الوجه القبلى ولا سيما قنا والقصير. كذلك طاف بمدن البحر الأحمر فى عام ١٧٦٩، وزار جدة ومنها إلى الحبشة حيث وضع الملاحظات الهامة عنها من حيث جغرافيتها وتاريخها وعلومها ثم قدم مؤلفه إلى جورج الثالث ملف بريطانيا.

أدت معرفة بروس بالطب إلى تقربه من حاكم الحبشة الذى عينه رئيسًا لإحدى المقاطعات وقد نشر بروس رحلته فى سبعة مجلات مدعمة بالخرائط عن بحيرة تانا والجزر المنتشرة بها.

ـ **بروان**: من أهم الرحالة البريطانيين الذين زاروا مصر فى عام ١٧٩٢ فى طريقه إلى الحبشة كل مشاهداته عنها.

ـ **هورنمان**: مكتشف ألمانى زار مصر خلال عامى ١٧٩٧ ـ ١٧٩٨ أثناء توجهه إلى سنار فى السودان له العديد من الاكتشافات الهامة.

ـ **كارستن نيبور**: من أهم الرحالة الدانمركيين عمل ضابطًا فى الجيش زار مصر فى الفترة (١٧٩٨ ـ ١٨٠٠)، وترجع زيارته لمصر بناء على اقتراح البروفيسور

يوهان ميخائيلين أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة جوتنجن فى الدانمرك بإرسال بعثة علمية لاستكشاف شبه الجزيرة العربية ورحب الملك فردريك الخامس ملك الدانمرك بالفكرة وطلب الاستعانة بأساتذة الجامعات الفرنسية والبريطانية تعلم نيبور العربية قدم ثروة من المعلومات عن الجزيرة العربية .

ـــ جون لويس بوركهارت: رحالة ومكتشف سويسرى تلقى تعليمه فى جامعتى ليبزج وجوتنجن وسافر إلى بريطانيا عام ١٨٠٦ حيث تعرف على أعضاء الجمعية الأفريقية البريطانية ، فى عام ١٨٠٩ انتقل إلى كامبردج ليتعلم اللغة العربية ، سافر إلى بلاد الشام حتى يتقن العربية . وعاش فيها عامين ونصف العام متنكرًا كتاجر هندى مسلم اسمه إبراهيم بن عبد الله مدعيًا أنه يحمل رسائل من شركة الهند الشرقية إلى قنصل بريطانيا وحرص على ارتداء الملابس الشرقية . وفى عام ١٨١٠ اتجه إلى دمشق وظل يدون ملاحظاته عن بادية الشام وقبائلها والأردن .

وفى عام ١٨١٢ وصل إلى القاهرة ، وترجع أهمية مؤلفه أنه قدم وصفًا للقبائل ولبلاد النوبة من خلال مؤلفه رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان .

ـــ فردريك هينيكر: بريطانى زار مصر فى عام ١٨٢٠ وتجول فى بلاد النوبة والواحات وسيناء ، نشر رحلته فى لندن عام ١٨٢٣ .

ـــ ريتشارد بيرتون: ينتمى لأصل إنجليزى وأيرلندى ذاعت شهرته لأن له العديد من الاكتشافات فى أفريقيا ولا سيما أنه أول أوروبى اكتشف بحيرة تنجانيقا ، نشر ٤٣ مجلدًا من رحلاته . أتقن العديد من اللغات واللهجات والتحق بجامعة أوكسفورد ثم عمل ضابطًا فى الجيش البريطانى عام ١٨٤٢ فى الهند . زار مصر وهو فى طريقه إلى الحجاز عام ١٨٥٣ ، أسندت إليه الجمعية الجغرافية البريطانية اكتشاف ساحل أفريقيا الشرقى . نشرت زوجته مؤلفاته بعد وفاته فى ١٨٩٠ والذى يهمنا من مؤلفات بيرتون أنه دعا بلاده لاحتلال مصر .

يتضح مما سبق أن المكتشفين الذين زاروا مصر وتوغلوا فى صحاريها ولا سيما الشرقية والغربية وبلاد النوبة وكانت كلها مناطق مجهولة بالنسبة لهم . كما يلاحظ أنهم عملوا فى وظائف أخرى فمنهم الطبيب مثل بروس والضابط مثل نيبور وبيرتون ، ولكن بقيت شهرتهم الرئيسية التى اكتسبوها بسبب عملياتهم الكشفية

التى لم تخلو من توجه استعمارى. وخير مثال على ذلك ما دونه بيرتون عن مصر وتحريضه لغزوها.

**سادساً: أدباء وصحفيون:**

وفد على مصر العديد من الأدباء والصحفيين تأثروا بها تأثراً كبيراً ووضح ذلك من خلال مؤلفاتهم كما سنوضح.

**( أ ) أدباء:**

ــ **فرانسوا شاتوبريان:** اتسمت كتابات الأديب الفرنسى شاتوبريان عن الشرق ومصر بالتعصب الشديد وزار العديد من البلدان منها أمريكا وبريطانيا ثم عينه بونابرت سكرتيراً فى سفارة روما، أرسله تاليران وزير الخارجية فى بعثته إلى الآستانة، زار مصر والشام فى عام ١٨٠٦، وضع مؤلفه الشهير فى عام ١٨٠٩ وسجل فيه مشاهداته عن اليونان وبالغ فى نقده وتعصبه ضد الدولة العثمانية، أما مؤلفه الذى سجل فيه أخبار رحلته عن مصر والشرق والشام فقد نشر عام ١٨١١ بعنوان رحلة من باريس إلى بيت المقدس.

ــ **الكسندر كنجليك:** زار البريطانى الكسندر كنجليك مصر فى عام ١٨٣٤ واستغرق إعداد مؤلفه «أبو شنب» عنها عدة سنوات رغم قلة عدد صفحاته، وقد اعترف أن مؤلفه سطحى الطابع وإنما قصد به تسجيل انطباعه عن الشرق وتوضيح الفوارق بينه وبين الغرب.

ــ **اليوت وور بيرتون:** أديب بريطانى ومحامى زار مصر وسوريا وفلسطين عام ١٨٤٣، وضع مؤلفه الهلال والصليب دعا لاحتلال مصر واتسم الكتاب بالتعصب الشديد.

ــ **وليم ثاكرى:** أديب بريطانى زار مصر فى عام ١٨٤٦ وله مؤلف بعنوان من كورن هيل إلى قلب القاهرة الكبرى سخر فيه من الشرق ومحمد على ودعا إلى ضرورة أن تنتهز بريطانيا الفرصة لاحتلال مصر لتسلب الفرنسيين مكانتهم فيها.

ـ **جوستاف فلوبير ومكسيم دى كان:** يعتبر فلوبير من أهم أدباء فرنسا درس القانون واهتم بتاريخ العصور الوسطى، تأثر بقصص ألف ليلة وليلة وأعجب بالشرق له عبارة شهيرة «أتمنى أن أتخلى عن نساء العالم جميعًا فى سبيل ضم مومياء كليوباترة»، وزار مصر عام ١٨٤٦ بصحبة زميله مكسيم دى كان وأحسن الكولونيل سيف استقبالهما وزودهما بالتوصيات لمديرى الأقاليم. لقب المصريون فلوبير بأبى شنب ومكسيم دى كان بأبى كتاف لنحول جسده وبروز كتفيه. سجل فلوبير الحياة الاجتماعية فى مصر وتأثر بها فى رؤيته الأدبية، كما تأثر بالقارة الأفريقية فكتب مدام بوفارى وسالامبو.

أما دى كان فقد نشر مؤلفه وزوده بمائة وخمسين لوحة فوتوجرافية سجل فيها مشاهداته عن الآثار المصرية فى جنوب مصر.

ـ **الشاعر شارل ديديه:** سويسرى الأصل كانت له صلاته بجورج صاند وقد تعاون معها لإصدار مجلة العالمين قام برحلة إلى شمال أفريقيا ومصر والجزيرة العربية فى الفترة ما بين ١٨٥٧ ـ ١٨٦٠ ووضع مؤلفًا عن النيل فى عام ١٨٦٠ وآخر بعنوان ليالى القاهرة.

**(ب) صحفيون وناشرون:**

ـ **أمبراوز ديدو:** كان يعمل ناشرًا فى فرنسا، ارتبط مع الدوق دى ريشيليو فى سفارة إلى الآستانة فانتهز الفرصة لزيارة الشرق وزار مصر لمدة ثلاثة أسابيع فى عام ١٨١٦، تجول فى مصر السفلى ورشيد والإسكندرية ودمياط، وتعرف خلال جولته على عدد من الشخصيات البارزة أهمها القنصل البريطانى صولت الذى أبدى استعداده لمرافقته فى جولة بمصر العليا ولكنه اكتفى بزيارة مدن مصر السفلى ونشر رحلته فى باريس ١٨٢٧.

ـ **جيمس بوكنجهام:** صحفى وناشر بريطانى زار مصر ومنطقة البحر المتوسط خلال (١٨٣٢ ـ ١٨٣٧) وسجل رحلته ونشرها فى لندن عام ١٨٥٥.

ـ **الدوق دى موبنسيه:** رحالة فرنسى زار مصر عام ١٨٤٥ وأثنى على محمد على فى مؤلفاته ونشرت مقالاته عنها فى مجلة العالمين والمونيتور.

ــ **بوسيكيه دى شان**: زار مصر بسبب موقفه المعارض لحكومة لويس الثامن عشر فى فرنسا وأصدر جريدة صدى الأهرام ولكن محمد على ألغاها فاتجه دى شان إلى آسيا الصغرى وأصدر جريدة أزمير شن بها سلسلة من الانتقادات على محمد على.

ــ **جون جاد سهاى**: ناشر بريطانى زار مصر من أجل الاستشفاء ووصل فى رحلاته إلى الشلال الثانى خلال (١٨٤٧ ـ ١٨٦٠).

ــ **شارل آدمون**: مهاجر بولندى اسمه الأصلى تشا وكيه فر إلى باريس حيث عمل بالصحافة ثم زار مصر فى عام ١٨٥٠ وكان يعمل صحفيًا وقد انفرد عن غيره من الرحالة بتأليف كتاب تناول فيه شخصية الكولونيل سيف الذى عهد إليه محمد على بتدريب الجيش المصرى. وأقنعه بتسجيل ذكرياته عن مصر وأبناء الجالية الفرنسية، وما سجله سليمان باشا كان بداية لأحداث القصة التى ألفها آدمون بعنوان «زفيران كازفان» وهى تتناول شخصية غريبة هزلية، ولم يكتف آدمون بذلك وإنما قدم وصفًا للحياة الاجتماعية فى مصر وقد نشر مؤلفه فى عام ١٨٨٠.

ــ **تيوفيل جوتيه**: بدأ جوتييه حياته مصوراً وما لبث أن اهتم بالأدب حتى أصبح صحفيًا وناقداً وروائيًا، ورغم حبه للشرق إلا أنه لم يزره إلا فى عام ١٨٦٩ وهو عام افتتاح قناة السويس وكانت مهمته الرئيسية هى تغطية احتفالات القناة لحساب جريدته، إلا أن مصر كانت مصدراً لإلهام جوتييه حتى قبل أن يزورها فألف روايات مستوحاة من تاريخها فنالت إعجاب الفرنسيين ولا سيما أمسية كليوباترة فى عام ١٨٣٨. كذلك ألف قصيدة «قدم مومياء» فى الفترة (١٨٣٨ـ١٨٤٠)، فى عام ١٨٥١ نشر قصيدته «حنين بين مسلتين»، أما مؤلفه عن رحلته إلى مصر فقد نشر فى عام ١٨٧٠.

ــ **شارل بلان**: رحالة فرنسى يرجع إليه الفضل فى تعريف الفرنسيين غير المتخصصين بالفن الإسلامى، له عدة مؤلفات وعين مديراً عامًا للفنون فى فرنسا ثم جاء إلى مصر مع افتتاح قناة السويس. كان فنانًا وناقداً عمل فى جريدة العالمين وركز اهتماماته على مصر الإسلامية، وظل مؤلفه عن الفنون المصرية والعربية مصدراً هامًا للباحثين فى تاريخ الفنون المصرية.

ــ **جبرائيل شارم:** صحفى فرنسى جاء إلى مصر للاستشفاء ووضع مؤلفًا عنها سجل فيه أيضًا رحلته فى فلسطين وتونس والمغرب وسوريا والدولة العثمانية ونشر فى عام ١٨٨٣ .

ــ **بيارد تايلور:** كاتب أمريكى زار أوروبا والشرق الأقصى والأدنى وزار مصر فى عام ١٨٧٤ ، نشرت رحلته فى لندن عام ١٨٧٥ .

هكذا وفد على مصر العديد من الصحفيين والناشرين وإن كان أغلبهم قد جاء لتغطية احتفالات قناة السويس ، ولكن هذا لم يمنعهم من التجول بين ربوعها وتسجيل انطباعاتهم عنها .

**سابعًا: فنانون (رسامون ومصورون):**

ــ **فيفان دينون:** رسام الحملة الفرنسية الشهير ، كان ينتمى لطبقة النبلاء وعمل سكرتيرًا فى السفارات الفرنسية وكلفته حكومة المؤتمر الوطنى بالعديد من المهام الدبلوماسية ، جاء إلى مصر مع قوات الحملة الفرنسية واهتم برسم آثارها والمعارك التى دارت بين القوات الفرنسية والمماليك .

ــ **الكونت فوربان:** من أشهر الرسامين الفرنسيين ، وقد قارنه المؤرخ رينيه كاريه بدينون رسام الحملة الفرنسية الشهير . احتفظ متحف اللوفر برسوماته عن مصر التى زارها فى عام ١٨١٧ وكان مكلفًا من الملك لويس الثامن عشر لشراء مجموعة من الآثار المصرية لتزويد متحف اللوفر بها . زار فوربان المساجد المصرية وتجول فى مدن مصر العليا حاملاً قلمه لرسم الصور المختلفة التى رآها ، ثم وضع مؤلفه بعنوان رحلة إلى الشرق فأحدثت رسوماته ضجة كبيرة فى فرنسا وعين مديرًا للمتاحف لخبرته .

ــ **نستور لوت:** رسام فرنسى جاء إلى مصر فى عام ١٨٢٨ ضمن بعثة شامبليون ، استرعت الآثار المصرية انتباهه فعكف على دراستها ووضع العديد من الرسومات عنها وعن المعابد المصرية والمسلات ، نشر مؤلفه فى عام ١٨٤٠ بعنوان رسائل من مصر .

ــ **روبرت هاى:** أسكتلندى جاء مصر خلال (١٨٢٨ــ١٨٣٦) وأعجب بأسلوب

الحياة الشرقية فتعلم اللغة العربية، سكن فى الأحياء الشعبية ووضع مؤلفًا بعنوان «صور من القاهرة» رسم فيه شوارع القاهرة ومساجدها وأسبلتها والعديد من الآثار القديمة.

ـ **مايـيه ودوزا:** وصل الرسامان مايـيه ودوزا إلى مصر بصحبة البارون تايلور الأثرى والأديب الفرنسى قدما العديد من الرسومات عن مصر وآثارها، وقد زينت هذه اللوحات قصور ملوك فرنسا ومتحف اللوفر.

ـ **الكونت جوزيف ديتورميل:** زار مصر فى عام ١٨٣٣ تنقل فى مدن الوجه القبلى ونشر رحلته فى عام ١٨٤٤ بعنوان رحلة إلى الشرق، وزود مؤلفه بمجموعة من الرسومات عن الأهرام والمساجد وتماثلى ممنون أحدثت ضجة كبيرة فى فرنسا.

ـ **هوراس فرنيه:** فنان فرنسى زار مصر فى عام ١٨٣٩ نشر أخبار رحلته فى باريس عام ١٨٤٣ وركز فيها على حفلات الختان والاحتفالات الدينية وقدم صوراً رائعة عنها.

ـ **جون جرين وفرانسيس فريث:** مصوران بريطانيان زارا مصر وأحدثت المجموعات التى تم تصويرها ضجة كبيرة فى لندن.

ـ **أما مانديه داجير:** فهو مصور فرنسى قدم إلى مصر فى عام ١٨٣٩ مع زميله خوراس فرنيه ونجح فى التقاط أقدم صور فوتوجرافية لمشهد، الحريم، وقد حاول جون جرين أن يحذو حذو زميله الفرنسى فنشر عام ١٨٥٤ مجموعة من الصور بلغت المائة بعنوان «النيل وآثاره ومناظره» استطلاعات فوتوجرافية طبعت، ثم نشر كتابه فى عام ١٨٥٥ عن حفائر طبيعة نصوص هيروغليفية ووثائق لم يسبق نشرها.

كما نشر فرانسيس فريث كتابه فى جزأين عن رحلته فى مصر وفلسطين خلال (١٨٥٦ـ١٨٥٩).

ـ **هنرى كامه:** وضع هنرى كامة آلبومًا مصوراً عن وادى النيل يعد مرشداً ممتازاً عن مصر ونشر رحلته فى باريس عام ١٨٦٢.

ـ **نرسيس برشار:** من أشهر الرسامين الفرنسيين، أحدثت أعماله ضجة كبيرة فى فرنسا وزار مصر (١٨٤٩ ـ ١٨٥٦ ـ ١٨٦١).

**ثامنًا: تجار ورجال أعمال:**

وفد على مصر العديد من التجار الأوروبيين ورجال الأعمال كان معظمهم فى طريقه إلى الهند، اهتموا بتسجيل رحلاتهم فى الشرق بصفة عامة ومصر بصفة خاصة نذكر من بينهم:

ــ **جيمس كابر:** عمل مع شركة الهند الشرقية البريطانية وزار الهند ونشر رحلته فى عام ١٧٨٣ أوضح فيها أهمية استخدام طريق الهند لإنعاش التجارة البريطانية مؤكدًا على أهمية مصر كمحطة هامة، وقد سجل انطباعه عنها ولا سيما وأنه زارها أثناء عودته من الهند.

ــ **فاى:** زار مصر عام ١٧٧٨ مع زوجته أثناء ذهابه للهند للقيام ببعض الأعمال دون مشاهداته عن مدنها، سجلت زوجته رحلتهما بعنوان «رسائل من الهند» نشرت فى عام ١٨٢١ وأحدثت ضجة فى بريطانيا.

ــ **بلدوين:** اهتم بتجارة الرقيق فى مصر وسجل رحلته فيها ونشرها فى عام ١٧٩٠، ويعد مؤلفه تقريرًا وافيًا عن أحوال الرقيق الأبيض فى مصر فى القرن الثامن عشر.

ــ **جون كارن:** رحالة بريطانى زار الشرق عام ١٨٢١ وتجول فى بلاد الشام ومصر وقد نشر رحلته فى بريطانيا فى عام ١٨٢٦ بعنوان رسائل من الشرق.

ــ **إدوارد كادلفين:** من أشهر رجال الأعمال فى فرنسا، وصل مصر مع صديقه دى بريفورى فى عام ١٨٢٩ ثم استقر فيها عدة سنوات رافق محمد على فى حروبه فى بلاد الشام خلال عامى ١٨٣٢ و١٨٣٣ وكان من المؤيدين لسياسته، وقد حاول توريطه فى قرض عرضه عليه رجل المال الشهير روتشيلد عام ١٨٣٣ لتمويل حملة الشام ولكن محمد على رفض بإصرار، ووضع كادلفين كتابًا عن مصر بعنوان «مصر وتركيا ١٨٢٩ـ١٨٣٦» وطبع فى عام ١٨٤١.

ــ **جون كوك:** بريطانى زار مصر فى عام ١٨٧٠ بغرض توقيع عقد مع الحكومة المصرية لتسيير باخرة فى النيل لمدة عشر سنوات لحمل البريد والمدنيين ونجح فى فتح العديد من المكاتب فى القاهرة، كما أقام فندقًا للسائحين ومستشفى للأهالى فى

الأقصر، وهو من مؤسسى السياحة فى مصر والمتحمسين لها، وقد ورث هذا الاهتمام عن والده توماس كوك رجل الأعمال الشهير .

**تاسعًا: رحالة أوروبيات:**

شهد القرن التاسع عشر مجيء عدد من الرحالة الأوروبيات نذكر أهمهن :

ــ **أليزا فاى:** زارت مصر فى أواخر القرن الثامن عشر عام ١٧٧٩ بصحبة زوجها المحامى البريطانى، ونشر مؤلفها بعد وفاتها باسم رسائل من الهند فى عام ١٨٢١ .

ــ **سوزان فوالكان:** جاءت إلى مصر بصحبة جماعة السان سيمون فى عام ١٨٣٤ ، ولم تطل إقامتها بسبب انتشار الطاعون وعملت بالتمريض مع كلوت بك الطبيب الفرنسى بعد عودتها، وقد نشرت مؤلفها عن ذكرياتها فى مصر .

ــ **الليدى سارة هيج:** جاءت من أمريكا فى رحلة إلى الشرق مع زوجها رجل الأعمال، زارت مصر فى عام ١٨٣٦ اهتمت بتسجيل انطباعاتها عنها ونشرت رحلتها فى جزأين فى نيويورك عام ١٨٤٠ بعنوان «رسائل من العالم القديم» .

ــ **الكونتيسة أيدا:** رحالة أرستقراطية قدمت من ألمانيا بعد طلاقها، زارت الشرق فى عام ١٨٤٠ ، وبعد عودتها لبلادها أسست ديرًا فى ألمانيا عاشت فيه بقية حياتها ونشرت رحلتها فى لندن عام ١٨٤٥ بعنوان «رسائل من الشرق» .

ــ **صوفيا بول:** شقيقة المستشرق البريطانى الشهير إدوارد وليم لين، قررت بعد وفاة والدتها أن تصحب أخاها وزوجته وأبناءها لزيارة مصر . عاشت فيها سبع سنوات زارت خلالها حريم محمد على، كما حصلت على معلومات وافرة عن الحياة الأسرية فى المجتمع الإسلامى، نشرت رسائلها امرأة إنجليزية من مصر (١٨٤٤ـ١٨٤٦). وترجع أهمية رسائلها أنها أظهرت تعاطفًا مع نساء مصر . كما اتسمت رؤيتها بالموضوعية . وقد ساعدت صوفيا شقيقها إدوارد لين على تدوين ملاحظاته عن مصر، كما شجعها بدوره لكى تخوض تجربة الكتابة ووضع تحت تصرفها مجموعة ضخمة من مذكراته التى سمح لها بالاقتباس منها ولقى مؤلفها قبولاً كبيرًا فى لندن .

ـ **إيزابيلا رومر**: تزوجت من ضابط بريطانى ثم انفصلت عنه وزارت مصر واهتمت بتسجيل إعجابها بالآثار القديمة ولا سيما معابد النوبة، نشر مؤلفها فى عام ١٨٤٦ بعنوان «معابد ومقابر مصر النوبة وفلسطين».

ـ **الكونتيسة دى جسباران**: زارت مصر فى عام ١٨٤٨، أحسن محمد على استقبالها وكانت من أنصار محاربة تجارة الرقيق، تزوجت من الكونت أجينور دى جسباران وهو سياسى فرنسى شهير، زارت مصر والنوبة وسجل رحلاتها باريى بواسى.

ـ **فلورنس نايتنجيل**: زارت مصر بصحبة بعض الأصدقاء فى عام ١٨٤٩ لتستريح من انهيار عصبى انتابها بعد رفضها الزواج من شخص تعلقت به. كانت ثائرة على الحياة المترفة فى لندن، وقد ذكرت فى مؤلفها بأنها وجدت السعادة فى المعابد المصرية، وأنها أثناء وجودها بين آثار القرنة سمعت صوت الرب يناديها بألا تتزوج. بعد مغادرتها مصر بسبعة أعوام كرست حياتها للتمريض ولا سيما أثناء حرب القرم، نشر مؤلفها عن مصر فى عام ١٨٥٤ بعنوان «رسائل من مصر».

ـ **إيزابيلا بيرتون**: زوجة المكتشف البريطانى ريتشارد بيرتون رافقت زوجها فى رحلاته، فزارت مصر فى عام ١٨٥٣، وبعد وفاته أرادت رد الجميل له وتعريف المواطنين برحلاته فحرصت على نشرها.

ـ **راشيل**: ممثلة فرنسية زارت مصر فى عام ١٨٥٧ للاستشفاء من مرض السل. تجولت فى مصر العليا ووصلت منطقة الشلال الأول والأقصر نشرت رسائلها عن مصر وصفت فيها المعابد والمدن توفيت فى قنا عام ١٨٥٨.

ـ **الكونتيسة جوليت دى روبرسا**: زارت الكونتيسة الفرنسية مصر فى عام ١٨٦٣ حيث التقت بالعديد من الشخصيات الهامة، لا سيما العالم الأثرى مارييت، ومدام روزيتى زوجة القنصل التوسكانى السابقة وسجلت جوليت انطباعاتها عن مصر فى مؤلف بعنوان «الشرق مصر» «يوميات رحلة».

ـ **مسز كارى**: بريطانية زارت مصر أثناء فصل الشتاء قامت برحلة نيلية فى عام ١٨٦٣ مع ابنها وخادمها، نشرت رحلتها مزودة بالصور ضمنت تجربتها خلال أربعة أشهر وهى تبحر على ظهر ذهبية فى مياه النيل فى رحلة أثارت إعجابها.

ـ **مدام أولمب**: كاتبة فرنسية نشرت أولى رواياتها عام ١٨٦١، ثم أسست جريدة بابيون. أثار اهتمامها كل ما يتعلق بمصر والدولة العثمانية، زارت القاهرة حيث مكثت بها خمسة عشر شهراً خلال عامى ١٨٦٤ـ١٨٦٥. ثم نشرت بعد عودتها كل الروايات التى سمعتها عن مصر فى عام ١٨٦٥ اختلطت الحقائق فى مؤلفها بالخيال والقصص المبالغ فيها عن أسرة محمد على.

ـ **لويز كوليه**: سيدة جميلة من باريس لها صالونها الأدبى الذى جمعت فيه العلماء والأدباء، حيث كانت تناقش أهم القضايا. انفصلت عن زوجها الموسيقار إيبوليت كوليه. وكانت لها طفلة أرادت إعالتها، فبدأت بالكتابة فى الصحف الصغيرة، ثم جاءت إلى مصر مع مجلة ديبا عام ١٨٦٩ لتغطية احتفالات افتتاح قناة السويس. ولكنها انتهزت الفرصة فتجولت فى المدن المصرية ونشر مؤلفها فى باريس عام ١٨٧٩.

ـ **إميليا إدواردز**: رحالة بريطانية زارت مصر (١٨٧٣ـ١٨٧٤)، اهتمت بعلم المصريات. بذلت جهداً كبيراً فى الحفائر، ووضعت مؤلفًا بعنوان «ألف ميل صعوداً فى النيل»، وهو عمل ضخم من مجلدين قدمت فيه وصفًا لمدن الوجه القبلى ولعادات المصريين الاجتماعية. وكانت شديدة الولع بالآثار المصرية فدعت للمحافظة عليها خوفًا من السلب العشوائى والنهب، ولذلك بعد عودتها إلى لندن أسست صندوقا لتمويل الكشف الأثرى فى مصر عام ١٨٨٢ وكرست حياتها لجمع المال والعناية باكتشاف الآثار المصرية التى كانت تعتبرها تراثًا لا لمصر وحدها بل للإنسانية. ولذلك أوصت بمبلغ من المال بجامعة لندن لإنشاء كرسى للآثار واللغة المصرية القديمة.

يتضح مما سبق تزايد أعداد الرحالة الأوروبيات فى القرن التاسع عشر وإن كان معظم الفرنسيات ينتمين لأسر أرستقراطية، بينما جاء انتماء البريطانيات للطبقة المتوسطة.

جاءت كتابات البريطانيات أدق وأعمق كما اتسمت بتعدد الاهتمامات منها الأثرية والاجتماعية والاقتصادية.

## الفصل الثالث

# حكومة مصر

- حكام مصر بين العظمة والطغيان.
- ثروة مصر الاقتصادية إعجاب أم مخطط استعمارى؟

## الفصل الثالث

# حكومة مصر

### أولاً: حكام مصر عظماء أم طغاة؟

اهتمّ الرحالة الأوروبيون بتقديم وصف عن الحكام، وقد اختلفت رؤيتهم فتارة يصفهم البعض بالعظمة وأحيانًا يصفهم البعض الآخر بالطغيان. ولكن ينبغي ألا نغفل أن هذا الحكم ارتبط بدرجة كبيرة بمصالح هؤلاء الرحالة ومدى قربهم منهم.

اكتفى معظم الرحالة ولا سيما فى فترة القرنين السادس عشر والسابع عشر بتعريف باشا مصر بأنه الحاكم الفعلى فى البلاد، له سلطات مطلقة، ومنها حق الإعدام «دون سماع دفاع المتهم». ومن مهامه الرئيسية تبليغ أوامر الباب العالى وحماية مصر والحرص على أمنها من الأخطار الخارجية.

يعقد الباشا الديوان فى القلعة ثلاث مرات أسبوعيًا وعليه حضور الاحتفالات الهامة ولا سيما الدينية مثل احتفالات سفر المحمل إلى الحجاز. تلك الاحتفالات التى عجز الرحالة عن فهمها فى البداية فذكر فورمون بأن الباشا عليه «إرسال العلم إلى الكعبة»، كما قدم الرحالة وصفًا لاحتفالات شهر رمضان وأكدوا ضرورة حضور الباشا احتفال سفر الخزنة إلى الآستانة وحضوره أيضًا احتفال فتح الخليج.

أشار الأب كوبان إلى أن باشا مصر كان لا يحصل على منصبه بسهولة لأن عليه تقديم الرشاوى للوزراء فى الآستانة لكى يتم تعيينه فى وظيفته.

سجل الرحالة الاحتفال باستقبال باشا جديد فى مصر، كما اهتموا أيضًا بالحديث عن كيفية عزله من منصبه، فأشار تيفنو بأنه كان شاهد عيان لعزل أحد باشوات مصر فى عام ١٦٥٧ عندما حضر مندوب من قبل السلطان العثمانى

واجتــمع البكوات المماليك فى ديوان القلعـة ثم رمى المندوب الأوراق فى ركن الديوان إشارة لعزل الباشا .

أبدى القناصل الفرنسيون حزنهم لعزل بعض الباشوات ولا سيما ممن ارتبطوا معهم بصداقة واهتموا برعاية مصالح التجار .

لم تكن نهاية باشوات مصر دائمًا سعيدة فإما العزل أو القتل ، ولكن هذا لم ينطبق على مصر فحسب بل فى باقى ولايات الدولة العثمانية . فقد سجل وليم ويتمان القائد البريطانى المصاحب للقوات العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر بأنه شاهد بنفسه عملية قطع رأس أحد باشوات الرومللى لأنه لم ينجح فى القضاء على العصابات فى المنطقة . وكان هذا يعنى أن عملية التخلص من الباشوات الحكام بالقتل أو النفى استمرت حتى نهاية القرن الثامن عشر .

هذا وقد لعب المماليك فى مصر دوراً فى عزل باشا مصر . فكانوا يراسلون السلطان العثمانى ويبعثون إليه بمندوب عنهم ليقدم الرشاوى للوزراء الذين يقومون بدورهم باقناع السلطان بتعيين باشا جديد .

ازدادت معرفة الرحالة بحكام مصر فى القرن الثامن عشر فأكد فولنى أن سلطة الباشا ضعفت فى تلك الفترة حتى أنه أصبح كالسجين فى القلعة مقيداً مراقبًا معرضًا للخلع والطرد فى أى وقت .

ومن وجهة نظر سافارى أن منصب الباشا كان نوعًا من أنواع البغى فهو لا يستطيع الخروج من القلعة فسجن نفسه ولم يعد له يد فى شئون الحكم ، وأكد أن الباشا الماهر هو الذى يستطيع أن يستميل المماليك ليدفعوا له الأموال مقابل تعيينهم فى مناصبهم .

امتدت فترة حكم الباشا إلى ثلاثة أعوام وأحيانًا أربعة . ورغم ضعف سلطة الباشا فى القرن الثامن عشر إلا أن وظيفة باشا مصر ظلت من أهم الوظائف فى الدولة العثمانية .

أورد الرحالة العديد من أسماء الباشوات ولا سيما ممن وفروا لهم وللتجار الحماية والأمان . فسجلوا اسم إسماعيل باشا الذى حكم مصر فى الفترة

(١٦٩٥-١٦٩٧)، وصفه ميليه بأنه يمتاز بجمال الهيئة وهو من أفضل وأقوى الحكام لأنه كان حريصًا على استتباب الأمن فى مصر، تمتع الأوروبيون فى عهده بالحماية والصداقة.

ولا جدال أن مدح وذم الباشوات توقف على نوعية علاقة الأوروبيين بهم، فإذا قويت هذه العلاقة نجد عبارات الثناء والشكر، وإذا ساءت بين الطرفين وشعر الأوروبيون بتضييق الخناق عليهم نلاحظ الذم والنقد.

ومن الشخصيات الهامة التى أشار إليها الرحالة، محمد باشا رامى الذى تولى الحكم ١٧٠٤-١٧٠٧ وقد وصفوه بأنه لديه معرفة بالعلوم، والفنون، والطب، والفلسفة. وهو سياسى عظيم، لأنه أبدى لميليه القنصل الفرنسى إعجابًا بفرنسا وأشاد بعظمة ملوكها.

اشتهر بعض الباشوات بالحزم والعدل ومن أشهر هؤلاء على باشا الحكيم (١٧٤٠-١٧٤١)، هذا وقد أثنى ليرنكور القنصل الفرنسى على أحمد باشا (١٧٤٨-١٧٤٩) فوصفه بالأدب الشديد وأكد أن أخلاقه تماثل أخلاق النبلاء.

تجدر الإشارة أن ما دونه الرحالة الأوروبيون عن باشا مصر فى القرن الثامن عشر يطابق ما ذكره المؤرخون ولا سيما أحمد باشا الدمرداشى والجبرتى.

لم يكتف الرحالة بتسجيل إيجابيات باشا مصر وإنما سجلوا أيضًا العديد من المضايقات التى تعرضوا لها فقد ابتز مصطفى باشا فى عام ١٦٢٤ العديد من التجار الأوروبيين وطلب منهم دفع مبالغ كبيرة.

كما أن بعض الباشوات ألزموا الأوروبيين بارتداء ملابس معينة، كما حدث فى عام ١٦٩٥ عندما مُنع الأوروبيون فى القاهرة من ارتداء القبعات ووضع الشعر المستعار. وفى معظم الأحيان كان يتم منعهم أيضًا من ارتداء الملابس البيضاء والخضراء لأن هذه الألوان كانت للإشراف فقط. بينما سجل سونينى بأن الأوروبيين تمتعوا بمساحة أكبر من الحرية فى الإسكندرية فسمح لهم بإتداء الملابس العادية.

وأخيرًا أصدق ما قيل عن باشوات مصر ما ذكره بالرن: «أنهم يختلفون عن المصريين سكان البلاد الأصليين، حتى لغتهم مخلفة عنهم».

يعـاون البـاشـا الأوجـاقـات العـسكرية، وقـد اهـتم بيلون بتـقـديم وصف عن أسلحتهم وملابسهم، بينما ركز تيفيه حديثه عن مهامهم فهم ركيزة الباشا فى الحكم.

تم أسر الإنكشارية فى طفولتهم وتم تنشئتهم فى الآستانة فى خدمة السلطان والدولة العثمانية وهم يتسمون بالنظافة ويتسلحون بالأسلحة الجميلة، حريصون على تأدية الفرائض. وفى القرن الثامن عشر تضاعف نفوذ الإنكشارية حتى أصبحوا أقوى الفرق وكانوا ينتخبون قائدهم ويحضرون الديوان مع الباشا ويتولون حراسة القنصليات الأوروبية ومنهم من يتولى حراسة القلعة.

أما السباهية فهم فرسان يتسمون بالبراعة فى القتال وركوب الخيل. هذا ويتولى حراسة القلعة أوجاق العربان، وقد قدر جرانجية أعدادهم فى القرن الثامن عشر بثمانية آلاف ولمعت أسماء العديد منهم لعل أهمها الشوربجى والصابونجى.

هذا ويشكل أوجاق المتفرقة الحرس الخاص للباشا، جلبوا من الآستانة، وهم حراس الثغور والقلاع. بينما يتجول أوجاق الجاويشية على ظهور الخيل لتفقد أحوال البلاد فهم فرسان مهمتهم خدمة الديوان.

لم يعد للباشا سلطة على الأوجاقات الذين أثاروا الاضطرابات فى مصر ولا سيما فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ويؤكد ذلك ما ذكره الجبرتى «إن أى حادث فى مصر لا يكتمل بدون تدخل الأوجاق».

تعددت الشكاوى من الإنكشارية، كان لهم نفوذ كبير على التجار الأوروبيين، فكتب القنصل ميليه إلى غرفة تجارة مارسيليا يشكو من قسوتهم وتصاعد نفوذهم. ولكن على الرغم من الانتقادات التى وجهها معظم الرحالة إلى الإنكشارية إلا أن الأوروبيين كانوا يلجئون إليهم لحمايتهم ولا سيما أثناء الفتن والاضطرابات التى تعرضت لها مدينة القاهرة فكتب بينون فى عام ١٧٣٠ «أن مصالحنا مع الإنكشارية».

ضعفت سلطة الإنكشارية فى أواخر القرن الثامن عشر بسبب تصاعد نفوذ المماليك واشتغالهم بالتجارة فكتب فولنى «أصبح الإنكشارية اليوم خليطًا من الصناعيين والمرتزقة المتشردين الذين يرتضون حراسة أى باب لقاء أجر يومى».

ولكن رغم ضعف سلطة الإنكشارية إلا أن الأوروبيين ولا سيما الرحالة كانوا لا يستطيعون التجول فى صعيد مصر العليا دون أن يحصلوا على إذن مسبق وتوصية من كبار ضباط الأوجاق فى القاهرة إلى زعماء القبائل والصناجق لكى يتمكنوا من التجول بحرية وإلا تعرضوا للسرقة والنهب.

**المماليك:** هادن العثمانيون المماليك عندما فتحوا مصر خوفًا من قيامهم بالثورات. اهتم الرحالة بتقديم وصف عن أصول المماليك فأكدوا بأنهم من مناطق القوقاز والبحر الأسود تلقوا تدريبًا عسكريًا واشتهروا بمهارتهم على القتال. احتفظوا بامتيازاتهم فى مصر فشكلو طبقة عسكرية وأداروا الأقاليم.

اعتبر الرحالة أن المماليك حكام مصر أيضًا، بينما حرم المصريون من المشاركة فى الحكم حتى الجيش منعوا من الالتحاق به.

تصاعدت قوة المماليك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ووكل إليهم إدارة الولايات الخمس الكبرى (جرجا - الغربية - المنوفية - الشرقية - البحيرة)، كما قسمت مصر إلى أربع وعشرين سنجقية على رأسها سنجق من المماليك مهمته إدارتها. وصف أوليفيه المماليك فى القرن الثامن عشر بأنهم يمثلون البوليس الداخلى فى مصر، بينما أكد فورمون أن مهمتهم هو الدفاع عن سناجقهم ضد هجمات البدو.

ومن المهام التى كلف بها البكوات جمع الضرائب وإرسال كميات كبيرة من الحبوب إلى الباشا والإشراف على الجسور وتطهير الترع.

أجمع الرحالة على وصف المماليك بالطغيان وعللوا ذلك لأنهم يحكمون بلا قوانين، قضوا على آمال وطموحات المصريين، فالسلطة كلها فى أيديهم كما ذكر فانسليب، وعدد أوليفيه المهام التى عمل بها المماليك بكوات - صناجق - حكام مديريات - كبار موظفين - كخيا للوالى - دفتر دار - أمراء للحج - خازندار - قبودنات ثغور دمياط والسويس والإسكندرية.

هذا وقد تضاعفت أعداد المماليك فى القرن الثامن عشر فقدر فولنى أعدادهم بثمانية آلاف رجل. وسجل سافارى إعجابه بالمماليك لأنهم مدربون على القتال

ولو تم تدريبهم على النمط الأوروبى لأصبحوا أشجع المقاتلين فى العالم ولكنهم يقاتلون دون خطة محددة أو مدفعية تحميهم.

اقتنى المماليك أجمل المنازل فى القاهرة وسكنوا الأحياء الراقية مثل بركة الفيل والأزبكية والسيدة زينب، وأشهر هذه المنازل بيت مصطفى الكاشف وإبراهيم السنارى.

ورغم هذا الثراء لم يفكر المماليك فى مصلحة مصر، وإنما همهم الأكبر جمع الثروات، وهم طغاة مثل الحيوانات المتوحشة، يتقاتلون فيما بينهم والضحية هو الشعب المصرى الذى لم يعرف الراحة أبداً ولم يستمتع بخيرات بلاده كما سجل أوليفيه.

يلاحظ مما سبق وجود تناقض فيما سجله أوليفيه الضابط الفرنسى الذى أرسلته حكومة الإدارة إلى مصر لتفقد أحوالها، تمهيداً لغزوها. فبينما يبدى تعاطفه مع المصريين ويصف المماليك بالطغيان والتوحش نجده فى مواضع أخرى يتمنى إحلال شعب آخر فى مصر غير المصريين الذين لا يعرفون قيمة ثروات وموقع بلدهم على حد قوله. فمؤلفه الذى سجله عن مصر لم يلاحظ فيه أية نزع إنسانية تجاه المصريين وإنما كان الهدف منه تقديم وصفها بأنها ضعيفة وراسل حكومة الإدارة لتسرع باحتلال مصر.

من أبرز الشخصيات التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر هى شخصية على بك الكبير.

ألقى الرحالة الضوء على نشأة على بك فذكر سافارى أنه ولد فى الأناضول واسمه الحقيقى يوسف داود، كان والده قسيساً يونانياً سرقه اللصوص أثناء وجوده فى إحدى الغابات وكان يبلغ الثالثة عشرة من عمره، بيع فى القاهرة لإبراهم بك الذى سماه علياً وعلمه العربية والتركية وحرص على تنشئته نشأة عسكرية، حتى أنه لم يعد يوجد مملوك واحد أشجع منه ولا أبرع فى ركوب الخيل ولا التصويب بالأسلحة النارية.

تولى على بك الصنجقية وكان على علاقة طيبة مع الباشا حتى أنه وسطه للتوفيق

بينه وبين المماليك المتنازعين فى القاهرة ثم بدأ على بك فى التخلص من كبار الشخصيات حتى خلت له الساحة، وفى عام ١٧٥٨ تمتع بسلطات كبيرة ولكنه كان مكروهًا بسبب ظلمه وقد تدخل فى شئون الأوروبيين ولا سيما الفرنسيين الذين اغدقوا عليه الهدايا لمنعه من إلحاق أى ضرر بهم ولإرضائه.

وفى عام ١٧٦٠ وصل على بك إلى مشيخة البلد بعد منازعات مع منافسيه، وفى عام ١٧٦٦ دخل القاهرة من باب النصر بعد أن قتل أربعة بكوات ونفى أربعة آخرين وحمل رءوس منافسيه على صوان من الفضة كما وصف فولنى. وفى عام ١٧٦٨ جلس فى الديوان وأصبح سيداً على مصر وحاكمًا فعليًا، وفى عام ١٧٦٩ مستغلاً انشغال الدولة العثمانية بحربها مع روسيا.

اتبع على بك سياسة توسعية فى الحجاز فأراد أن يجعل من جدة مستودعًا لتجارة الهند، أثنى الرحالة على الاستيلاء على الحجاز لأن جدة تُعد ميناء كبيرا تجاريا بين الهند ومصر سوف تتيح له السيطرة على البحر الأحمر.

الحقيقة أن استحسان الرحالة لفكرة استيلاء على بك على جدة إنما كان لصالح دولهم، فنجد أن الفرنسيين أرادوا الإفادة من تجارة الهند، بينما أراد البريطانيون وصول تجارهم إلى ميناء السويس وفتح طريق تجارى مباشر بين مصر والبنغال. وسجل الرحالة البريطانى بروس إعجابه بمشروع على بك ولا سيما وأن حاكم البنغال اهتم بمراسلة على بك وتكونت فى كلكتا شركة بريطانية للتجارة مع مصر.

تمرد ضاهر العمر على الدولة العثمانية فى جنوب الشام، وقد أيد على بك صديقه وتقدم للاستيلاء على مدينة الشام فاستولى على القدس ويافا وصور ودمشق بمعاونة قائده أبو الذهب. ولكن كل هذه الانتصارات ضاعت بسبب انسحاب الأخير من المدن التى تم فتحها وعودته إلى مصر. مما أتاح للقوات العثمانية إعادة الاستيلاء عليها. ثم دبر محمد أبو الذهب مكيدة لعلى بك وألقى القبض عليه.

علل سافارى سبب انتصار أبو الذهب على على بك فى بلاد الشام إلى ثورة المدن السورية عليه ولأن محمد أبو الذهب بث دعاية ضده لاتصاله بالروس وتحالفه معهم ضد الدولة العثمانية المسلمة. وأكد أبو الذهب للشوام بأن المسيحيين سوف يأتون إلى سورية كما فعل البريطانيون مع مسلمى الهند.

أفاض الرحالة فى وصف قسوة أبو الذهب مع المصريين فوصفه دانتريج بأنه طاغية متوحش، وعقد مقارنة بينه وبين نيرون فى حبه لقتل وسفك الدماء، وأكد أن مصر كلها شهود على طغيانه.

توفى أبو الذهب عام ١٧٧٥ عند أسوار عكا ونقل جثمانه إلى مصر وسجل سافارى «توفى الزعيم الشرير». وهذه الانتقادات بسبب ما فرضه على الأوروبيين من مغارم وغرامات.

قدر لمصر أن يحكمها بعد وفاة محمد بك أبو الذهب اثنان من مماليكه هما مراد بك وإبرهيم بك تحكما فى شئون مصر قبل مجىء الحملة الفرنسية، وقد تم تقسيم السلطة بينهما فتولى إبراهيم بك مشيخة البلد وعين مراد دفتر دارا.

سجل أوليفيه رأيه فيهما قائلاً: «إن مصر بائسة بين هذين الرجلين اللذين يفتقران إلى موهبة العلم والأخلاق عاجزان عن إقرار العدالة».

استمرت الفوضى فى البلاد وتدهورت الأحوال الاقتصادية وفرض مراد بك الضرائب وتزايدت شكاوى التجار الأوروبيين بسبب المغارم والإتاوات. وعبر فولنى عن ذلك بقوله: «لا نرى فى مصر إلا بلدا بلغ أقصى درجة من التدهور السياسى والاجتماعى لن ينقذه سوى التدخل الأجنبى وفرنسا هى الدولة القادرة على شفاء مصر من أمراضها».

أما سافارى فقد سجل رأيه بقوله «قدر لمصر أن تترك فى يد عصابة من ثمانية آلاف أجنبى يلتهمون ثروات أقاليمها ولا يكفون عن إشعال الحرب».

أما نوردن فقد اهتم بتسجيل الفوضى التى عمت مصر وانتشار قطاع الطرق بمجىء الحملة الفرنسية ونفى المماليك إلى الوجه القبلى، وقدم الفنان فيفان دينون المصاحب لقوات الحملة العديد من اللوحات عن المعارك التى دارت فى صعيد مصر.

كما اهتم بتسجيل مشاهداته فى مؤلفه ولعل أهمها معركة سدمنت وهى بلدة صغيرة واقعة غربى بحر يوسف جمع خلالها مراد بك قوة كبيرة من أهالى الفيوم وتحصنوا جميعًا فى المناطق المرتفعة فى سدمنت، ورغم أن عدد المماليك والمصريين

فى هذه الموقعة كان يزيد على ضعف الجيش الفرنسى إلا أن ديزيه القائد الفرنسى امتلك المدفعية والذخيرة. وقد هجم المماليك والأهالى على القوات الفرنسية منحدرين من المرتفعات، ولكن المدفعية الفرنسية نجحت فى حصدهم ولكنهم كرروا المحاولة عدة مرات وكبدوا الفرنسيين خسائر فادحة، ولكن انتهى الأمر بهزيمة مراد وفتح إقليم الفيوم الغنى بثروته أمام ديزيه. وسجل دينون هذه المعركة ورسم نزول قوات مراد بك من المناطق المرتفعة التى تحصن بها واختراقه الوادى الفاصل بين الجيشين، كما حرص فى لوحته أن يصور الرعب الذى دب فى نفوس الجرحى الفرنسيين عند اقتراب قوات مراد بك والمصريين.

كما حرص دينون على تسجيل بطولات المصريين ولعل أشهرها ما حدث فى قرية الفقاعى ببا فى بنى سويف، عندما قام غلام صغير بسرقة بنادق الفرنسيين من معسكرهم فتعقبه الجنود وضربوه بالسيف على ذراعه وسيق الغلام إلى ديزيه فأمر بضربه بالسياط، وروى دنيون حكاية هذا الغلام فى رحلته لاعجابه به وبشجاعته.

شهد دينون معركة سمهود ورسم الكتائب الثلاث التى تألفت منها القوات الفرنسية التى هاجمت القرية على شكل مربعات تحميها المدافع من زواياها. كما سجل معركة بئر عنبر جنوب قوص تلك المعركة التى قتل فيها دوبليسى على يد حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن واشترك فى المعركة ما يزيد على خمسمائة من المماليك والمصريين.

أخضع الفرنسيون الوجه القبلى ووزعوا الحاميات العسكرية فى المواقع الهامة على النيل، وهو ما طالب به من قبل الرحالة الفرنسيين فى مؤلفاتهم لإحكام السيطرة على البلاد.

فر مراد بك بعد الضربات التى تعرض لها على يد ديزيه، بينما انسحب محمد بك الألفى إلى إخميم، وبحث العديد من المماليك عن ملجأ فى القرى والمدن وباع كثير منهم أسلحته للأهالى بل وعرض بعضهم نفسه على الفرنسيين ليضموهم إلى قواتهم، وقد قبل الفرنسيون العديد منهم بالفعل. وجند بونابرت فى صفوف الجيش الفرنسى جميع المماليك الفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والسادسة عشر.

وعلى الرغم من انتصارات الفرنسيين إلا أنهم لم يستطعوا القضاء على المماليك لأنه لم تكن لديهم أية خبـرة بإدارة الحـمـلات فى الصـحـراء . وقـد اعتـرفـوا فى مراسلاتهم بذلك ووصفوا المماليك بالهمج والجهل بفنون الحرب «إلا أنهم أساتذة لنا فى الحرب فى الصعيد لأنهم قاموا بتفرقة قواتنا فى أماكن عديدة» . ووصفهم دينون «أنهم يملكون الصحراء ويتفوقون علينا فى القدرة على التحمل» .

إذا كان فيفان دينون قد اهتم بتقديم وصف للمعارك العسكرية التى دارت بين الفرنسيين من جانب والمصريين من جانب آخر فإن ويليام ويتمان القائد البريطانى اهتم أيضًا بتسجيل المعارك التى دارت بين القوات العثمانية والبريطانية والفرنسيين متتبعًا خط سير القوات، كما قدم وصفًا لأهم المدن المصرية ولا سيما القاهرة وانتشار الأمراض والأوبئة خاصة الطاعون أثناء المعارك التى دارت بين الطرفين .

وأخيرًا لا يختلف كثيرًا ما سجله علماء الحملة الفرنسية عن المماليك عما دونه الرحالة الأوروبيون ولا سيما الفرنسيون ، فقد وصفهم دلابورت عضو لجنة العلوم والفنون المصرية فى دراسته عن المماليك والتى ساعده فيها الشيخ إسماعيل الخشاب أمين ديوان القاهرة بأن تاريخهم هو مجرد تتابع أشخاص بلا أسماء، بلا هوية، ثائرين على قادتهم، مجموعة من الطامحين والقتلة وأحيانًا المقتولين يتنازعون بالتبادل منصب شيخ البلد وفقًا لعدد مماليكهم الذى يؤيدهم بمقادير متفاوتة من القوة، ومنغمسين فى الفساد ثم تتبع أسماء العديد منهم حتى مجىء الحملة الفرنسية التى صورها كما لو كان هدفها الرئيسى هو تخليص المصريين منهم، بينما الحقيقة أن هذه المشاعر الإنسانية لم يكن لها وجود بين قادة الحملة الذين أمعنوا فى سفك دماء المصريين للسيطرة على بلادهم .

رصد الرحالة أحوال الفوضى التى عمت مصر بعد خروج الحملة الفرنسية وقد ارتفع نجم محمد بك الألفى خلال هذه الفترة فسافر إلى لندن وقابل المسئولين البريطانيين والتقى بالملك جورج الثالث وعدد من النبلاء وتتبعت الصحافة البريطانية أخباره، وجذب الألفى الانتباه بمظهره كأمير شرقى وملابسه الفخمة وحريمه وحاشيته وجواريه . وطالبت الصحف بضرورة تعاون بريطانيا مع الألفى والتنسيق معه حتى تستعيد بريطانيا مكانها فى مصر مرة ثانية .

ورغم الهالة التى أحاطت ببعثة الألفى إلا أنها لم تسفر عن نتائج حاسمة. وعاد إلى مصر مرة ثانية، ودار صراع بين المماليك إلا أنه حسم لصالح محمد على القائد الألبانى الذى قدم مع القوات العثمانية لإخراج الفرنسيين وأبدى الرحالة ويلسون ارتياحه لهذه النتيجة.

علل شاتو بريان انفراد محمد على بالسلطة أنه كان يتسم بالذكاء والدهاء ولذلك نجح فى القضاء على منافسيه ولا سيما إبراهيم بك ومحمد بك الألفى، واستطاع دراسة القوى السياسية المختلفة خاصة بين المماليك.

بينما عزا كادلفين تولى محمد على للسلطة أنه كان نتيجة لضعف المماليك الذين أرهقوا من جراء اشتباكاتهم مع القوات الفرنسية وأن الظروف مهدت لمحمد على فرصة اعتلاء الحكم بسبب ضعف قوة وأعداد المماليك، فالدولة العثمانية منعت جلب الرقيق من جورجيا والقوقاز فتقلصت أعدادهم وارتفع نجم محمد على الذى تخلص من المماليك بمذبحة القلعة الشهيرة.

**الأسرة العلوية:** اختلفت رؤية الرحالة لمحمد على ما بين مؤيد ومعارض وناقد، حسب ميول وأهواء أصحابها وإن كان الجميع قد اتفق على تأكيد عظمة محمد على، فقد أثنى رو ويلسون عليه لأنه حرص على بسط الأمن فى البلاد، كما سجل بأنه يتسم بالهيبة والاحترام. الجميع رهن إشارته، الضباط، الخدم، العبيد، ومن وجهة نظره أنه يحظى بهيبة ومكانة تفوق هيبة بابا روما.

أما المارشال مارمون فقد وصفه بأنه من أبرز الشخصيات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر رائد عصره رغم كونه أميًا، إلا أنه استطاع أن يبنى لنفسه مجداً من خلال تجاربه الشخصية وأكد أن التاريخ سوف يخلد إنجازاته العظيمة.

اتفق إدوارد لين فى الرأى مع مارمون، فقد أثار محمد على إعجابه وعلل ذلك لأنه كان يهدف لتكوين إمبراطورية قوية مستقلة عن الباب العالى، وكان حريصًا على إدخال سبل الحضارة الأوروبية إلى مصر فى كافة المجالات. وقد اتفق دى جارسى مع لين فى الرأى. وأضاف أن مصر كانت إقطاعية مثلما كانت أوروبا فى العصور الوسطى بسبب وجود أعداد كبيرة من المماليك، ولكن محمد على نجح فى إدخال الحضارة والمدنية إليها.

استرعت إنجازات محمد على انتباه الرحالة فعقدوا المقارنات بينه وبين غيره من العظماء، فها هو سان هيلار يعقد مقارنة بينه وبين بطرس الأكبر قيصر روسيا، وبينه وبين فردريك الثانى إمبراطور بروسيا.

وأكد أن إنجازات محمد على فى مصر لا تقل عما أحدثه الحاكمان السابقان.

هذا بينما سجل على العباسى أن محمد على هو الشخصية الوحيدة التى تستحق «أن نقابلها فى مصر».

وأكد كادلفين إعجاب محمد على بالإسكندر الأكبر فهو بطله المفضل ولديه ملخص لمعاركه الحربية. فقد طلب ترجمة كتاب عن الإسكندر. ولمحمد على تعليق شهير حرص كادلفين على ذكره: «أن مقدونيا أعطت مصر ثلاثة زعماء، الإسكندر وبطليموس وأنا»، كما سجل بريس دافين قوله: «أنا من فيلبة أيضًا مثل الإسكندر».

بسط محمد على الأمن فى البلاد كما ذكر ميشو، بينما وصفه بارديو «بأنه الشعلة التى أضاءت البلاد»، وأكد إدمون شارل أن الشرق الحديث كله يدين لمحمد على بالفضل والمجد، وعقد الدوق دى موبونسيه مقارنة بين محمد على ونابليون.

وجه العديد من الرحالة الانتقادات لمحمد على ولا سيما بسبب مذبحة القلعة التى دبرها للمماليك فوصف «بالدموية والوحشية، ولكن وجد أيضًا من بين هؤلاء من برر هذا العمل ولا سيما إدوارد لين الذى سجل بأن هذه الوسيلة الفظيعة كانت ضرورية لنشر الأمن فى البلاد».

أما أمبير فقد ذكر بأن محمد على تخلص من المماليك بحيلة خبيثة ذكية ولكنها تتسم بالوحشية وغلبت فيها طبيعته القاسية الوحشية، وقد تخلص منهم كما فعل بدر الجمالى من قبل مع الأتراك، وكما فعل رجب باشا فى القرن الثامن عشر.

حرص الرحالة على تتبع وقائع المذبحة، فعندما ضرب المدفع العلامة المتفق عليها دخل المماليك إلى داخل القلعة التى أغلقت أبوابها وسجن المماليك ويبقى الباشا فى الديوان حوله الضباط، ثم أطلق إشارة لبدء المذبحة حيث أطلقت النيران على المماليك المحاصرين، وأخذ القواسون يتعقبون المماليك الفارين داخل القلعة،

وتم تفقد جثث القتلى وحاول من بقى على قيد الحياة منهم تقبيل قدميه طالبين العفو ولكنه رفض الإبقاء على حياتهم .

وصف بريس دافين محمد على بالظلم ، وذكر أن الفلاحين أطلقوا عليه ظالم باشا وذلك بسبب ما عانوه من تعذيب على أيدى المأمورين من كى بالنار ، وتمزيق أجسادهم بالكرباج ، وأن محمد على يستوحى المثل القائل إنما الشعب مثل السمسم ينبغى أن نسحقه لكى نخرج منه الزيت . لقد خطط محمد على للقيام بالإصلاحات والإنجازات دون أن يتكبد أية نفقات (دون أن يفتح كيس نقوده) . لقد اعتصر محمد على الشعب بعنف وأنهكه مما أدى إلى إقفار القرى من السكان لأنه أراد حكومة فردية لا تستمد قوتها إلا من شخصه .

ورغم اهتمامات شامبليون الأثرية إلا أن هذا لم يمنعه من تسجيل رأيه فى حاكم مصر فكتب : الضرائب باهظة تفوق قدرة الشعب الذى لا يستطيع السداد ، أن مصر تستحق مصيراً أفضل ومستقبلاً أكثر إشراقًا .

أما الصحفى بوسكيه دى شان فقد وصف مصر بأنها مزرعة يستغلها محمد على الحاكم الأجنبى عنها ، بينما رأى المستشرق أسيب دى سال أن حقيقة محمد على تختلف كثيراً عن الصورة التى أشيعت عنه ولكنه عرف كيف يعبىء الصحافة الفرنسية لخدمة أهدافه ومجاملاته المحسوبة .

هذا وقد شن شولشيه حملة انتقاد ضد محمد على بدعوى محاربة الرقيق . ورغم قوة العلاقة بين فرنسا ومحمد على إلا أن الأب جيسكيه شن سلسلة من الحملات على محمد على ونظام حكمه ، أما رو ويلسون فقد حرض فى مؤلفه عن مصر حكومة بلاده للإسراع بإرسال القوات البريطانية لاحتلال مصر .

يلاحظ مما سبق تباين الآراء حول محمد على فتارة هو الشعلة التى أضاءت البلاد وتارة أخرى هو الدموى الذى استغل المصريين أسوأ استغلال ، كما يلاحظ أن الرحالة الذين هاجموا مصر وطالبوا باحتلالها تذرعوا بالمبادئ الإنسانية لتخليص المصريين من طغيان الباشا ، خير دليل على ذلك ما ذكره الأب أنفتان أنها صليبية جديدة على فرنسا أن تتبعها .

دعا الرحالة البريطانيون لاحتلال مصر ولا سيما بعد فشل حملة فريزر. وقد حاول الرحالة البريطاني ويلسون تبرير هزيمة فريزر بالحديث عن عظمته ومكانته كقائد إلا أنه لم يستطع أن يغفل الحديث عن المقاومة الشعبية فى رشيد ووصف ما تعرضت له القوات البريطانية فى المدينة بأنها كارثة.

أشار الرحالة الأوروبيون لسياسة محمد على التوسعية ولا سيما حملته على الدولة السعودية الأولى فى نجد وما أسفرت عنه من سقوط الدرعية عاصمة الدولة.

واتخذ العديد من الرحالة موقفًا دفاعيًا من دعوة محمد بن عبد الوهاب مؤكدين أن أتباعها يتصفون بالجلد، حريصون على تطبيق الشريعة الإسلامية، وقدم على العباسى الذى زار مصر والحجاز العديد من الملاحظات الجغرافية والفلكية عن سواحل البحر الأحمر وموانى جدة وينبع للحكومة الفرنسية.

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد وصفه ميشو بأنه مجرد وأتباعه يتبعون الطريق السليم.

وأضاف فوربان أن الهدف الأساسى للشيخ كان التخلص من البدع والخرافات، بينما وصفه إدوارد لين بأنه مصلح ومؤسس الدعوة الوهابية، والوهابيون إصلاحيون مؤمنون بقواعد الدين الإسلامى.

علل كثير من الرحالة حروب محمد على فى الحجاز ونجد لإرضاء الدولة العثمانية، فذكر ويلسون إنها نوع من الخدمة أداها للسلطان العثمانى ليستعيد مكانته فى الأماكن المقدسة.

ولا جدال أن توسعات محمد على فى شبه الجزيرة العربية أثارت قلق بريطانيا ونظرت إليها نظرة حذر وريبة لأنها كانت تتطلع لمد نفوذها فى المنطقة.

تجدر الإشارة أن أعدادًا من الرحالة الفرنسيين استقرت فى مصر وعملت فى خدمة محمد على، ولذلك وجد العديد من الفرنسيين الذين عملوا فى جيش محمد على. وقد رافق كايو قوات محمد على أثناء سيرها لضم السودان، فقدم وصفًا لخط سير الحملة وتجمعها فى أسوان ثم اتجاهها نحو دنقلة فى شمال السودان ومنها جنوبًا حتى وصلت إلى سلطنة الفونج فى سنار الواقعة شرق السودان. أما دى لاتور فقد أعطى وصفًا لسلطنة دارفور فى غرب السودان.

اهتم إدوارد سانت جون بالحديث عن ضم السودان والترتيبات التى أجريت لنجاح الحملة ودعا لمباركة تلك الخطوة ولا سيما وأنه يتقدم جنوبًا لضم مزيد من الأراضى.

لم يكتف الرحالة بالحديث عن ضم السودان وإنما القى البعض منهم الضوء على جهود الإدارة المصرية لتطوير السودان وإدخال وسائل التحديث فيه. كما اهتم البعض الآخر بانتقاد محمد على لأنه لم يقض على تجارة الرقيق فقدم شولشيه وكان عضواً فى جمعية لمناهضة تجارة الرقيق وصفًا لغزوات صيد الرقيق فى الجبال أثناء موسم الأمطار، كما أسهب فى الحديث عن أحوال هؤلاء الرقيق أثناء سير القوافل المتجهة إلى القاهرة. وقد تم ربط الأطفال بحبل طويل فى رقابهم. أما ديريه فقد وصف ما يتعرض له الرقيق بالمهانة والمذلة.

انتقد الرحالة حروب محمد على فى المورة وذلك لتعاطفهم مع ثوارها اليونانيين، ويكفى ما سجله شاتو بريان عنهم، مما أدى إلى إثارة أوروبا ضد محمد على. . ويلاحظ أن الرحالة لم يحاولوا إخفاء مشاعر الغيظ من تحقيق محمد على للعديد من الانتصارات، كذلك سجلوا مشاعر الفرح والسرور عند تدمير الأسطول المصرى فى نافارين. ولكن شامبليون أضاف بأنه يثنى على محمد على لأنه استطاع سحب قواته سريعًا قبل تحرج موقفه.

ولا جدال أن توسعات محمد على فى الشام أقلقت الحكومة البريطانية فنظرت إليها بحذر وريبة، إلا أن سياسته التوسعية لقيت قبولاً من بورنج الذى نظر إليها نظرة رضا على النقيض من موقف حكومته فسجل أن محمد على يريد تأمين دولته حتى شواطئ دجلة والفرات، وسوف يعمل على استتباب الأمن وتأمين الطرق البرية بين مصر وتلك المناطق، وبين الإسكندرية ومدن مصر الداخلية مما يؤدى فى النهاية إلى انتشار وانتعاش التجارة البريطانية فى الشرق.

أما مارمون فقد أكد أن محمد على بسط الأمن والاستقرار فى بلاد الشام. هذا وقد القى الرحالة الضوء على تكالب الدولة الأوروبية ضد محمد على التى أجبرته على الانسحاب من الشام.

أما إبراهيم باشا بن محمد على فقد وصف بالذكاء وقوة البنية، والنشاط، بينما لم ير فيه دافين سوى رجل فظ، قصير القامة، واتهمه شولشيه بالقسوة لأنه قتل الأسرى البريطانيين بعد إنهاء حملة فريزر، وبالغ فى الأمر وروى أنه قتل أحد مماليكه لأنه ذهب إلى الحمام دون إذن مسبق منه، وأكد ارتكابه العديد من الفظائع ضد العبابدة والبشارية وأنه أجهز عليهم وذبح العديد منهم، وأكد شولشيه على قسوة إبراهيم باشا وارتكابه الفظائع ووصفه بأنه لم تكن له ثقافة علمية ولا حربية.

ولكن رغم هذه القسوة التى وصف بها إبراهيم باشا إلا أن معظم الرحالة أجمعوا على مهارته الحربية وقدرته العسكرية. وكان شامبليون من القلائل الذين وصفوه بأنه قائد مستنير وربما السبب فى ذلك أنه أبدى اهتمامًا بالآثار المصرية.

يتضح مما سبق أن التحامل على إبراهيم باشا بسبب اشتراكه فى حملة المورة وتأثر الرحالة بالكتابات التى ظهرت فى أوروبا وغلب عليها التعاطف مع الثوار اليونانيين، ولذلك نجد البعض يجرده من أى خصلة من الخصال الحميدة فهو تارة يوصف بالدهاء وتارة أخرى بالجهل وتارة أخرى بالدموية والوحشية والجشع واستغلال النفوذ.

**عباس باشا**: نال عباس نصيبًا وافراً من انتقادات الرحالة فلا تخلوا كتاباتهم عنه من ألفاظ تحمل معنى الجهل، والتعصب، والتأخر، والجحود وكان السبب الحقيقى وراء هذه الحملة هو استغناء عباس عن خدمات الأوروبين ولا سيما الفرنسيين، ومن العبارات التى رددها معظم الرحالة عن عباس ما ذكره: «إذ يتحتم على الخضوع لأحد ما فإنى أفضل الخضوع للخليفة، لا المسيحيين الذين أكرههم».

تقرب القنصل البريطانى موراى من عباس لكى يوافق على مد خط حديد القاهرة السويس ورحب عباس بالفكرة مقابل مساندة بريطانيا لسياسته لدى السلطان العثمانى ومنع تطبيق التنظيمات فى مصر.

أشار بيرتون لاستعدادات عباس لإمداد الدولة العثمانية بالجنود للوقوف بجانبها ضد روسيا ولاحظ اتساع حركة التجنيد، ومناداة المصريين بالجهاد ضد روسيا فى حرب القرم. وسجل بيرتون «أن الحماس كان حقيقيًا للوقوف بجانب الدولة العثمانية».

من الشائعات التى أطلقها الرحالة حول عباس هو تدليله للغلمان أكثر من الجوارى، وساق لاكور عدة أمثلة ماجنة على ذلك ثم عاد وذكر قصة غرامه بالعالمة كوتشك هانم والتى ما لبث أن غضب عليها ونفاها إلى الصعيد.

كما سجل دافين تعلق عباس بإحدى البدويات التى تنتمى لإحدى القبائل العريقة فى شبه الجزيرة العربية فتزوجها عباس وبنى لها قصراً فى صحراء السويس وآخر فى العقبة، وعلل ذلك لكى يستطيع استقبال العرب بعيداً عن أعين الرقباء، لأن عباسًا كانت له آمال واسعة وهذا الزواج يمكنه من الحصول على مساعدة القبائل العربية. ويؤكد دافين أن عباسا كان يطمح فى إنشاء إمبراطورية عربية إسلامية، وأن هذا المشروع لم تعرف أوروبا عنه شيئًا ولا الدولة العثمانية وإنه كان يتطلع للاتصال بمسلمى الهند لإثارتهم ضد البريطانيين.

كثرت الروايات حول مقتل عباس فأكدت مدام أولمب أنه وجد مقتولاً فى قصره ببنها وذكرت أن الأميرة نازلى عمة عباس هى التى ائتمرت لقتله وهى فى الآستانة، فقد أرسلت مملوكين من أتباعها لقتله فنزلا سوق الرقيق ورآهما وكيل الأمير فاشتراهما وأدخلهما سراى بنها فأعجب بهما عباس، وعهد إليهما بحراسته ليلاً. ولم يكد يستغرق فى النوم حتى انقضا عليه وقتلاه ثم فرا هاربين إلى الآستانة. وأضافت مدام أولمب أن إلهامى باشا ابن عباس تعقب المملوكين ليثأر لأبيه فالتقى بأحدهما فى الآستانة وقتله رميًا بالرصاص أما الآخر فلم يعثر له على مكان.

بينما روى دافين أن عباسًا مات بسبب تدخين جوزة محشوة بالحشيش ثم نام نومًا عميقًا وانتهز القتلة الفرصة فى قصر بنها وتمكنوا من قتله ثم فروا من القصر. هذا وقد تعددت الروايات حول مقتل عباس ثم نفى دافين كل هذه الروايات وأكد أن عباسا كان ذا بنية ضعيفة مات نتيجة لأزمة قلبية كما ذكر طبيبه الخاص ديامنتى.

وأخيراً أقام عباس فى المناطق البعيدة النائية حيث الهواء النقى، فبنى القصور فى العباسية، وعند جبل المقطم فكان محل إقامته أشبه بالقلعة يعسكر فيه مع موظفيه بعيداً عن دسائس الأوروبيين وقناصلهم.

**سعيد باشـا**: كان سعيد باشا شغوفًا بالحضارة الأوروبية ؛ قرَّب الفرنسيين إليه، فعملوا مستشارين له ووصفه سان هيلار بأنه صديق للفرنسيين لأنه وافق على مشروع حفر قناة السويس.

أما دافين فقد وصفه بأنه لم تكن لديه ملكة الذوق السليم رغم تعليمه الأجنبى، كان يميل إلى الإسراف، لم يكن يتمتع باللباقة، أهمل جميع مؤسسات الدولة، يتسم بالشراهة الشديدة فى الأكل، فلم ير فيه دافين أيًا من الخصال ولم يمتدحه سوى صديقه دى ليسبس.

**الخديو إسماعيل**: نشأ فى روما وتأثر بمدنيتها، رأت مدام أولمب أن إسماعيل لم يهتم إلا بجمع الملايين، كان حريصًا على شراء الأطيان وزراعتها، يعقد القروض دون ضوابط حتى وصفته بأنه كان يقصد أن يعقِّد مهمة الحكم لمن يأتى بعده.

أما خير ما ذكره بريس دافين عن إسماعيل قوله: «إن جميع أبناء الباشوات الذين نشأوا فى أوروبا لم تظفر مصر منهم بمواطن واحد ممتاز، فلقد أنهكوا أجسامهم جميعًا فى المجون أخذوا جميع عيوبنا دون أن يكتسبوا واحدة من صفاتنا وفضائلنا وإسماعيل باشا محب للانتفاع وهباته الكريمة ناتجة عن غروره».

## ثانيا: ثروة مصر الاقتصادية إعجاب أم مخطط استعمارى؟

جذب موقع مصر الجغرافى الاهتمام فحدد فرمنال حدودها الشمالية بالبحر المتوسط والجنوبية بالحبشة والشرقية بصحراء سيناء، والغربية بالصحراء الليبية أو صحراء أفريقيا. وأضاف فرمنال أن مصر من أجمل البلاد، وأكثرها ثروة.

وصف ميليه موقع مصر فى القرن الثامن عشر بأنه لا يوجد فى العالم بلد له شهرة وتاريخ مصر، التى تتمتع بموقع ممتاز، تطل على البحر المتوسط شمالاً والبحر الأحمر من جهة الشرق وأضاف الأب لوكا أن هذا البحر هو مفتاح مصر إلى الهند، كما أشار البارون دى توت بأن موقع مصر أتاح لها فرصة الاتصال بآسيا وأفريقيا وأوروبا.

وصف ميليه مصر بأنها تمتد على شكل حرف «y » يمثل الجزء العلوى من هذا الحرف فرعى رشيد ودمياط ، كذلك سجل تشبيهًا طريفًا بأن مصر تمتد على شكل عصا طويلة تبدأ فى القاهرة وتمتد حتى الشلال الأول .

أما علماء الحملة الفرنسية ولا سيما دى بو وايميه ، فقد وصف الدلتا بأنها على شكل مثلث وسميت بالدلتا لأنه الاسم الذى أطلقه الإغريق على هذه الأراضى ، لأنه اسم حرف من أبجديتهم ، كانوا يرسمونه على شكل مثلث .

وصف سافارى الدلتا بأنها حديقة جميلة لا تكف عن العطاء ، وظلت دلتا مصر تثير الإعجاب والدهشة ففى القرن التاسع عشر عقد شاتو بريان مقارنة بينها وبين شواطئ فلوريدا بمروجها الساحرة الخضراء .

هذا وقد ظهرت عدة أصوات نادت وحذرت من تآكل الدلتا وأشار مارمون بأنها معرضة للتأكل بسبب طغيان البحر على الساحل .

اهتم الرحالة بالحديث عن نهر النيل وأبدى الجميع إعجابه بهذا النهر العظيم فاعتبره أوليفيه مصدراً للخصوبة والنماء . أما منابع النيل فقد ظلت مجهولة والمعلومات قليلة عنها ولكن ميليه أكد بأنها تنبع من أراضى القس جون ، وذكر بأن البرتغاليين من الجزويت أكدوا أن منابعه من الحبشة ينبع من جبال مكسوة بالخضرة .

استطاع المكتشف البريطانى جيمس بروس الكشف عن منابع النيل الأزرق وقدم وصفًا لمجراه مزوداً بالخرائط فكشف عن كثير من غموضه .

ينحدر النيل نحو مصر فى لطف ولين ويصل نقيًا دون رمال أو حصى أو أحجار . وقد أجرى دى منكونى التجارب على مياه النيل فى القرن السابع عشر وسجل بأنها تتسم بالنقاء والصفاء ، كما سجل ملاحظات عن فيضان النيل وأثبتت نقاءه عن مياه نهر السين . وفى القرن التاسع عشر كتب أمبير أن التحليل الكيميائى أثبت نقاء مياه النيل .

وقد اهتم الرحالة بتسجيل الطرق البدائية التى اتبعها المصريون لتنقية ماء النيل فكتبوا بأنهم يضعونها فى أوان بها كمية من اللوز حتى يصبح طعمه لطيفًا ، وقد أكد جون كارن أن أفضل مشروب يمكن الحصول عليه هو شرب مياه النيل مع الليمون .

أما فيضان النيل فقد وصفه سونينى بأنه من أجمل المعجزات وهو يحدث بسبب هطول الأمطار فى الحبشة فإذا ارتفعت مياهه اضطر السكان إلى الفرار إلى المناطق المرتفعة وإذا انخفضت تعرض السكان للمجاعات والموت كما يحدث فى البنغال والهند كما ذكر فولنى، ولكن النيل من أغنى أنهار العالم وأجملها كما أكد الجراح مادين .

بلغ حقد وكراهية بعض الرحالة إلى درجة أن تمنوا عدم إفادة مصر من مياه النيل، فكتب أوليفيه، لو تحولت مياه النيل إلى البحر الأحمر لتحولت مصر إلى صحراء جرداء . بينما نجد فولنى يثنى على هذه الفكرة ويذكر بأن البوكيرك لو تمكن من تنفيذ مشروعه وتحويل مجرى مياه النيل من الحبشة إلى البحر الأحمر لما كانت هذه البقعة الخصيبة إلا صحراء .

يلاحظ مما سبق أنه رغم الإعجاب والثناء على موقع مصر ونهر النيل إلا أن هذا لم يمنع من الحديث عن المشاريع الاستعمارية حتى الخيالية منها .

وبسبب هذا المَوقع وتميزه ظهرت فكرة وصل البحرين وقدم ميليه مذكرة تفصيلية بإنشاء قناة تربط السويس بالنيل، موضحًا مصاعب الملاحة فى البحر الأحمر وأن هذه القناة ستحقق الفوائد لفرنسا وستمكن من تنمية تجارتها وطالب بإقامة منشآت تجارية فرنسية فى السويس والطور ومخا فى اليمن للسيطرة على تجارة البن .

أيد المفكرون فكرة وصل البحرين فى القرن الثامن عشر ولا سيما مونتسكيو وفولتير .

وفى عام ١٧٧٧ كتب دى توت عن أهمية حفر القناة القديمة بين النيل والسويس وأيد فولنى الفكرة كذلك أكد أوليفيه على ضرورة الإفادة من موقع مصر الجغرافى وتأسيس ميناء جديد عند بحيرة المنزلة وأثنى على سيزوستريس ووصفه بأنه من العظماء لأنه أول من فكر فى ربط القناة التى عرفت باسمه .

تحدث الرحالة عن ثروة مصر الاقتصادية ولعل أول من لفت الأنظار للبيئة المصرية هو بيلون دى مان الذى قدم فى مؤلفه وصفًا شاملاً لأهم النباتات ومظاهر الحياة الطبيعية وزود مؤلفه بالرسوم والصور .

أما دراسة ثروة مصر الزراعية فقد جاءت أعمق بكثير فى القرن الثامن عشر

عما ذكره دى مان وعزا معظم الرحالة سبب هذا الثراء لمناخ مصر المعتدل، وفيضان النيل المسبب لخصوبة الأراضى.

ويسبب ثروة مصر الزراعية دعا العديد من الرحالة لغزوها للإفادة من تلك الثروة.

حذر الرحالة من تراجع مساحة الأراضى الزراعية وزحف الرمال، ووجه سافارى اللوم للعثمانيين والمماليك الذين أهملوا الجسور والقناطر، هذا وقد أطلقت صيحات تحذير مماثلة فى القرن التاسع عشر ولا سيما من قبل كادلفين.

أشار الرحالة لطرق تسميد الأراضى من روث الحيوانات، وقدم جرانجيه وصفًا لكيفية استخدام زبل الحمام فى تسميد أشجار الفاكهة، وأضاف بدونه لا يمكن أن يكون للفاكهة طعم جميل.

عدد الرحالة أهم المحاصيل فى مصر منها:

**القمح والشعير**: وقد تفوقت الفيوم فى إنتاج القمح وسجل أوليفيه أن مصر كانت مخزنًا لحبوب أفاد منها الرومان والعالم القديم وصدرت إنتاجها لليونان والجزيرة العربية، وقد وصفت مصر بأنها مخزن الآستانة من القمح. وأشار علماء الحملة الفرنسية إلى أن أكثر مناطق مصر التى تجود فيها زراعة القمح هى طيبة وجرجا وأسيوط والمنيا والقاهرة والمنوفية والمنصورة. وقدم جيرار وصفًا لطريقة زراعته وحصاده.

ـ **الذرة الشامية والعويجة**: تزرع على ضفاف النيل وتشكل الغذاء الرئيسى للفلاحين يصنعون منها الخبز، وقد أعرب جرانجيه عن عدم إعجابه بمذاق هذا النوع من الخبز.

ـ **الأرز**: يزرع فى دمياط ورشيد وقد أطلق عليه سويننى اسم الحب الغالى فهو الغذاء الصحى للسكان وأفضل الأنواع فى رشيد.

**أما العدس**: فيزرع فى الأراضى التى تغمرها مياه ترع الرى بشكل طبيعى ولا تتطلب زراعته إلا قدرًا ضئيلاً من الجهد كما ذكر جيرار.

كما **يزرع الفول** بوفرة فى الوجه القبلى وتستخدم سيقانه كعليق للجمال والثيران.

تشتهر مصر بزراعة العديد من الخضروات وتشكل زراعة البصل أهمية كبيرة فيزرع فى كل أنحاء مصر.

وقد فقد البصل المصرى بعض شهرته فى أواخر القرن الثامن عشر إلا أنه أكبر حجمًا من البصل الذى تنتجه أوروبا، كما أنه حلو المذاق يؤكل نيئًا وهو يستخدم كغذاء لسكان الريف.

كما تزرع فى مصر البامية والخيار، وفى العادة تحاط الحقول المزروعة بمحاصيل الخضروات بصفوف من القنب والقرطم أو بسيقان صغيرة من سيقان الذرة الجافة.

ويزرع فى محافظتى أسيوط وجرجا الشلجم (نوع من اللفت) والخس والسمسم والقرطم.

ويزرع التبغ فى مصر الوسطى ولكن التبغ المستورد من الأقطار السورية يفوق نظيره المصرى. وتنتشر زراعة الكتان والنيلة والقطن، وقد تطورت زراعة الأخير فى القرن التاسع عشر ووجد نوع عرف باسم قطن محو بك نسبة لأحد موظفى محمد على.

تشتهر مصر بإنتاج أشجار الزيتون والنخيل وقد تم التوسع فى زراعة أشجار التوت فى عهد محمد على ولا سيما فى وادى الطيملات فى الشرقية، ولفت التوت الأبيض انتباه بيلون منذ فترة مبكرة فأطلق عليه فاكهة آدم.

فى عهد محمد على قام المستر تريل البريطانى بالعديد من التجارب لتنسيق الحدائق والبساتين، وتم التوسع فى زراعة التفاح والجوافة والساج والخوخ وأجود أنواع الأخير تزرع فى سيناء كما تشتهر دمياط بإنتاج أجود أنواع القشطة.

اهتم الرحالة بالحديث عن الأعشاب التى يستخدمها المصريون للعلاج فى القرن الثامن عشر، وقد أفاد من هذا الوصف روييه عضو لجنة العلوم والفنون فى فترة الحملة الفرنسية فقدم دراسته حول عقاقير المصريين والتى يمكن تلخيصها فيما يلى: الأفيون وعصارة السنط والأهليلج وأوراق نبات السنا، وحبوب الخروع،

والرتنج، وصمغ الصنوبر، والصبر واللبلاب والحلبة. والشبة والشيح، والصبر (الاوة).

هذا وقد قدم بيرتون وصفًا شاملاً لنباتات شبه جزيرة سيناء.

لفتت ثروة مصر الحيوانية الانتباه، ويكفى دراسة بيلون دى مان فى القرن السادس عشر عن أهم الحيوانات فى مصر التى أثارت الإعجاب والانتباه فى أوروبا ولا سيما وعل أوريكس أو المها الذى خصص له فصلاً كاملاً فى مؤلفه فوصفه بأنه يشبه الثور وإن كان أصغر حجمًا ويباع بأسعار مرتفعة، كما ذكر ليو الأفريقى بأن وعل الوريكس يفقد أظافره فى الصيف بسبب سخونة الرمال فيمنعه الألم من الركض، ولذلك يسهل صيده فى هذا الفصل ويستخدم جلده فى صنع التروس لأنه يمتاز بالصلابة.

كذلك خصص بيلون فصلاً بأكمله للحديث عن قط الزباد، وكان قنصل فلورنسا فى الإسكندرية يمتلك واحدًا، ويستخرج الزباد من هذا الحيوان وهى مادة يفرزها من العرق تحت إبطيه وذيله وحالبيه، ويمكن استخراج الزباد مرتين أسبوعيًا كما ذكر ليو الأفريقى.

أشار الرحالة لثروة مصر السمكية ولا سيما فى رشيد ودمياط.

أثارت كتابات بيلون عن الزواحف ولا سيما التماسيح فى مصر إعجاب وانتباه الأوروبيين ولا سيما ما قدمه من رسوم تفصيلية عنها. كما قدم شسنو وصفًا للتماسيح وأكد بأنه رأى أعدادًا كبيرة منها فى النيل بأحجام مختلفة، بينما ذكر تيفيه أن المصريين والعرب يأكلون لحم التماسيح، وحرص فيلامون على الحديث عن خطورتها فهى تخرج إلى الشاطئ وتلتهم النساء والأطفال، وروى قصة طريفة وهى أن تاجراً من البندقية اشترى تمساحًا من بولاق لعرضه فى إيطاليا وقد شق بطنه لتحنيطه فوجد أعدادًا كبيرة من الحلى والأساور الفضية مما يدل على ابتلاعه إحدى النساء، وأكد أن التمساح عندما يبتلع إنسانًا فإنه يبدأ برأسه.

أما ليو الأفريقى فقد قدم لنا طريقة صيد التماسيح فى مصر فذكر أنه يستخدم حبلاً طويلاً يربط فى شجرة كبيرة، وفى نهاية الحبل يربطون فيها نعجة فيخرج

التمساح ليبتلع الحيوان مع الكلابة فتخترق فكه ولا يمكن أن يتخلص منها، بينما ذكر فرمنال بأنه أحيانًا يتم ربط حمار مجروح لصيد التماسيح.

خصص بيلون فصلاً بأكمله لوصف شكل التمساح وأرجله وذيله فذكر بأنه يشبه الحرباء، له ذيل طويل مكون من عدد من الحلقات، يمتاز جلده بالسمك والقوة.

استمر الاهتمام فى القرن الثامن عشر بوصف فرس النهر والتماسيح فى مصر، لأن ما قدم فى القرنين السابقين عنهما أثار الانتباه والإعجاب لدى القراء فى أوروبا.

حذر الرحالة فى القرن الثامن عشر من تناقص أعداد فرس النهر، وعلل سونينى ذلك بسبب استخدام المماليك للأسلحة النارية فى صيده. وأكد أنه شاهدهم ينصبون الخيام ويقيمون المعسكرات لعدة أيام خصيصًا لصيده، وأبدى أسفه لتناقص أعدادها لا سيما فى دمياط.

أفاض الرحالة فى وصف ثروة مصر من الماشية والجمال والخيول ولفتت الإبل المصرية الانتباه وذكر بيلون أن المصريين لديهم قدرة غريبة على تدريب الحيوانات ولا سيما الجمال، واتفق ذلك مع ما ذكره ليو الأفريقى فكتب: «رأيت فى القاهرة جمالاً ترقص على نغمات الطبل، وقد شرح لى صاحبه كيف دربه فقد اختار قعودًا وحبسه مدة نصف ساعة فى غرفة مبنية كأنها غرفة حمام وكانت أرضيتها مدفأة بواسطة موقد. وفى خلال هذا الوقت يقف الرجل خارج الحجرة ويلعب بدق الطبل، وكان الجمل يرفع رجلاً ويخف الأخرى كما لو كان يرقص وليس بسبب الموسيقى ولكن بسبب السخونة التى كانت تؤلمه، وبعد سنة من الترويض قاد الرجل هذا الجمل إلى الساحة العامة وما أن يسمع هذا قرعات الطبل حتى يظن أنه فوق الأرض التى كان عليها، وذلك بسبب تذكره حرارة النار التى كانت تلسع خفيه فيرفع قوائمه بنفس الطريقة حتى ليبدو وكأنه يرقص».

والجمال من الحيوانات التى تتسم بالقدرة على تحمل مشاق الصحراء والسير على الصخور الجافة، ولذلك فالجمل من أهم الحيوانات فى الشرق ولا سيما فى فارس وآسيا الصغرى. وقد أعطى أوليفيه وصفًا دقيقًا عنه وعن كيفية اختزانه للمياه فى أمعائه للإفادة منها.

أما الماشية والأغنام فيفوق حجمها فى مصر أى بلد آخر كما أن حجمها فى الوجه البحرى يفوق حجمها فى الوجه القبلى، وعلل سونينى ذلك أن الماشية والأغنام فى مصر العليا يغلب عليها الشراسة والتوحش لطبيعة أراضى المنطقة فهى محصورة بين جبال البحر الأحمر والنيل، وأورد سببًا آخر ألا وهو ارتفاع درجة الحرارة فى صعيد مصر. وقد أكد علماء الحملة الفرنسية نفس هذه الملاحظات فذكر جيرار أن قطعان الجاموس أقل فظاظة كلما هبطنا نحو الشمال.

أما الخنزير فقد ذكر الرحالة أن المصريين يمتنعون عن أكله لأن لحمه محرم فى شريعتهم. كما ذكر سونينى كذلك لا يأكله اليهود حتى أقباط مصر لا يأكلون لحمه إلا نادراً.

لفتت الطيور فى مصر أنظار الرحالة فقدم الرحالة الروس دراسة عنها ولا سيما فيكنسكى الذى علل أسباب تكاثرها فى مصر للمناخ المعتدل والدفء طوال العام، واهتمت الجمعية الملكية للتاريخ والآثار فى موسكو بنشر مؤلفه وما حواه من وصف للطيور.

تحوى مصر أعداداً كبيرة من الطيور منها البجع الذى وصفه الرحالة بملك الطيور لبياضه وجمال لونه. كذلك عدد البعض منهم فوائد أبو قردان فهو يقوم بالتهام الثعابين والضفادع، كما أن مصر لها شهرة فى تربية الحمام ولذلك أقيمت له الأبراج العالية فى كل مكان. كما استخدم فى المراسلات ولا سيما الحمام الزاجل وأقيمت له الأبراج فى القلعة وكانت على اتصال بأبراج ديار بكر والقدس ودمشق وحلب.

قدم الرحالة وصفًا لحشرات فى مصر، وكتب سونينى أن سكان مصر اعتادوا على لدغها فلم تعد تسبب لهم ألمًا خاصة فى الوجه القبلى. أما سافارى فقد كتب بشاعريته أن من أجمل المناظر التى يراها المرء هى عودة النحل إلى خلاياه بعد أن تجول بين أزهار البرتقال المعطرة فى الصعيد وأزهار الورود فى الفيوم فيعود لخلاياه ليعطى ثروة جديدة من العسل اللذيذ الطعم.

وأخيراً تجدر الإشارة أن رحالة القرن التاسع عشر اكتفوا بتقديم وصف سريع لثروة مصر الزراعية والحيوانية وهم يختلفون فى ذلك عمن سبقوهم فى القرون الثلاث السابقة حيث حرص هؤلاء على تقديم وصف دقيق لأنواع المحاصيل

والفاكهة والخضروات وإعطاء القارئ الأوروبى وصفًا عن شكلها ولونها، ثم جاء علماء الحملة الفرنسية فقدموا وصفًا علميًا شاملاً عن كل ما تجود به أراضى مصر، كذلك عن أنواع الحيوانات والطيور والزواحف فيها فلم تعد هذه الأنواع مجهولة أو فى حاجة إلى الأوصاف الدقيقة عنها فقد درست من قبل علماء الحملة الفرنسية دراسة شاملة وافية وتعمقت المعرفة بها.

ولذلك تركز اهتمام الرحالة فى القرن التاسع عشر بالحديث عن ثروة مصر الزراعية وعن أهم المحاصيل والغلات التى تم التوسع فيها، ولا سيما أشجار التوت التى جلبها المزارعون من سورية ولبنان وتم التوسع فى زراعتها فى وادى الطميلات وغيرها من المناطق، كما تم غرس أشجار الزيتون لاستخراج الزيوت وتم التوسع فى زراعة قصب السكر والطباق والقطن.

جاء الاهتمام فى القرن التاسع عشر بأهم الجهود التى بذلت لتطور الزراعة منها سد ترعة الفرعونية وحفر ترعة المحمودية وإقامة القناطر والترع لضبط مياه النيل ولا سيما القناطر الخيرية.

تحدث الرحالة عن بعض الصناعات المنتشرة فى مصر خاصة استخراج ملح النشادر من وادى النطرون واستخدامه لإكساب الأقمشة اللون الأبيض وانتشار مصانعه فى رشيد، ومنه نوع يعرف بالنشادر السلطانى كان يتم تصدير كميات كبيرة منه إلى فرنسا خاصة مارسيليا وروان، ويستخدم فى الصباغة بسكب الماء البارد على القماش لمدة ثلاثة أيام ثم يغلى الماء ويوضع له النشادر.

أشار علماء الحملة الفرنسية لهذه الصناعة وقام الكيميائى كولليه ديكو تيل بعمل دراسة عنها، وقد أفادوا من دراسة الأب سيكار عنها فى عام ١٧١٦ تلك الدراسة التى قدمها إلى الأكاديمية العلمية فى فرنسا.

تعتبر صناعة الجلود من الصناعات الهامة فى مصر بسبب توافر الماشية بها بأعداد كبيرة، وقد قدم علماء الحملة الفرنسية وصفًا لدباغة الجلود.

تشتهر رشيد بصناعة المنسوجات ويستخدم القطن المغزول فى صناعة ملابس الفلاحين وتم تعبئة القطن فى بالات بعد تنظيفه، وفى القرن الثامن عشر وجد فى

رشيد عدد من المحلات تعمل فى القطن وتصدره إلى أوروبا، كما تنتشر صناعة الغزل والنسيج فى الوجه القبلى.

وتنتشر صناعة الكتان والمنسوجات المصنعة منه ومن الصوف فى دمياط والمحلة الكبرى.

وتنتج إسنا أفضل أنواع المنسوجات التى تشهد إقبالاً عليها ليس فى الوجه القبلى فحسب وإنما تتردد القبائل العربية على أسواقها كما ذكر علماء الحملة الفرنسية، كما تشتهر قنا وقوص بصناعة المنسوجات وتستخدم الأقمشة من القطن الأبيض فى الأمور المنزلية، وتصنع شيلان القطن المخططة بالأزرق والتى تغطى أكتاف الفلاحين وتصنع فى شكل قطع تتكون كل قطعة من شالين.

وتشتهر الفيوم بالمنسوجات الصوفية بسبب كثرة تربية الخراف فيها.

قدم الأب جرانجيه وصفًا لصناعة الأوانى الفخارية والزجاجية وكذلك استخدام روث الأبقار كوقود لإشعال النيران، وقدم علماء الحملة وصفًا لهذه الصناعة وصناعة الجير لأغراض البناء ولتبييض غزل الكتان، وتقدم الجبال الجيرية التى تحف بوادى النيل المادة المطلوبة لإنتاجه، وقد وصف المسيو جومار أفران الجير (الجيارات) التى تنتشر فى الوجه القبلى.

ومن الصناعات الغذائية الهامة ضرب الأرز وتبييضه خاصة فى رشيد التى وجد بها خمسون مصنعًا لضرب الأرز فى القرن الثامن عشر.

أما صناعة الزيوت فيستخرج الزيت من بذور الخسِّ والقرطم والسمسم والكتَّان، ويقتصر طعام الأثرياء على زيت الزيتون المجلوب من تونس والمغرب، ولكن معظم السكان يعتمدون على السمسم فى الحصول على الزيت ويستخدم بقاياه علفًا للحيوان.

أشار علماء الحملة الفرنسية لصناعة النبيذ فى الفيوم، ويصنع بهرس العنب لمدة ساعة فى إناء فخارى أسطوانى الشكل يوضع فى جوال كبير مصنوع من قماش صوفى، ثم يعتصر الجوال بشدة للحصول على عصير العنب الذى يوضع فى إناء فخارى لتتم به عملية التخمير التى تستمر من أسبوع إلى أسبوعين ثم يصب فى

قوارير تدفن فى الأرض حتى رقبتها وتغلق فتحتها بسدادة خشبية يحكم إقفالها بالجبس ولا يستهلك النبيذ سوى الأقباط .

كما أشار المسيو روزير إلى صناعة تقطير الخل فى مصر .

أما تقطير الورد فتشتهر الفيوم بهذه الصناعة ، وقد صنع أنواع راقية منه للماليك والشخصيات ذات النفوذ فى القاهرة . ويوجد العديد من الوكلاء للمقطرين فى الفيوم ينتشرون فى القاهرة وغيرها من المدن المصرية ويزداد الطلب على ماء الورد فى سوريا .

تنتشر صناعة شمع العسل فى مصر ، وعلل أوليفيه انتشار هذه الصناعة لأن مصر بها كميات كبيرة من الورود والزهور ويجيد الأقباط هذه الصناعة ولا سيما فى الصعيد .

وتشتهر مدينتا فرشوط وأسيوط بصناعة السكر التى قدم علماء الحملة وصفًا عن الآلات المستخدمة فى هذه الصناعة ولا سيما المسيو سيسيل .

أما صناعة تفريخ البيض والمقصود بها استخراج الكتاكيت دون اللجوء إلى طريقة الحضانة الطبيعية ، وذلك بإبدال حرارة الدجاج بحرارة مشابهة يتم الحصول عليها بشكل صناعى فى أنواع من الأفران عرفها الرومان والمصريون . ويستخدم المعمل فى الحضانة الواحدة تفريخ من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف . يتم صف البيض فى أفران متعددة الطوابق ويكون الطابق الأخير مثقوبًا ويتم إشعال نار هادئة لمدة أسبوع فيبدأ بعد ذلك خروج الكتاكيت الصغيرة . وقد قدم الرحالة وصفًا لهذه الصناعة ولا سيما جرانجيه والأب سيكار ونوردن ونيبور ، كما قدم علماء الحملة الفرنسية دراسة عنها ولا سيما المهندس روزيير ورويه ، وتنتشر هذه الصناعة فى كل أنحاء مصر حيث توجد مكامير أو مفرخات صناعية .

تنتشر صناعة تمليح الأسماك خاصة فى رشيد ودمياط بسبب انتشار الملاحات فى هذه المناطق .

هكذا عدد الرحالة أهم الحرف والصناعات فى المدن المصرية ثم جاء علماء الحملة الفرنسية ليتموا هذا الوصف بدراسة علمية مستفيضة .

أما فى القرن التاسع عشر فقد لفتت جهود الأسرة العلوية أنظار الرحالة ولا سيما وأن تلك الفترة اقترنت ببناء المعامل المختلفة يمكن إيجازها على النحو التالى :

١ ــ **معامل الغزل والنسيج**: كان مصنع الخرنفش من أول المصانع التى أسسها محمد على فى عام ١٨١٦ واستقدم له العمال والفنيين من إيطاليا وقدر شولشيه عدد العاملين فيه نحو ثلاثمائة من الصناع، أما جيمس أوغسطس فقد قدر عددهم بثمانمائة. وكانت إدارة هذا المصنع تحت إشراف جوميل وإخصائيين من إيطاليا، وكان إنتاج هذا المصنع فى البداية من الحرير والستان ثم حلت مغازل القطن وماكينات لصنع الأقمشة.

استخدمت البغال فى إدارة الآلات وتم فى هذا المصنع عمليات الصباغة والتبييض وتلوين المنسوجات والرسم، وقد أرسل محمد على بعض العمال إلى فرنسا للتعلم.

أنشأ محمد على مصنعًا فى بولاق تولى جوميل إدارته وصدر كميات كبيرة من الأقمشة وعرف هذا المصنع بمصنع مالطة لأن به أعدادا كبيرة من العمال المالطيين.

اهتم محمد على بإنشاء عدة مبيضات لتقوم بعملية التبييض، وأكد لينان دى بلفون أن هذه المصانع انتجت أجمل المنسوجات، وقد تم التوسع فى إنشاء هذه المصانع فى قليوب وشبين الكوم والمحلة والمنصورة وفوة ودمياط وأسيوط والمنيا.

عدد بورنج أسباب فشل صناعة الغزل فى مصر، فذكر أن مناخ مصر بما يحمله من رطوبة أفسد الآلات، واتفق ذلك مع ما ذكره الفرنسيون من أن مناخ مصر المشبع بنترات البوتاسيوم لم يناسب الآلات البخارية مما أدى إلى إتلافها.

هذا وقد سجل الجبرتى بأن احتكار محمد على لصناعة الغزل والنسيج أحدث تذمراً لدى الناس. ففى حوادث عام ١٨٣١م ـ ١٢١٢ هـ ذكر بأن محمد على «احتكر كل ما يصنع بالمكوك وما ينسج على نول ونحوه من جميع الأصناف أبريم وحرير وكتان إلى الخيش والفل والحصير فى سائر الإقليم المصرى».

٢ ــ **مصانع الجوخ**: كانت مصر تستورد الجوخ من فرنسا ولا سيما جوخ لانجدوك ولذلك استقدم محمد على العمال الفرنسيين، كما أرسل الطلاب إلى

فرنسا، وتم إنشاء مصنع للجوخ فى دمنهور واستخدم فيه أنواع رديئة من الصوف لتصنيع ملابس البحارة. كما تم إنشاء مصانع أخرى فى المنيا وجرجا والفيوم ودمنهور، ولكن مناخ مصر المترب أثر فى الأصواف ولذلك كان يتم خلطها بأصواف تونس وإسبانيا وروسيا.

وقد خصص مصنع بولاق لإنتاج ملابس الجيش وذلك للإفادة من موقعها كميناء نهرى فمن السهل أن ترسو المراكب فيها حيث يتم نقل هذه المهمات.

٣ ــ **مصنع الحرير**: تم تأسيسه فى بركة الفيل ولا سيما بعد التوسع فى زراعة أشجار التوت واستجلب له العمال من الآستانة وقد عمل فيه الأرمن، وقدر كادلفين إنتاجه فى عام ١٨٣٣ بنحو سبعين ألف كيلو من الحرير الجيد. أما بورنج فقد قدر إنتاج وادى الطميلات ومنوف والمنصورة والغربية والشرقية والقليوبية والبحيرة والجيزة خلال عامى ١٨٣١ـ١٨٣٣ بنحو ١٦,٧٤٨ أقة حرير.

٤ ــ **مصانع الطرابيش**: تركزت هذه الصناعة فى فوة وكان الطربوش يوضع لمدة ثلاثة أيام فى المكبس ثم يصب عليه الماء الساخن، وقد خصص إنتاج مصنع فوة للجنود، وقد تركز إنتاج المصانع فى القاهرة وفى باقى المدن المصرية، وعلق سان جون على ذلك بقوله «لقد أراد محمد على أن تنافس القاهرة مانشستر».

٥ ــ **معمل سبك الحديد**: تم تصنيعه على غرار مسبك إنجلترا، وكان رئيس العمال فيه أحد البريطانيين وقد استخدم لصب الحديد المعد للسفن، وقد سد مسبك بولاق احتاجات البحرية والمدفعية واستخدمت فيه الآلات البخارية.

٦ ــ **مصنع الأسلحة**: أنشئ على النمط الفرنسى فى القلعة وأشرف عليه أحد الضباط الإيطاليين وهو إيتام بك، ثم أسس محمد على خارج القاهرة ثلاثة مصانع انتجت ٣٦ ألف بندقية ومسدسًا وأسلحة بيضاء، وكان يتم تخزين الذخيرة فى كهوف جبل المقطم خوفًا من حوادث السطو، وأثنى المارشال أمارمون على هذه الصناعة فكتب «لا يسع المرء إلا الثناء على مصانع الأسلحة لأنها متقنة الصنع، فالبنادق المصنعة فيها على الطراز الفرنسى ومعمل القلعة لا يقل عن معامل الأسلحة فى فرنسا من حيث الجودة والإحكام».

كما أنشئت معامل للمنتجات الكيماوية واستعان محمد على بهاين لإدارة هذه المعامل، كما أنشئت مصانع للصابون ودبغ الجلود والشمع.

أما معامل السكر، فقد أسس محمد على معملاً فى الريرمون فى المنيا وقدر كادلفين إنتاجه فى عام ١٨٣٣ بنحو ١٢١٩٥ قنطارا من السكر الخام، كما أنشأ معملين فى الروضة.

اهتم محمد على بصناعة السجاد لخدمة مصالحه فكانت تصنع لحسابه وقد تم جلب نماذج من بريطانيا لتقليدها، وقد أدار مصنع السجاد مجموعة من الشبان الذين تعلموا فى بريطانيا، ورغم أن صناعة السجاد باهظة الثمن والتكلفة إلا أن محمد على كان يؤمن بأنه بعد عدة سنوات سوف تنخفض أسعار السجاد. وقد عبر عن ذلك بقوله «سوف يواتينى التوفيق رويداً رويداً» كما ذكر بورنج.

ازدهرت صناعة النيلة ولا سيما وأن طرق تجهيزها سهلة إذ يلقى بأوراق النبات فى آنية من الفخار توضع فى حفرة وتملأ بالماء ثم تعرض للحرارة فيغلى السائل إلى أن يبلغ من التمسك حداً ليستطيع معه تجفيفه ووضعه فى شكل معين، وقد تم استدعاء الأرمن لتعليم الفلاحين أفضل الطرق لتجهيز النيلة، وتم إنشاء مصانع فى شبرا وشبين والعزيزية والشرقية ومنوف والمحلة الكبرى وانتشرت مصانع النيلة فى الوجه القبلى ولا سيما فى الفيوم وبنى سويف، وجميع المصانع تمتلكها الدولة ويتم تجميع النيلة فى القاهرة تمهيداً لتصديرها.

ومن الصناعات الهامة استخراج الزيوت ومنها صناعة زيت الزيتون الذى يجود إنتاجه فى الفيوم، كذلك يستخرج الزيت من بذرة الخشخاش ويستخدم فى إنارة المصابيح وتستخدم أوراق النبات كوقود كما أورد بورنج فى تقريره.

انتعشت الصناعات الخشبية فى مصر لوجود العديد من الأشجار منها صلبة مثل اللبخ وأشجار الجميز والسنط وينتفع من سيقانها فى إقامة الأسوار والحدائق وبناء السفن النيلية والسواقى. ومن الصناعات القائمة على أشجار النخيل صناعة المقاعد والصناديق وإقامة الأسرَّة والسلال والحصر والمكانس، أما الحبال المستخدمة فى مصر فهى مصنوعة من الألياف التى تنبت عند أقدام أغصان شجر النخيل، ويصنع أفضل الحصر من الأسل وهو نبات ذو أوراق أسطوانية كما وصفه إدوارد لين.

وأخيراً اهتم الرحالة بالحديث عن ترسانة الإسكندرية التى اهتم بها محمد على اهتمامًا كبيرًا لتخفيف مشاريعه التوسعية، وقد عمل بها العديد من الفرنسيين منهم بيسون الضابط البحرى وسريزى المهندس الفرنسى المكلف ببناء الأحواض وتصنيع السفن الحربية، وقد أصبحت ترسانة الإسكندرية من أعظم المنشآت الحربية والبحرية بها العديد من المصانع والورش للحبال ولصناعة الحديد، وأشرعة السفن، ولسبك الحديد، ولعمل الرايات، ولقلفطة السفن وغيرها، وقد تم إحضار الأخشاب اللازمة لصناعة السفن من الأناضول وشيدت السفن البحرية فيها وسفن النقل، وعدد بورنج أسماء وأنواع بعض السفن ولا سيما المعاشى لنقل الغلال من الصعيد، والجيروم وقد استخدمت بين الإسكندرية ورشيد، والقنجات لنقل المسافرين.

أثنى المارشال مارمون على نظافة ترسانة الإسكندرية وفخامتها وبهرته دقة أعمالها وكفاءة عمالها المصريين، فكيف لم يكن بالإسكندرية إلا ساحل مقفر ولكنه أصبح مغطى بترسانة كاملة بنيت على مساحات واسعة وأحواض للسفن ومخازن ومعامل ومصانع لكل نوع».

وقد أحصى مارمون فى عام ١٨٣٤ عشر بوارج سلاح فى الترسانة لكل منها مائة مدفع وقد تم تسليح سبع منها وتمخر العباب الآن، أما الثلاث الأخرى فلم تزل فى الحوض على وشك النزول إلى الماء هذا عدا السفن التى نوع الفرقاطة والكورفت والإبريق مما جعل عدد الأسطول يزيد على ثلاثين سفينة حربية.

وقد نمت هذه المنشآت ووصلت البحرية المصرية إلى هذه النتائج المدهشة فى ذلك الزمن القصير فى بلاد ليس فيها أخشاب ولا حديد ولا نحاس ولم يكن فيها عمال ولا بحارة ولا ضباط، أى أنها كانت مفتقرة إلى كل العناصر اللازمة لإنشاء أسطول وهذه همة لا نظير لها فى التاريخ.

**التجــارة:** ظلت مصر سوقًا دائمًا للمتاجر الشرقية بفضل موقعها الجغرافى فهى مركز المواصلات والتجارة فى العالم تتصل بالهند بواسطة البحر الأحمر، فتفد السفن إلى ميناء السويس محملة ببضائع الهند وبلاد العرب التى تنقلها إلى القاهرة ومنها إلى الإسكندرية حيث ترسو السفن الأوروبية القادمة من أوروبا وآسيا الصغرى.

تتصل مصر بأفريقيا بواسطة القوافل فتصلها القوافل القادمة من الحبشة والنوبة

ودارفور وكردفان، وتعتبر أسيوط مستودعًا للسلع الأفريقية، كذلك تصل مصر القوافل القادمة من الشام ومكة وفارس.

اهتم الأب لوكا بالحديث عن ازدهار موانى الإسكندرية ورشيد ودمياط وإلقاء الضوء على معاملاتها التجارية مع موانى فرنسا ولا سيما مارسيليا وليفورن وغيرها من الموانى الأوروبية والآسيوية ولا سيما جنوة والبندقية واليونان وأزمير والشام.

أثارت كتابات الرحالة الأوروبيين عن تجارة مصر وصادراتها ووارداتها الاهتمام، وكان هدف هذا الوصف الدقيق لا سيما من قبل الفرنسيين وضع يد بلادهم عليها واستغلال هذه الثروات.

فجاءت الحملة الفرنسية وهى ملمة تمامًا بأهم الصادرات والواردات التى يمكن استغلالها لتعود بالفائدة على فرنسا. وقدم علماء الحملة دراستهم عن علاقات مصر التجارية مع مختلف البلاد. ولا سيما أفريقيا واهتموا بتسجيل أهم الواردات التى تأتى بها قوافل دارفور فى غرب السودان لمصر من العاج والتمر هندى والقرب المصنوعة من جلد الجمال وبعض جلود النمور والصمغ. ولكن التجارة الرئيسية تمثلت فى العبيد. ولا سيما الأطفال الذين تم اختطافهم من قرى دارفور، كما تجلب سن الفيل والششم والكرايج المصنوعة من جلد فرس النهر، وريش النعام وملح النطرون والشبة.

وتتكون قافلة دارفور من خمسة آلاف جمل وتستغرق عادة ما بين أربعين وخمسين يومًا حتى تصل إلى أسيوط، وتتوقف فى الصحراء فى كل مكان تجد فيه الماء.

ولا يسمح بدخول القافلة إلى أسيوط إلا بعد سداد الرسوم المطلوبة.

أما الصادرات التى تصدرها مصر للسودان مع عودة القافلة فقد تمثلت فى المنسوجات الحريرية والقطنية المصرية والسورية وأقمشة الكتان والقطن من صنع مدن الدلتا وأسيوط، كذلك الموسلين والشيلان البيضاء الواردة من الهند، ومعدات الخيول وملابس الفرسان والبن والسكر والأرز، ومن البضائع الأوروبية الحلى الزجاجية والخواتم وحبوب الكهرمان والمرجان والجوخ والقطيفة والأمواس والنصال والقصدير والرصاص والنحاس والبنادق والمسدسات وبارود البنادق.

لم يكتف علماء الحملة الفرنسية ولا سيما جيرار فى الحديث عن الصادرات والواردات من دارفور وإنما قدم وصفًا لعدد قطع المنسوجات الحريرية والقطنية وأسعارها وأطوالها .

كما اهتم الرحالة وعلماء الحملة الفرنسية بالحديث عن قافلة سنار القادمة من شرق السودان وتتبعوا مسيرتها وسيرها بمحاذاة النيل واجتيازها الصحراء الموازية للشط الأيمن منه داخل أراضى البشارية الذين يقطنون ما بين النيل والبحر الأحمر . وخوفًا من عمليات السلب والنهب زودت القافلة بحراسة من عربان العبابدة حتى أبريم ومنها إلى دراو . وقد قدم لابانوز دراسة عن مسار قافلة سنار وذكر أن الفترة التى تستغرقها للتوجه من سنار إلى أبريم تستغرق ١٨ يومًا وخمسة عشر يومًا للذهاب من أبريم إلى دراو . وتسدد القافلة الرسوم والضرائب فى إسنا .

تعتبر قافلة سنار أقل أهمية من قافلة دارفور ، أما ما توروده لمصر فهو العبيد والصمغ العربى وتراب الذهب والقرب المصنوعة من جلد الثيران .

تحمل القافلة عند عودتها الصابون والمحلب والقرنفل والأقمشة القطنية المصبوغة باللون الأحمر والقطن والرصاص والحلى الزجاجية والمرايات الصغيرة وخشب الصندل والمسك والملابس المصنوعة من الجوخ .

أما عن تجارة مصر على سواحل شمال أفريقيا فتحصل من تونس على زيت الزيتون ، الطرابيش ، الشيلان الصوفية البيضاء ، النعال المصنوعة من جلد السختيان الأصفر ، المعاطف المزودة بغطاء للرأس يسنى (برنس) ، العسل ، الزبد ، الشمع .

ولا تقتصر التجارة على القوافل فقط وإنما تستقبل الإسكندرية العديد من السفن القادمة من فاس وغيرها من الموانى . كما تقوم السفن الأوروبية بعمليات النقل البحرى من ميناء لآخر من موانى الشرق .

كما يحمل الحجاج المغاربة الذين يسافرون برًا مع القوافل سلعًا جافة يقومون ببيعها ولا سيما البرانس والطرابيش .

وتستورد تونس والجزائر وطرابلس وفاس ومراكش وتطوان العديد من

الصادرات من مصر أهمها الكتان المصنوع فى أسيوط ومنفلوط وأبو تيج، والقطن، والفلفل والبن وورود الزهر الجافة، وحبة النيلة، وملح النشادر وخشب المر والقرفة ومواد العطارة.

تتم علاقات مصر التجارية مع آسيا عن طريق القوافل وإن كانت بعض السفن الأوروبية تقوم عادة بنقل البضائع فى البحر الأحمر.

توفر سوريا لمصر بالإضافة إلى بعض المنتجات من أرضها وصناعة سكانها بضائع مختلفة واردة من الهند، وتأتى إلى دمشق عن طريق بغداد والبصرة. وترسل مدن يافا وغزة ونابلس وعكا والقدس إلى مصر الصابون وزيت الزيتون والقطن وبذور النيلة والسمسم والأقمشة القطنية، ويشحن جزء من هذه السلع بحراً فى موانئ يافا وعكا وتأتى إلى دمياط، وينقل جزء آخر صغير عن طريق قوافل صغيرة من عربان القبائل المجاورة للقاهرة والعريش.

وعن طريق دمشق تم جلب الأقمشة الحريرية والقطنية. وقد اشتهر منهما صنفان الأول يسمى (ألاجه شامى)، والثانى يسمى (ألاجه هندى)، كذلك أقمشة من القطن تسمى أنكس (أوعاتكى) شامى.

ومن دمشق تأتى شيلان من كشمير من خمسة أصناف مختلفة، كما يصل الموسلين الهندى، والعقاقير ولا سيما المغات، وتأتى هذه السلع إلى دمشق من بغداد عن طريق القوافل التى تصل إلى هناك ثلاث أو أربع مرات فى العام.

أما صادرات مصر إلى بلاد الشام، فهى الأرز والقمح والعدس والحمص والكمون والزعفران والكتان وكل ما تنتجه أراضى مصر الزراعية، كما تصدر مصر جلود السختيان الأحمر والبن وبذور النيلة وحبوب المسابح المصنوعة من نواة ثمرة الدوم والفلفل والزنجبيل والعبيد، وترسل الصادرات عن طريق ميناء دمياط كما تم تصدير كميات أقل من رشيد.

أما الجزيرة العربية فتتم التجارة فيها وبين مصر بحراً بواسطة سفن صغيرة تأتى من مينائى جدة وينبع لترسو عند القصير أو السويس، أو تتم براً بواسطة قوافل تعبر الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر.

يعتبر البن أشهر السلع التى تم تصديرها إلى مصر عن طريق ميناء القصير ومنه ينتقل إلى قنا على ظهور الجمال ثم ينقل عن طريق نهر النيل إلى القاهرة.

وتصل بضائع الهند إلى موانى الجزيرة العربية أو بواسطة قوافل الهنود الذين يأتون إلى مكة للحج أو عن طريق سفن الهند والتى يركبها عادة البريطانيون. وتصل بضائع الهند إلى القصير وتسدد الرسوم عن الأقمشة الهندية والتوابل والبخور والصمغ.

كما يستقبل ميناء السويس العديد من السفن القادمة من جدة ويبلغ عددها سنويًا من خمسين إلى ستين سفينة.

احتكرت أربعة قبائل عملية نقل البضائع الواردة بحرًا من السويس إلى القاهرة وتسلك كل واحدة منها طريقًا مختلفًا وهى قبائل الطرابين، الحويطات، عرب الطور، العايدى.

وفى مقابل البن وعقاقير الجزيرة العربية وسلع الهند كانت السفن تحمل عند عودتها من مصر القمح والدقيق والفول والسكر والزبدة وزيت الخس والقرطم ونسيج الكتان، يضاف إلى ذلك البضائع الأوروبية الواردة من الشرقية والحديد والصلب والنحاس والورق.

أما عن الصادرات والواردات المصرية مع الدول الأوروبية فقد نشطت فرنسا نشاطًا كبيرًا فى القرن الثامن عشر وقبل مجىء الحملة، ولعل أهم صادرات مصر إلى فرنسا هى كما يلى:

**البن**: حققت فرنسا أرباحًا كبيرة من استيراده ولا سيما وأن شرب القهوة انتشر بشكل ملحوظ منذ عهد لويس الرابع عشر، وذكر أوليفيه أن هناك مركبًا تحضر البن سنويًا من جدة إلى السويس تقدر قيمة حمولتها بنحو ١٥ مليون فرنك. ويرتفع ثمن البن من مدينة إلى أخرى.

**الجلود**: أجود أنواع الجلود فى مصر وقد شهد القرن الثامن عشر إقبالاً على شراء الجلود المصرية، وتكونت الشركات الأوروبية لشرائه من مصر وعينت غرفة

تجـارة مارسـيليا مـراقبًـا عنهـا وتم تنظيم عـمليـة بيعـه لمنع التنافس بين البـريطانيـين والفرنسيين.

**الســنا:** ينمو فى الأراضى الرملية وهو نبات طبى ينقل من مصر العليا إلى بولاق القاهرة، وتصدر منه كميات كبيرة إلى أوروبا ولا سيما فرنسا.

**الصمغ العربى:** من أهم الصادرات التى اهتم بها تجار مارسيليا وله أنواع متعددة منها السندر والراتنجى وجلبيته والحتليب، وتستورده مصـر من فارس والجزيرة العربية وشمال هندوستان ومنها إلى أوروبا.

كما يعاد تصدير منتجات آسيا والهند وأفريقيا من مصر إلى أوروبا. كما صدرت مصر الأرز والقمح والزعفران وملح النشادر والقطن المعزول.

كما استمرت العمليات التجارية بين مصر والبندقية وتريستا طوال القرن الثامن عشر، واستوردت مصر من البندقية أجواخا خفيفة تقليدا لأجواخ فرنسا تسمى سـاى، كـذلك أنواعـا من السـاتان السـادة والقطنيـة والورق، ورقـائق النحـاس والمسامير والزئبق والمغنسيوم.

كـما صـدرت مصر إلى البندقـيـة وتريستـا الزعـفران وملـح النشـادر والنطرون والسنامكى والسكر، ومنتجات الهند والجزيرة العربية.

فرض المماليك المغارم على التجار الأوروبيين، وكان الفرنسيون أكثر تضرراً من غيرهم بحكم اتساع نشاطهم التجارى فى مصر، واتخذت الثورة الفرنسية ذريعة هذه المظالم والمغارم لإرسـال الحـملة الفـرنسيـة، ولعب القنصل مـاجلون دوراً فى إذكاء هذه الفكرة برسائله وتقريره إلى حكومة الإدارة.

بسبب ثروة مصر وموقعها وتجارتها ظهرت فكرة وصل البحرين لتحقيق الإفادة من هذا الموقع، وتبنى هذه الفكرة علماء الحملة الفرنسية، حتى تحققت فى عهد سعيد باشا.

اتسعت تجارة مصر الخارجية فى القرن التاسع عشر، وساعد على ذلك إنشاء الأسطول المصـرى وإصـلاح وتحديث ميناء الإسكندرية وبناء الترسـانة ومـد الخط

الحديدى من القاهرة للسويس ثم افتتاح قناة السويس. خلال هذه الفترة تصاعد النفوذ البريطانى التجارى بينما تراجع حجم التجارة الفرنسية، وعلل شولشيه ذلك بالمخالفات التى ارتكبها التجار الفرنسيون وعدم اهتمام الحكومة الفرنسية، بتنشيط التجارة، كذلك تراجع جودة المنتجات الفرنسية.

ينبغى أن نؤكد على ما ذكره شولشيه لأن فرنسا انشغلت فى القرن التاسع عشر بأحداثها الداخلية المضطربة من فترة حكم نابليون وحروبه فى أوروبا، إلى عودة أسرة البوربون إلى الحكم مرة ثانية متمثلة فى لويس الثامن عشر وشارل العاشر، ثم انتقال الحكم إلى فرع الأورليان أى إلى لويس فيليب وما تلاه من إعلان الجمهورية الثانية ثم الإمبراطورية الثانية برئاسة نابليون الثالث أى عهد التوسع والاستعمار.

شملت الصادرات المصرية كما أورد لين إلى أوروبا الحنطة والسنا والعاج وريش النعام، كما صدرت مصر إلى الدولة العثمانية العبيد والأرز والبن، وإلى الجزيرة العربية المنسوجات الصوفية والسجاد والأسلحة، وأضاف بيرتون الأدوات المنزلية والشيلان الكشميرية وأغطية الرأس والموسلين والكحل والطرابيش.

أما أبرز الواردات المصرية من أوروبا فشملت المنسوجات الصوفية من فرنسا والموسلين من مصانع أسكتلندا وشفرات السيوف من ألمانيا والأوانى النحاسية والسجاد من آسيا الصغرى والصابون من بلاد الشام والبن والبهار والعقاقير والشيلان من الهند والبرانس والحرامات والأحذية من مراكش.

يلاحظ مما دونه الرحالة فى القرن التاسع عشر أن بيرتون البريطانى أعطى وصفًا تفصيليًا لتجارة مصر الخارجية ونشاط موانيها سواء موانى البحر الأحمر أو البحر المتوسط، وقد دفعت هذه الكتابات التى يمكن وصفها بالتقارير أكثر من وصفها بأنها ملاحظات رحالة عابر الحكومة البريطانية لاحتلال مصر فى نهاية القرن التاسع عشر. وهو ما فعله الفرنسيون من قبل، فالوصف التفصيلى الذى سجله الرحالة عن ثروة مصر الاقتصادية دفع وأغرى حكومة الإدارة لاحتلال مصر، فكانت هذه المؤلفات من أهم الأسباب التى أدت إلى الاستعمار والغزو العسكرى سواء فى نهاية القرن الثامن عشر أو فى نهاية القرن التاسع عشر.

لم يكتف الرحالة بتقديم وصف عن ثروة مصر الاقتصادية وإنما قدموا أيضًا وصفًا لاستحكامات المدن المصرية.

لفتت القاهرة الانتباه ووصفت بأنها من أجمل المدن، فاق حجمها حجم باريس فى القرن السادس عشر ثلاث مرات، وأكد بالرن بأنها من أكبر مدن أفريقيا، أما ليو الأفريقى فقد كتب عنها بأنها القاهرة الباهرة، أكبر مدن العالم وأكثرها رونقًا وبهاء. وفى القرن الثامن عشر أكد الرحالة الروسى بارسكى بأن القاهرة تفوق القسطنطينية حجمًا.

بنيت القاهرة أسفل جبل المقطم، ولذلك فهى من وجهة نظر تيفنو سيئة الموقع، واعتبرت مصر القديمة الأفضل لقربها من النيل.

قدم الرحالة وصفًا لاستحكمات القاهرة منذ فترة مبكرة، فالأب كوبان أكد أن أسوارها قد تبدو قوية بها العديد من الأبواب ولكنها فى الحقيقة ضعيفة التحصين ودعا لإرسال الحملات الصليبية.

القلعة هى مركز الحكم شيدت على صخور صلبة وكانت تعتبر مدينة ملكية مخصصة للسلطان وأسرته فى عهد المماليك، وعندما دخل السلطان سليم أصبحت مقرًا للباشا العثمانى كما ذكر تينو وقد شبه بيلون القلعة بقصر سان بيير فى روما.

اهتم الرحالة بإلقاء الضوء على ميدان الرميلة حيث كان الفرسان يقومون بتدريباتهم العسكرية كما ذكر منكونى، أما فى يوم الجمعة فيقدمون ألعابهم للتسلية ويرقصون فى فناء القلعة.

أغرت كتابات الرحالة الأوروبيين عن ضعف استحكامات القاهرة حكومة الإدارة احتلال مصر ولكن خيبت آمال بونابرت بالمقاومة العنيفة التى أبداها المصريون. وكان فولنى قد تنبأ منذ ١٧٨٨ بأن الإقامة فى مصر لابد وأن تؤدى إلى ثلاث حروب الأولى ضد بريطانيا والثانية ضد الدولة العثمانية والثالثة وهى الأصعب هى الحرب ضد المسلمين سكان هذا البلد، كما تنبأ بأن هذه الحرب الأخيرة سوف تكبد الفرنسيين خسائر فادحة.

ولذلك حاول بونابرت إرضاء علماء الأزهر للسيطرة على البلاد وقد أطلق على

الأزهر سربون الشرق وحرص على أن تحكم القاهرة من جانب ديوان مؤلف من تسعة أشخاص يتولون الإدارة ويشكلون لجنة لمراقبة الأسواق وتزويد المدينة بالمؤن.

بعد خروج الحملة الفرنسية واصل الرحالة الحديث عن مظاهر التحديث فى القاهرة وأهم الاستحكامات فيها وتحمس البريطانيون للمشاريع التى أقيمت لربط القاهرة بالسويس وبالإسكندرية. وكما اهتم الرحالة الفرنسيون بتشجيع حكومتهم على احتلال مصر فى القرن الثامن عشر اهتم البريطانيون فى مؤلفاتهم بالقاهرة باعتبارها العاصمة ولم يكتفوا بتدوين ملاحظاتهم عن أحيائها وضواحيها وإنما ألحوا على ضرورة احتلالها.

**الإسكندرية:** من أهم موانى مصر بها العديد من التجار المسيحيين والأوروبيين، ذكر الأب كوبان بأن موقع المدينة سيئ لأن الرمال تحيط بها من كل جانب، كما أكد دى كاستل أن ميناء الإسكندرية أصابه التدهور بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح فلم يعد السوق الكبير للتوابل.

ألقى الأب كوبان الضوء على تحصينات المدينة فى القرن السابع عشر فأكد بأنها ضعيفة لا يوجد بها إلا عدد قليل من المدافع، وأسوارها القديمة القريبة من البحر لا يزيد ارتفاعها على عشرة أقدام.

واصل الرحالة اهتمامهم بالحديث عن تحصينات الإسكندرية الحربية ففى القرن الثامن عشر كتب أوليفيه بأن هذه التحصينات لا تساوى شيئًا، فلا يوجد بها حصون ولا مدافع صالحة للاستعمال، وعدد الإنكشارية فيها لا يتجاوز الخمسمائة وهم جهلة لا يفعلون شيئًا سوى تدخين الغليون. كما أكد أن قلعة قايتباى بأبراجها العالية لا تصلح للدفاع، إذ ليس بها سوى أربعة مدافع صالحة للاستخدام ولكن ليس فيها رماة يحسنون رمى القنابل، وأضاف أن فرقاطة واحدة تكفى لهدم المدينة.

أما سافارى فقد ذكر بأن قلعة قايتباى لا تقوى على صد بارجة واحدة، هذا وقد حث القنصل الفرنسى مور حكومة بلاده على غزو مصر مؤكدًا فى تقاريره بأن ميناء الإسكندرية ضعيف التحصين يخلو من القلاع والمدفعية والذخيرة.

وعند مجيء الحملة الفرنسية فى مصر نزلت القوات بناء على ما دونه الرحالة

والقناصل فى غرب الإسكندرية، وأصدر بونابرت وهو على متن السفينة لوريان بيانه الشهير الموجه إلى المصريين ساعده فى ذلك فنتور دى بارادى الذى قدم له النصح بحكم عمله مترجمًا من قبل، فقد عاش فى مصر عدة سنوات فى عهد على بك الكبير وكان من المتحمسين لغزو مصر.

هذا وقد أعطى فيفان دينون عضو بعثة العلوم والفنون صورة عن مقاومة سكان المدينة للحملة فتحصنوا فى القلاع وانضم إليهم العربان واحتشد الأهالى يحملون السلاح على الأسوار ودارت مقاومة عنيفة فى شوارع المدينة.

واتفق ذلك مع ما ذكره الجبرتى عن احتلال المدينة « رجع أهل الثغر إلى التترس فى البيوت والحيطان، ودخلت الأفرنج البلد، وأنبث فيها الكثير من ذلك العدد، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمى يدافعون، وعند أنفسهم وأهلهم يقاتلون ».

أما فى القرن التاسع عشر فقد اهتم الرحالة بالحديث عن مظاهر التحديث فى المدينة وامتداد العمران بها وتطوير الميناء وتأسيس ترسانة الإسكندرية.

وقد سعد الأوروبيون بسماح محمد على بدخول سفنهم فى الميناء الغربى بعد أن كان مخصصًا للسفن الإسلامية فقط، وكان يطلق عليه ميناء المؤمنين تميزاً له عن المدينة الشرقى المخصص للسفن الأوروبية، وكان يطلق عليه ميناء الكفرة وكان الأخير مهجوراً يعرقل مدخله كتل من الصخر تخترقها ثلاثة ممرات طبيعية الأوسط منها أكثر عمقًا على حد وصف ويلسون.

هذا وقد أثار الرحالة اهتمام محمد على بتحصين المدينة ولا سيما بعد حملة فريزر فأحاطها بسور كبير خوفًا من تكرار الغزو البريطانى أو الفرنسى.

كما ألقى الرحالة الضوء على تحصينات أبى قير التى تبعد عن الإسكندرية مسافة بسيطة فأكدوا منذ القرن السابع عشر بأن تحصيناتها ضعيفة ولا يوجد بها سوى مدفعين.

أما أوليفيه فقد اهتم بتوضيح سهولة الاستيلاء عليها، فذكر بأنها ليست مدينة عظيمة الامتداد، يسكنها العرب ويغلب عليها البؤس والشقاء. ولكن يمكن إصلاح الميناء واستخدامه كملجأ للسفن التى لا تستطيع دخول ميناء الإسكندرية

ونبه لسهولة الاستيلاء على المنطقة وهذا ما تم عند مجىء الحملة الفرنسية، ولكن خاب ظن أوليفيه فقد أصبح للفرنسيين ذكريات مؤلمة عند مجىء الحملة ولا سيما بعد أن حطم نلسون القائد البريطانى الأسطول الفرنسى فيها، ولذلك كتب مارمون فى القرن التاسع عشر لقد شهدت أبى قير انتكاسات وانتصارات للفرنسيين.

ثم أدرك محمد على أهمية أبى قير فأنشأ بها عدة حصون واستحكامات جعلتها أمنع من « عقاب الجو » على حد وصف كلوت بك.

رشـــيد: تقع عند مصب نهر النيل ومن أجمل مدن مصر، وميناؤها أغنى من ميناء الإسكندرية، وهى مزدحمة ومأهولة بالسكان، بها العديد من مصانع الأرز، يكثر فيها الصناع والتجار، ترسو فى مينائها السفن الكبيرة المحملة بالبضائع.

للمدينة علاقات تجارية نشطة مع موانى أوروبا ولا سيما فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، انتزعت رشيد مكانة فوة التجارية بحكم موقعها وقربها من البحر، تشتهر بهدوئها، تنتشر بها الحدائق، وصفها سونينى بأنها حديقة مصر.

ظلت المدينة ضعيفة التحصين حتى مجىء الحملة الفرنسية التى قدم علماؤها دراسة عن رشيد وأهميتها، أشهرها دراسة جولو وهى بعنوان « دراسة موجزة عن رشيد ».

وصفت رشيد فى القرن الثامن عشر بأنها بوابة مصر الشمالية فهى مستودع للبضائع القادمة من القاهرة والوجه القبلى، تمتاز بخصوبة أراضيها وبها أجود أنواع النخيل والفاكهة.

تراجعت مكانة رشيد فى القرن التاسع عشر وذلك لاهتمام محمد على بالإسكندرية. ولكن رغم هذا التراجع احتفظت المدينة بجمالها، فكتب عنها مونتوليه أن الفنان والرسام يجد متعة كبيرة عند رسم رشيد الجميلة بزراعتها الخضراء الواسعة والصحراء التى تحيط بها، وأن طبيعة رشيد الساحرة تفوق بجمالها جبال ومراعى سويسرا الخضراء وشواطىء نهر اللوار المزهر ومزارع أوهايو الشاسعة.

دميـاط: أكد بالرن فى القرن السابع عشر بأنه لا توجد مدينة تضارع فى تجارتها

ونشاطها مدينة دمياط، التي يعمل فيها العديد من التجار الأوروبيين كما ذكر. وقد دمرت دمياط القديمة بعد حملة لويس التاسع وكانت تشغل موقع عزبة البرج الحالية. وفي زمن الحروب الصليبية كانت المدينة محصنة تحصينًا قويًا.

وأخطر ما دون عن دمياط ما ذكره الأب كوبان « تعمدت التجول في المدينة للكتابة عن تحصيناتها لكي أحصل على معلومات تفيد بلادنا المسيحية، وذلك لأنني أومن بتجميع المسيحيين في حلف مقدس ضد الأتراك وإرسال حملة صليبية جديدة، ولذلك أجمع المعلومات عن مدى ضعف الدولة العثمانية، ودمياط ليست مدينة قوية التحصين كما كانت في العصور الوسطى ومن السهل الاستيلاء عليها لأن تحصيناتها ضعيفة ». وقد أكد هذه الحقيقة أيضًا الأب فانسليب.

تمتاز دمياط بتجارتها وصناعاتها وفيها صناعة متطورة للأقمشة، تنتج أفضل أنواع الملابس الملونة كما ذكر فيلامون.

وللمدينة نشاط تجاري كبير مع بلاد الشام خاصة يافا وبيروت وموانئ أوروبا وتشتهر بثروتها الزراعية وأشجارها المثمرة، وفيها أفضل أنواع الفاكهة وأشجار الليمون والموز والنخيل كما تشتهر بتربية الماشية وثروتها السمكية. ويقوم السكان بتمليح الأسماك وهم بارعون في صناعة البطارخ.

قدم سافاري وصفًا شاعريًا عن دمياط في القرن الثامن عشر فوصفها بأنها من أجمل مزارع مصر، قراها مكسوة بالخضرة وتكثر فيها أشجار البرتقال التي تعبق الجو كما تنتشر فيها الحدائق الجميلة.

ولكن هذه المدينة الجميلة تعرضت للسلب والنهب عند مجيء الحملة الفرنسية وارتكبت فها المذابح والفظائع، وقام الجنرال فيال بنهب القرى وقتل عددا كبيرا من السكان.

نشعر من خلال ما دونه الرحالة في القرن التاسع عشر بأسفهم على تراجع مكانة دمياط كما كانت عليه من قبل، ولكن رغم ذلك ظلت من أكبر مدن مصر التجارية كما ذكر ويلسون.

قدم الرحالة الأوروبيون وصفًا تفصيليًا لمدن وقرى مصر السفلى، وفي القرن

التاسع عشر اهتموا بالحديث عن انتعاش بعض المدن ونشأة البعض الآخر، فاهتموا بالحديث عن انتعاش تجارة طنطا وامتداد المشروعات العمرانية فيها، وسجل ميشو فى مؤلفه « بأنه يرد إلى المدينة وأسواقها جميع منتجات الهند من روائح وأقمشة كذلك منتجات أوروبا ».

ومن أهم المدن التى ورد ذكرها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مدينة الزقازيق فأشار ريفو لأهمية موقعها شرق السويس ومنها يمكن الوصول إلى البحر الأحمر والسويس وسورية كما عرف بأهم مدنها ولا سيما بلبيس والصالحية.

وأكد دى جارسى على جمال مدينة الزقازيق وحدائقها ومزارعها الواسعة التى تروى بواسطة مجموعة من القنوات، وهى بصفة عامة مدينة يتوفر فيها كل وسائل الخدمات فيوجد بها خط حديدى ومحطة وجهود الدولة فيها واضحة لتحديثها وتطويرها.

**المحمودية:** أفاض الرحالة فى وصف الآثار المترتبة على حفر ترعة المحمودية حيث تبدلت شواطئها وعمرت بالفلاحين وتحولت ضفاف الترعة إلى مساحات خضراء، كما انتشرت حولها القرى الصغيرة الخضراء حيث زرع السكان النخيل. وقد أدى حفر ترعة المحمودية إلى ازدهار (العطف) وأصبحت قرية هامة لأنها مخرج للترعة، ولم يعد يصل إليها المراكب فقط وإنما السفن التجارية والصنادل ومنها كان يتم نقل البضائع والمسافرين إلى الإسكندرية.

لفتت مدن القناة الاهتمام ولا سيما مدينة بورسعيد التى أسست حديثًا فى تلك الفترة فعبر بيرتون عن سعادته لوصوله إليها، وهى من وجهة نظره مدينة جميلة وحتمية موقعها ممتاز على البحر المتوسط، وتنقسم إلى قسمين القسم الأوروبى الذى يتسم بالجمال، وقد شيدت فيه الفنادق والمحلات كما تتسم منازل الأوروبيين فيه بالفخامة، أما القسم العربى فمنازله متواضعة ويبدو عليه علامات الفقر.

**الإسماعيلية:** من أهم المدن وأجمل الموانى، وقد تم ربطها بخط حديدى مع السويس. انتهز بيرتون فرصة وجوده فى المدينة فقام بزيارة الشلوفة وجزيرة شدوان والزعفرانة وقدم وصفًا عن هذه الأماكن، ويجب ألا نغفل أهدافه الاستعمارية وحرصه على مشاهدة كل هذه المناطق.

أما عن أهم مدن البحر الأحمر التى لفتت الأنظار فكانت مدينة السويس، وقد شجع فولنى فرنسا على الاستيلاء عليها موضحًا ضعف استحكاماتها، وقلة المدافع فيها حتى الموجود فيها تعلوه الصدأ وكذلك معمل السويس فى حاجة إلى ترميم. وقد أشار فولنى بأنه لو كان فى مصر حكومة صالحة لشيدت مدينة جميلة على الخليج ورممت قناة النيل وأعادت حفرها.

وعند مجىء الحملة الفرنسية اهتمت بوضع القوات فى السويس لتأمينها وتحصينها.

وحتى مطلع القرن التاسع عشر لم تمتد يد التحديث إلى المدينة ولذلك وصفها دومينجو باديًا بأنها تفتقر للعناية رغم أنها مفتاح مصر السفلى ولكن سرعان ما اهتم محمد على بها، ولذلك أشاد كادلفين بجهوده للنهوض بها ولا سيما وأنها بحكم موقعها تصلها منتجات أفريقيا من الحبشة ومصوع وزنجبار كما تصلها منتجات الجزيرة العربية وفما واليمن.

اهتمت الحكومة المصرية بإقامة الاستراحات والمحطات بين القاهرة والسويس لراحة المسافرين.

تضاعفت أهمية المدينة بعد افتتاح قناة السويس فتزايد عدد السفن الرأسية فى مينائها. ولا سيما وأنها ربطت الشرق بالغرب، فهى حلقة اتصال بين أستراليا والهند والصين وأوروبا.

هذا وقد قدم بيرتون وصفًا تفصيليًا عن تجارة المدينة وأهم الصادرات والواردات.

تقع القصير صوب السويس مستودع تجارة مصر العليا ولها تجارتها مع قنا وقوص وتعد مركزا لتجارة البن.

قدم الرحالة وصفًا لبحيرات مصر ولا سيما بحيرة المنزلة والمعدية ومريوط وقارون وبحيرتا وادى النطرون فى الصحراء الغربية، وعند مجىء الحملة الفرنسية استكملت الدراسات عن هذه البحيرات ولعل أهمها دراسة العالم أندرو يوسى عن بحيرة المنزلة، ودراسة جراتيان لوبير عن بحيرات وصحراوات مصر السفلى

ولا سيما المعدية ومريوط والمنزلة والبردويل وقارون وبحيرات النطرون، كما كانت له دراسة قيمة عن البحيرات المرة وأطلق عليها البحيرة بين البحرين وعلل ذلك الاسم لوقوعها وسط البحر الأحمر والدور الذى قامت به بين الهند واليونان.

هذا وقد اتفق فى كثير من آراء علماء الحملة الفرنسية حول البحيرات الرحالة الألمانى هورنمان الذى قدم دراسة عن منطقة بحر بلا ماء القريبة من بحيرات النطرون وعرف باسم البحر الفارغ، وقد سميت بهذا الاسم لأن مياه النيل كانت تصل إليها قديمًا ورجحت آراء أخرى وصول مياه البحر المتوسط وهو ما يفسر وجود عظام الأسماك والأصداف.

كما قدم دى بوا وايميه دراسة قيمة عن حدود البحر الأحمر.

لفتت الصحراء الغربية الانتباه وأطلق عليها الرحالة صحراء ليبيا واهتموا بتقديم وصف عنها، كما اهتموا أيضًا بوصف الأديرة المسيحية فيها ولا سيما دير السريان وأبى مقار ودير البراموس والأنبا بيشوى، كما اهتموا بصحراء مصر الشرقية وبأديرتها ولا سيما دير سانت أنطوان.

جذبت صحراء سيناء الاهتمام بدير سانت كاترين والمزارات المسيحية فيها فقدم الرحالة وصفًا للدير والرهبان، وأكد بيلون أن الحجاج المسيحيين يحرصون بعد أداء فريضة الحج على زيارة سيناء ولكن لابد من حصولهم على تصريح من السلطات التركية، كذلك لابد من وجود دليل أو مرشد ليدلهم على الطريق.

اهتم بيرتون فى القرن التاسع عشر بالحديث عن أهم القبائل التى سكنت فى سيناء فذكر من بينها الصوالحة والعليقات والسعدى، ولفت نظره القلاع التى أقيمت لحماية الحجاج ولا سيما قلعة العجرود وكانت من منازل الحج المصرى وقد بنى فيها حصنان ورممت فى العصر العثمانى.

كما قدم الرحالة وصفًا تفصيليًا عن ثروة سيناء النباتية وأهم الأعشاب بها.

أما الطور فهو ميناء الهند، كان يمثل مأوى القوافل التى تتوقف لتنال قسطًا من الراحة قبل استكمال الطريق إلى مكة والجزيرة العربية.

نالت منطقتا مصر الوسطى والعليا الاهتمام ولفتت الجيزة الانتباه بآثارها وفخامة

الأهرام فيها وانتقدت إميليا إدواردز السلطات المصرية لمحاولتها انتزاع أحجار الهرم الأكبر لتشييد القصور.

وقد تأثرت بما ذكره لينان دى بلفون الذى سجل محاولات عباس توفير الأحجار اللازمة لعمل الترميمات فى القناطر الخيرية ففكر فى انتزاع أحجار الهرم الأكبر ونسب لينان الفضل لنفسه بحكم عمله بأنه أقنع باشا مصر بأن ذلك العمل سيكلفه أموالاً طائلة إلى جانب تشويه صورته أمام الرأى العام الأوروبى.

تجدر الإشارة أن رحالة القرن الثامن عشر ركزوا حديثهم عن مدن الوجه القبلى بوصفها تضم العديد من المعابد المصرية القديمة والإغريقية ولكنهم عجزوا عن تحديد أسماء العديد من هذه المعابد لأن رموز الهيروغليفية لم يكن قد تم الكشف عنها إلا بعد مجىء الحملة الفرنسية، فنجدهم عند وصف المعابد يكتفون بذكر «عليه رسومات متعددة أو عليه كتابات وخطوط هيروغليفية»، ودعا سافارى إلى ضرورة الكشف عن الأبجدية القديمة التى مازالت مجهولة للمصريين وألقى باللوم على الكهنة لأنهم حصروا علومهم داخل المعابد ولم يحاولوا ابرازها للنور مما أدى إلى ضياع تلك العلوم القيمة.

لم ينصب اهتمام الرحالة فى القرن التاسع عشر على وصف لآثار الوجه القبلى وإنما اهتموا أيضًا بمواقع المدن وبذكر أهمية كل مدينة.

**الفيوم:** وصفت بأنها حديقة مصر بسبب كثرة الأشجار بها وأكد ميليه بأنها من أغنى وأجمل وأخصب أراضى مصر وحذر من زحف الرمال على المناطق الزراعية، وفى القرن التاسع عشر وصفها بورنج بأنها حديقة مصر وأشار إلى تكليف الحكومة المصرية لدى بلفون بإجراد أبحاث لمنع زحف الرمال على أراضى الفيوم. كما سجل ريفو بأنها من أغنى الأقاليم وتعتبر قرية فيدمين من أهم القرى.

ولا ترجع أهمية الفيوم لخصوبة أراضيها فحسب وإنما أقيمت فيها المعامل ولا سيما معامل الغزل والنسيج والصباغة.

**بنى سويف:** ميناء هام تمر عليه السفن المتجهة إلى مصر العليا وتمتاز بخصوبة أراضيها وتسكنها أعداد كبيرة من الأقباط، تحامل نوردن فى وصفهم بأنهم عصابة

بينما أكد سونينى أن المدينة يسكنها أعداد كبيرة من المسلمين والأقباط وبها معامل للقطن اشتهرت حتى القرن التاسع عشر بصناعة الصوف والأغطية والسجاجيد.

**المنيـا:** مدينة تستحق المشاهدة هكذا وصفها سونينى، شوارعها متسعة بها العديد من الآثار، وأضاف بوكوك أن مبانيها فى حالة جيدة وهى من أجمل مناطق مصر.

قدم الرحالة ولا سيما الأثريون وصفًا تفصيليًا عن آثار المنيا وغيرها من مدن الوجه القبلى.

**أسـيوط:** من أهم المراكز التى يتم فيها تجمع منتجات أفريقيا وتفد عليها القوافل القادمة من سنار والسودان، وظلت لها هذه الأهمية التجارية حتى القرن التاسع عشر.

**سوهاج:** تحوى العديد من الآثار وتنتشر فيها معامل السكر. تعتبر طهطا من أشهر المناطق التى تحوى ديراً للايطاليين.

**قنـا:** مثلت أهمية خاصة للبريطانيين لتجارتها النشطة مع أفريقيا، وقد أحضر الضابط البريطانى بريجز كميات كبيرة من نباتات الهند لتجربة زراعتها فى قنا التى مثلت مستودعًا للبضائع القادمة من الهند والحجاز وأفريقيا وهى مدخل وادى النيل من جهة البحر الأحمر، وقد وصفها إميليا إدواردز بأنها مدينة صحراوية أفريقية الملامح.

**دندرة:** صحح الفرنسيون موقعها وأوضحوا خطأ بروس ونوردن فى تحديد موقعها، وقد ذكر جرانجيه بأنها تشتهر بإنتاج الفواكه والنخيل.

كما وصفها فرومنتان فى القرن التاسع عشر بأنها ميناء نهرى لها تجارتها مع مدن الوجه القبلى ولها تجارة مع غرب السودان.

**قفـط:** تفد إليها تجارة البحر الأحمر وتراجعت مكانها عما كانت عليه فى العصور الوسطى.

**قـوص:** مخزن تجارة البحر الأحمر تخرج القوافل منها إلى مكة كما ذكر سافارى وانتعشت تجارتها مع السودان والحبشة واليمن.

**الأقصر**: بها أجمل المعابد والآثار والمسلات، وذكر سافارى يصعب تصديق أن هذا الشعب الجاهل أنتج هذه الأعمال المبهرة.

**أرمنت**: اشتهرت بزراعة قصب السكر وبها العديد من الآثار.

**إسنا**: اشتهرت بتجارتها وأراضيها الخصبة، اهتم الفرنسيون بتحصينها إبان فترة الحملة الفرنسية.

فى القرن التاسع عشر كانت مركزًا لتجميع القوات المتجهة لضم السودان، كما فر إليها المماليك بعد مذبحة القلعة.

وتعتبر إسنا من أشهر أسواق الإبل فى مصر لأن عرب البشارية والعبابدة يفدون عليها، ومعروف أنهم يقتنون أعرق الإبل فى أفريقيا كما ذكر بوركهارد، كما اشتهر تجار إسنا ولا سيما آل حباتر بتجارة البلح النوبية.

**أسوان**: ميناء نهرى سكانها خليط من الفلاحين والقبائل العربية والنوبيين وتضم سلالات متعددة.

اهتم قادة الحملة الفرنسية بتحصينها لأهميتها العسكرية.

وتعد فيلة مفتاح النوبة على حد وصف دى كان، كما أشار ديديه لأهميتها العسكرية، أما بواتو فقد وصفها بأنها جزيرة تستحق المشاهدة.

تحمل الجزيرة ذكريات للفرنسيين ففيها تعقب ديزيه المماليك إبان الحملة الفرنسية. كما أن فيلة لها تجارة نشطة مع سيناء كما ذكر بوركهارد.

قدم الرحالة وصفًا لآثار مناطق النوبة ولا سيما بيت الوالى: ودبور وكلابشة ودندور وجرف حسين ودكا ووادى السبوع وعمدا وكو روسكو ودرو وأبريم وأبو سمبل حتى وادى حلفا الذى تصله القوافل القادمة من كردفان والسودان.

يتضح مما سبق اهتمام الرحالة بمواقع المدن وثرواتها وتجارتها وتقديم وصف دقيق عنها، فكانت تلك المؤلفات من أهم أسباب مجىء الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر والاحتلال البريطانى فى نهاية القرن التاسع عشر.

# الفصل الرابع

# الحياة الاجتماعية

الفصل الرابع

# الحياة الاجتماعية

قدم الرحالة الأوروبيون وصفًا للمجتمع المصرى، ودونوا ما شاهدوه من احتفالات، وأعياد، ومنشآت اجتماعية.

أسهب الرحالة فى التعريف بأصول المصريين فذكروا أن الأجناس المختلفة تعاقبت على مصر، ولكنها امتزجت وانصهرت بسكان البلاد الأصليين، مما أدى إلى فقدان الأجناس الواحدة لخواصها المميزة، فأصبحت مصر شعبًا متجانسًا. . عدد الرحالة الأجناس التى تعاقبت على مصر من فرس وإغريق ورومان ثم عرب وأتراك، ورجح فولنى أن يكون قدماء المصريين من الزنوج والأفارقة ثم امتزجت دماؤهم على مر العصور بدماء الشعوب الواحدة مثل الإغريق والرومان ففقدوا ملكتهم الأولى.

يعتبر الشعب المصرى من أقدم الشعوب فالمصريون يشبهون الصينيين فى العراقة على حد وصف ميليه. وقد أكد الرحالة أن مصر كانت من أعظم البلاد والأمم، وإنها امتازت بحضارتها العظيمة والعريقة، ثم قارنوا بين مجدها قديمًا ووضعها السياسى المضطرب فى القرن الثامن عشر ووصفوها بأنها غارقة فى الجهل والهمجية.

ردد علماء الحملة الفرنسية ملاحظات الرحالة فذكروا بأن مصر نقلت معارفها إلى كثير من الأمم أما اليوم فهى غارقة فى الجهل.

اختلفت تقديرات الرحالة حول التعداد الحقيقى للسكان فقدرهم فورمون من ثلاثة إلى أربعة ملايين نسمة ولكنه أكد أن هذا العدد يتعرض دائمًا للنقصان بسبب انتشار الأوبئة خاصة الطاعون.

قدر علماء الحملة الفرنسية عدد السكان بما لا يتجاوز مليونى نسمة. ولكن

كلوت بك انتقد هذا التقدير ورأى أنه افتقر إلى الدقة والضبط لأن عددهم بلغ فى بداية القرن التاسع عشر ثلاثة ملايين نسمة، وأكد أن هذا الإحصاء تقريبى قدر حسب عدد المنازل وكل منزل يحوى ما لا يقل عن ثمانية أشخاص، أما مساكن الأرياف فقدرت بأربعة أشخاص كما قدر الذكور من السكان بنحو مليونين وأربعمائة ألف نفس، الثلث منهم على وجه التقريب صالح لحمل السلاح، كما قسم مجموعة السكان على الوجه التالى :

| | | |
|---|---|---|
| ـ المصريون المسلمون ٦٦ | | ٢٦٠٠٠٠٠ |
| ـ المصريون الأقباط | | ١٥٠٠٠٠ |
| ـ الأتراك | | ١٢٠٠٠ |
| ـ العرب (أى البدو) | | ٧٠٠٠٠ |
| ـ السودانيون | | ٢٠٠٠٠ |
| ـ البرابرة | | ٥٠٠٠ |
| ـ الأحباش | | ٥٠٠٠ |
| ـ المماليك الجراكسة | | ٥٠٠٠ |
| ـ اليهود | | ٧٠٠٠ |
| ـ السوريون | | ٥٠٠٠ |
| ـ اليونانيون (الرعية) | | ٣٠٠٠ |
| ـ الأرمن | | ٢٠٠٠ |
| ـ اليونانيون (الأفرنج) | | ٢٠٠٠ |
| ـ الإيطاليون والمالطيون | | ٣٠٠٠ |
| ـ الفرنسيون | | ٨٠٠ |
| ـ البريطانيون | من | ٨٠ إلى ١٠٠ |
| ـ النمساويون | من | ٦٠ إلى ١٠٠ |
| ـ الروس | من | ٢٠ إلى ٣٠ |
| ـ الأسبان | من | ١٥ إلى ٢٠ |
| ـ باقى الأوروبيين | | ١٠٠ |

(السويسريون، البلجيكيون، البولنديون

البروسيون، الداغركيون) .

علل كلوت بك قلة عدد سكان مصر رغم ثراء أراضيها وخصوبتها إلى الأوبئة التى تفتك بالسكان، وإهمال الحكومات المصرية وإلى الفوضى التى سادت فى البلاد فى القرن الثامن عشر وحتى بعد خروج الحملة الفرنسية وعلق قائلاً: «ومن أين كان لمصر أن تسترد صحتها وشبابها وقوتها وقد ضيق عليها الأنفاس أولئك الألوف المؤلفة من صغار الظلمة والطاغين؟ ومن أين لذلك البلد أن يرد غير موارد الهلاك وأن يكون مثله إلا كمثل المصاب بالبرص ليس لدائه طب إذ أصبح ميدانًا مستمرًا للحروب الأهلية ومجالاً تعبث فيه شيع الفاتحين الغزاة بالخراب والفساد».

رأى كلوت بك أن تولى محمد على وأحكامه السيطرة على البلاد أدى إلى زيادة عدد السكان، وبالمشروعات العمرانية التى أقامها وشق الترع الكثيرة التى حملت إلى الجهات البعيدة عناصر الخصب والرخاء، كما أن تحسين نظام الرى امتدت آثاره إلى الصحارى فزادت محصولات مصر زيادة بالغة، كما أنه أنشأ مدرسة للطب وشيد العديد من المستشفيات واستدعى الأطباء للقضاء على الأمراض والأوبئة.

سكان مصر مسلمون، وقد استخدم بول لوكا لفظ «المحمديون» تعبيراً عنهم فمعظمهم على المذهب الشافعى. وخلط بعض الرحالة بين الإسلام والمسيحية فذكروا «المذاهب الأربعة الأرثوذكسية»، ولكن فى القرن الثامن عشر اتسعت المعرفة وميز الرحالة بين الديانتين فكتب فورمون «المصريون مسلمون يعتقدون أن محمداً أعظم الرسل».

**(ولقد وصف الرحالة حالة المجتمع المصرى على النحو التالى):**

## الأتراك:

على الرغم من أن الدين الإسلامى لم يجعل بين المسلمين فروقًا اجتماعية تميزهم بعضهم عن بعض وأنه لا يوجد فى الدولة العثمانية ما يشعر بوجود طبقات ممتازة. فإن فى مصر فريقين يختلفان أحدهما عن الآخر، بصرف النظر عما يربطهما من جامعة الدين اختلافًا حال دون اختلاطهما ببعضهما. أحدهما الفريق الذى بيده السيطرة والحكم، ويتمتع بما يرتبط بهما من مظاهر التعظيم

والتكريم، ويستقل بفوائدهما، والفريق الثانى هو المقضى عليه الخضوع والخنوع للفريق الأول ـ أى الأتراك ـ.

تعتبر طبقة الأتراك فى قمة الهرم الاجتماعى، وقد حرص الرحالة على التعريف بلفظ الأتراك متتبعين نشأتهم فى آسيا الصغرى حتى اعتناقهم الإسلام وظهور عثمان بن آرطغرل وتأمين الدولة العثمانية واستيلائها على البلاد العربية. وعقد الكثيرون منهم مقارنة بين الأتراك والعرب فى طريقة نشر الإسلام، فأنصفوا العرب لأنهم كانوا أكثر توفيقًا فى نشر دينهم على حد وصف فولنى باستعراض كتابات الرحالة، نجد أنه نادرًا ما يثنى أحد منهم على الأتراك باعتبارهم الطبقة الحاكمة، فتارة يتم وصفهم بالكسل وأحيانًا بالبخل. ورغم هذه الصفات فقد مثلوا السلالة الأرستقراطية فى مصر رغم أصولهم المتواضعة، وهم يتمتعون بالإعفاء من الضرائب ولهم كل الحقوق. فذكر شولشيه «أننا لم نسمع عن ضرب أو معاقبة أحد من الأتراك بالعصى أو وضعه على الخازوق، حتى فى العقوبات هناك تفرقة بين التركى والمصرى البائس».

أعداد الأتراك كبيرة يتركزون فى المدن وفى الإدارات الحكومية، ويمكن تمييزهم بملابسهم الفاخرة المختلفة عن ملابس المصريين المتواضعة، وهم يقضون أوقاتهم فى شرب القهوة والتدخين، يتجولون فوق خيولهم المغطاة بالسجاجيد الفاخرة، وحولهم العبيد يصرخون فى المارة لإفساح الطريق لهم «أوعى رجلك» «حاسب» «ظهرك».

ويرى كلوت بك بأن محمد على بذل كل ما فى وسعه لتعديل هذه الأوضاع فنشر التعليم بين أفراد الشعب المصرى وأرسل البعثات إلى أوروبا لأنه أراد ضرب الأتراك المتسلطين المعروفين بعزة النفس بتكوين جيش مصرى من سكان البلاد. كما أنه عهد فى مختلف إدارات حكومته إلى المصريين لأن محمد على كان العثمانى الوحيد الذى عمل على رفع القومية العربية إلى المستوى الذى هى جديرة به. ولكن شولشيه نفى هذه الفكرة وكتب أن هناك أكذوبة تردد بأن محمد على كون قومية مصرية بينما أرى العكس فقد كان تركيًا وسيظل تركيًا وهو يعامل المصريين معاملة المهزومين.

حرص الأتراك على المحافظة على جنسيتهم فتمت المصاهرات فيما بينهم وأبناء محمد على وبناته تزوجوا من نفس الطبقة، فعلى سبيل المثال تزوج إسماعيل بن محمد على من فاطمة أو كلين هانم ابنة عارف بك القاضى القادم من الآستانة وشهدت صوفيا لين العديد من هذه الزيجات فقد سمح لهم بدخول حريم محمد على.

يمكن القول أن الرحالة فى حديثهم عن الأتراك تبدو فى ملاحظاتهم نبرة استعلاء عليهم بل يمكن القول بأننا نلمس البغض أيضًا وذلك يرجع إلى طبيعة العلاقة بين أوروبا والدولة العثمانية وصورة الأتراك فى الكتابات الأوروبية المختلفة.

**المماليك:**

أبدى الرحالة الأوروبيون إعجابهم بالمماليك فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد شكلوا طبقة متميزة حتى بعد أن أصبحت مصر تابعة للدولة العثمانية، واهتم تيفيه بتوضيح كيفية انهيار دولة المماليك وسرد المعارك بينهم وبين سليم إلى أن اضطروا للاستسلام.

هادن السلاطين العثمانيون المماليك خوفًا من قيام الثورات فى بلاد بعيدة عن إستانبول. وترجع أصول المماليك إلى القوقاز والبحر الأسود وتلقوا تدريبًا عسكريًا، وقد قتل السلطان سليم أعدادًا كبيرة منهم عند فتحه لمصر ولكن سليمان هادنهم وسمح لهم بالاحتفاظ بامتيازاتهم وهم يشكلون طبقة عسكرية.

لم يستمر الإعجاب بالمماليك طويلاً فقد انتقدهم الرحالة بشدة فى القرن الثامن عشر، نظرًا للتنافس فيما بينهم والفوضى التى انعكست على أحوال البلاد، فكتب فولنى متعجبًا «عبيد يحكمون شعبًا حرًا»، كما وصفهم بأن سلوكهم غير سوى وأخلاقهم فاسدة وأول درس يتعلمه المملوك هو الشذوذ على يد معلمه مثله مثل اليونانيين والتتار تنتشر بينهم الخرافات والجهل، وفى الحقيقة كان فولنى من القلائل الذى أشار إلى شذوذ المماليك.

ينعم المماليك بالثراء والنفوذ ومنهم السادة الذين أثروا على حساب الفلاحين

التعساء، اعتمدوا على الكتبة الأقباط لتحصيل الضرائب من الفلاحين، وامتلك العديد منهم القرى، وقد أكد هذه الحقيقة دينون المصاحب للحملة الفرنسية.

لفتت أسلحة المماليك انتباه الرحالة فهم يهتمون اهتمامًا شديدًا بها وهم بارعون في ركوب الخيل ولا يسمحون للمصريين إلا بركوب الحمير والبغال.

هذا ويحرص المماليك على وضع عدة ضخمة الهيكل يعلوها طربوش يرتفع ثمانية قراريط ويغطى الفارس حتى رأس الورك وأمام طربوش آخر ويضعون تحت السرج أغطية صوفية سميكة، وسروجهم واسعة المقدمة لا سير لها فى المؤخرة وذلك لأن المملوك فارس ثابت قوى.

عدَّد الرحالة أنواع الأسلحة والسيوف التى يمتلكها المماليك منها المسدسات الإنجليزية، كما أنهم يحملون فى وسطهم المسدسات والسيوف فيتدلى من جانبهم الأيمن سيف معقوف. ويتنافس البكوات على الحصول على السيوف من المصانع القديمة فى دمشق ويقدر ثمن السيف الواحد أربعين أو خمسين ليرة فرنسية ذهبًا، ويحصل الملوك كل عام على كسوة كاملة جديدة من الأقمشة الفرنسية والدمشقية والهندية وشيلان الكشمير.

وهناك ظاهرة لفتت أنظار الرحالة وأفاضوا فى الحديث عنها ألا وهى موت أطفال المماليك، فذكر البعض بأن ذلك يرجع إلى فساد هواء مصر وعجز الجيل الأول والثانى عن التأقلم مع المناخ الحار.

وعلل البعض موت أطفال المماليك بسبب سوء تربيتهم وتنشئتهم، وأكد أنه شاهد أطفال الأوروبيين الذين تزوجوا من نساء مصريات أصحاء، كذلك أشار أوليفيه إلى أن الإغريق والرومان أدركوا مدى قوة وصحة المرأة المصرية فتزاوجوا منهن وأنجبوا جيلاً يتمتع بالصحة، وبذلك يمكن القول إن مناخ مصر غير مسئول عن وفاة أطفال المماليك وإنما ترتفع نسبة الوفيات لأن النساء يحرصن على تنشئة أولادهن فى مكان مغلق، لا يجدد فيه الهواء ولا يحصل الطفل على تغذية سوى اللبن ويبقى فى جناح الحريم حتى يبلغ السابعة، فتذبل صحتهم وتعلو الصفرة وجوههم لأنهم يعيشون فى أجواء مغلقة غير صحية، بينما أطفال الفلاحين يتمتعون بالهواء المطلق والشمس ولذلك فهم أصحاء.

هذا وقد أشار علماء الحملة الفرنسية إلى أن طقس مصر هو المسئول عن وفاة أطفال المماليك وهو يحول دون تكاثر الأجانب، والمماليك محرومون من فرص التكاثر الطبيعى، ولذلك يشترون الرقيق الشبان فيتم تزويد هذه الطبقة على التوالى بدماء جديدة.

حذر بونابرت من تزايد نفوذ المماليك فذكر بأنه إذا انقضت عشرون سنة على مصر وهى بيد المماليك يتصرفون فى إدارتها على ما تشاء أهواءهم فإنها تكفى لخسارة ثلث أراضيها الزراعية وخرابها.

هذا وقد ظلت طبقة المماليك طبقة مميزة فى مصر حتى عام ١٨١١ عندما حدثت مذبحة القلعة وتخلص محمد على منهم، وقد أفاض الرحالة فى وصف وقائع وفظائع المذبحة، ولكن إدوارد لين التمس العذر لمحمد على لأنهم كانوا يثيرون الفوضى فى البلاد.

ورغم كون المماليك من الأرقاء البيض إلا أنهم يتمتعون بالعديد من الامتيازات ويستطيعون الصعود إلى أعلى المراتب فى الهيئة الاجتماعية، لأن الاسترقاق فى الشرق نوع من أنواع التبنى يندرج فيه الرقيق فى سلك أعضاء الأسرة، فإن المسلم الذى يشترى رقيقًا فى سن الطفولة يأخذه من سوق النخاسين عاريًا من الثياب يلتقطه طفلاً مهجوراً ليقوم على تربيته لوجه الله، ويبدأ بتعليمه فروض الدين وإيقافه على قواعد القراءة والكتابة، وقد يتخذه كاتبًا أو سلحداراً أو كيخيا وربما زوجه من إحدى جواريه أو ابنته.

تحمى الشريعة الإسلامية الرقيق وتكفل له الاعتصام من قسوة سيده أو ظلمه، فالرقيق فى البلاد الإسلامية لا يرى فى مركزه الاجتماعى ما يغض من كرامته ويحط من منزلته، بل إنه غالبًا ما يفتخر بانتمائه إلى بيت فلان من البكوات والباشوات ويطلق على سيده لقب الوالد ويعلم بأنه لن يبقى إلى الأبد فى أغلال الرق.

وضرب الرحالة أمثلة لحكام مصر من المماليك ولا سيما على بك الكبير ومحمد أبو الذهب ومراد بك وإبراهيم بك، ولذلك فالسواد الأعظم من كبار الضباط فى الجيش أرقاء فكت رقابهم.

هذا وقد أكد جيرار دى ترفال أن أحوال الرقيق فى الشرق أفضل بكثير من أحوالهم فى المستعمرات الأمريكية، فمن العار أن يبيع السيد رقيقه وأثنى نرفال على أن القرآن عالج موضوع الرق بشجاعة وإنسانية بينما تجاهل الإنجيل هذا الموضوع.

**الألبـان:**

اعتبر الألبان أو الأرناءوط من الطبقات العليا فى البلاد، وينتمى محمد على لهذه الطبقة إذ كان رئيسًا للأرناءوط، وعلل شولشيه تناقص أعداد هذه الطبقة بسبب اشتراكهم فى الحرب الوهابية خاصة وأن محمد على أراد إقامة جيش على النظام الجديد فأحل السودانيين ثم المصريين محل الأرناءوط.

قدم شولشيه وصفًا للألبان فذكر أنهم موجودون فى كل القرى لهم شوارب طويلة يرتدون أحزمة عريضة مرصعة بالمسدسات والخناجر يبدو للناظر إليهم وكأنهم ترسانة متنقلة من الأسلحة.

أثار الألبان الاضطرابات وكثرت شكاوى السكان منهم ولذلك تخلص منهم محمد على بإرسال أعداد كبيرة منهم إلى الجزيرة العربية والسودان ولا سيما سنار وكردفان لكى يلتهمهم مناخ سنار فقضى بالفعل عليهم مناخ البحر الأحمر.

هذا وقد قدم الطبيب أوبير روش بحثًا عن أثر مناخ البحر الأحمر على هذه الفرق، وهكذا استطاع محمد على بدهائه التخلص منهم حتى تناقصت أعدادهم من ١٨ ألف إلى أربعمائة، ولم ينف شولشيه إعجابه بذكاء محمد على فى التخلص منهم وعلق على ذلك «لقد كان محقًا فى ذلك وقد وفق فى اختيار الأماكن السيئة بعناية لإقامة هذه الفرق تمهيدًا لإبادتهم».

يتفق ما ذكره شولشيه عما أحدثته هذه الفرق من النهب والاعتداء على الأسواق مع ما ذكره الجبرتى عنها وعن حوادث الشغب التى ارتكبوها.

أما شاتو بريان الذى زار مصر فى بداية حكم محمد على فقد أتيح له مشاهدة جانب من الفوضى التى أثارها الألبان، فوصفهم بأنهم لصوص عبيد يتسمون

بالقسوة والوحشية لا عمل لهم سوى السلب والنهب وهم يتجولون فى البلاد مرتدين ملابسهم المميزة .

يتسم الألبان بسرعة الغضب حتى أن غضبهم ملتصق بمسدساتهم على حد وصف بيرتون فهم يطلقون النار فى وجه الصديق أو العدو عند أول استفزاز ، ولا يخرجون إلا أزواجًا ، ولا يسيرون فرادى ، وقد منعت الذخيرة عن الألبان المشاة ، وذلك لكثرة منازعتهم وسرعتهم فى القتل ، وهم ينقضون على الفلاحين البائسين إذا كانوا غير قادرين على دفع الضرائب ، وهم يتشاجرون أيضًا مع الأجانب ، وقد اعتدوا على البدو أثناء حربهم فى الجزيرة العربية ، ويصفهم أهل المدن بأنهم باعة كروش وخدم حمامات إستانبول ، وفراعنة فى شبه الجزيرة العربية ، وإطلاق النار رياضة محببة لهم ، وهم يتعالون على المصريين ولكنهم يتسمون بالنظافة ، وقد قابل بيرتون على أغا وهو يوزباشى من الألبان فأبدى إعجابه بنظافة ملابسه وهندامه .

**علماء الأزهر:**

فى القرن السادس عشر خلط الرحالة الأوروبيون بين علماء الأزهر وأرباب الطرق الصوفية ولا سيما البكداشية التى انتشرت فى مصر ، فقدموا وصفًا للدراويش بملابسهم الرثة وذكر بالرن أن الدراويش يمثلون طبقة علماء الدين . غير أن الاختلاف وضح فى القرن السابع عشر فأشاد فرمنال بدور الأزهر كمؤسسة وجامعة تعليمية يدرس التلاميذ فيه الطب والفلك والفلسفة . والأزهر من أجمل الجامعات فى العالم يحوى أعدادًا كبيرة وهائلة من الكتب .

وفى القرن الثامن عشر أثنى دورفال على علماء الأزهر فوصفهم «مسلمون بالفطرة يمتازون بالجد والاستقامة» وأفاض جرانجيه فى الثناء على الجامع الأزهر فذكر أنه توجد فى القاهرة كلية عظيمة اسمها الأزهر يدرس بها المنطق والفلك والتاريخ ، وبها رؤساء المذاهب الأربعة لهم هيمنة ونفوذ .

أشار الرحالة لأروقة الأزهر ولعل أشهرها رواق المغاربة والشوام والعميان .

عندما تولى محمد على الحكم انتزع أملاك علماء الأزهر لتقليل نفوذهم رغم أنهم ساندوه للوصول إلى الحكم لأنهم كانوا همزة الوصل بين المصريين والحكام.

ذكر الرحالة أسماء العديد من علماء ومشاهير الأزهر فى القرن التاسع عشر ولا سيما الشيخ عمر مكرم والشيخ سليمان الفيومى والشيخ العروسى والشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى وعبد الرحمن الجبرتى ووصفوهم «مشايخ لهم نفوذ كبير وهيبة عظيمة».

وكان لإدوارد لين علاقات وطيدة مع علماء الأزهر ولا سيما الشيخ إبراهيم الدسوقى الذى لازمه لين سبع سنوات وساعده فى وضع القاموس العربى الإنجليزى، كما قابل بيرتون الشيخ محمد العطار وأثنى عليه ودعاه لزيارة دكان العطارة التى يمتلكها. كما عبرت صوفيا لين عن إعجابها بعلماء الأزهر لأنهم يوجهون المصريين ويحفظون دينهم وهم قريبون من الأهالى.

تتوارث طبقة العلماء تقاليدها من الآباء والأجداد ويؤلفون الطبقة العليا من الأمة المصرية.

ارتبط العلماء بجامع الأزهر الذى أثنى معظم الرحالة على روعة بنائه، وقدموا وصفًا لأروقته العديدة، والتى تضاء بواسطة ألف مصباح. كما أكدوا على حرص الحجاج على زيارة الجامع الأزهر عند مرورهم بالقاهرة، وهو أغنى المنشآت الدينية وأكثرها روعة وجمالاً.

حرص الرحالة على التأكيد على دور الأزهر فى المقاومة الشعبية ولا سيما ضد الفرنسيين، فذكر ميشو أن الأزهر هو الجامعة التى تعلم فيها سليمان الحلبى وكأنه يريد أن يذكر القارئ الفرنسى بمقتل كليبر ويلقى الضوء على أهمية الأزهر فى الحركة الوطنية.

اتفق الرحالة على اختلاف جنسياتهم بأن الأزهر جامعة ضخمة تحوى مكتبة خطيرة وهو من أشهر مساجد الشرق، تلاميذه من مختلف أنحاء العالم الإسلامى.

ولعالم الأزهر هيبة واحترام لا نجدها لدى كثير من علماء الغرب على حد وصفهم.

أضاء الأزهر العالم الإسلامى ومنه تخرج العديد من العلماء الذين أدوا رسالتهم العلمية والأدبية فى حلب ودمشق والنيجر والنوبة والهند.

هذا ويجلس الطلاب القرفصاء على شكل حلقات حول أحد العلماء داخل أروقة الأزهر ليدرسوا القانون والشريعة وهم ينصتون باهتمام ووقار وهيبة لأستاذهم.

أثنى ديتورميل على العادات المتبعة عند دخول المسجد فهى غريبة بالنسبة لهم فذكر: لابد أن نترك أحذيتنا عند دخول المسجد.

وقد أشار الرحالة لدور العلماء ليس فى الجامع الأزهر فحسب وإنما فى سائر المساجد المصرية، ويبدو أن بعض الرحالة شعر بالضيق لانتشار هذا العدد من المساجد، فلم يستطع أن يخفى شعوره المعادى فسجل شولشيه ملاحظاته قائلاً: «فى القاهرة عدد لا يحصى من المساجد وأن المسلمين يكرهون المسيحيين لأنهم لم ينسوا الحروب الصليبية». وأضاف «أننا لا نستطيع دخول المساجد بمفردنا ونمنع من الاقتراب منها، ونلزم بخلع أحذيتنا كدليل على الاحترام».

وجد الرحالة أن معظم المساجد فى مصر على نمط واحد قاعة كبيرة، وقبلة، ومنبر مخصص لوقوف الإمام. أما الصلاة فيتم الإعلان عنها بواسطة المؤذن، وقد وجد بعض الرحالة أن صوت أجراس الكنائس أكثر تأثيراً فى المشاعر من صوت المؤذن.

أما شامبليون عالم الآثار فقد رأى أن صوت الأذان أفضل بكثير من أجراس الكنائس، وأكد أن المساجد فى مصر تعتبر نموذجًا للأناقة والرفعة.

أبدى الرحالة إعجابهم الشديد بمسجد عمرو بن العاص باعتباره من أقدم المساجد، كما شعر بواتو بالأسى لأن مسجد بن طولون حوله إبراهيم باشا إلى مستشفى عسكرى، أما جامع السلطان حسن فقد أسهب الجميع فى تقديم وصف عن عمارته الضخمة الفخمة وعن زخارفه المتقنة وأبوابه ورسوماته، وعقدت صوفيا مقارنة بينه وبين مساجد الآستانة فرجحت كفة السلطان حسن، وانتقدت إميليا إدوارز قذارة الأزقة والشوارع الضيقة حول المسجد لأن ذلك لا يليق مع فخامته وروعة بنائه.

ووجد بيرتون أن مسجد السلطان حسن يمثل حصنًا فى تكوينه المعمارى وقلما يرى الرحالة ما هو أكثر جمالاً من الأضواء المنبعثة من الزجاج الملون فيه والتى تلقى بنورها على الأرض الرخامية عندما يحل المساء.

أشار الرحالة إلى العديد من المساجد ولا سيما مسجد المؤيد والسلطان برقوق ومسجد قلاوون، كذلك أشاروا إلى مساجد آل البيت السيدة زينب والسيدة سكينة والسيدة نفيسة وأكدت صوفيا أن هذه المساجد لها قيمة روحية كبيرة لدى المصريين.

**طبقة الملاك والتجار:**

تعتبر طبقة الملاك والتجار هى الطبقة الثانية من العنصر المصرى ولكن أفرادها قليلو العدد لأنها لا تحتوى بوجه عام إلا ذوى الثروات المتوسطة.

وقد حرص التجار المصريون على إخفاء ثرواتهم عن السلطان، وهم يتاجرون فى مختلف أنواع البضائع من ملابس وطباق وحبوب وبهارات وأسلحة.

وقد ساعد على ذلك انتعاش التجارة فى المدن المصرية ولا سيما القاهرة التى ارتبطت بعلاقات تجارية مع آسيا وأفريقيا وأوروبا والهند.

**أما طبقة العمال والصناع:** فقد انقسم أربابها إلى طوائف عديدة مختلفة تتولى بعضها إدارة شئونها فى الدائرة التى تتبعها، ولها أنظمة خاصة وعادات لا تتعداها ورؤساء ومشايخ يقبضون على زمامها ويدخل فى إدارتها طائفة الخدم وهى كثيرة العدد.

وقد مارس التجار نشاطهم فى الأسواق التى اشتهرت بها القاهرة ولا سيما سوق خان الخليلى والغورية والنحاسين.

أشارت إميليا إدواردز إلى المكانة الكبيرة التى تمتعت بها أسواق القاهرة وسجلت تجربتها عند زيارة الأسواق الخاصة بصناعة السروج، وأطلقت عليه مستعمرة صانعى السروج وقدمت وصفًا لهم وهم يخيطون ويدقون، وسجلت إعجابها بأطقم الخان ورءوس الخيل المعلقة بين واجهات الحوانيت والسروج المحدبة، منها ما يخص سروج خاصة بخيول البكوات وبكبار رجال الدولة، كما تجولت فى أسواق الأحذية والسجاد.

أكد الرحالة أن فى القاهرة يخصص شارع بأكمله لنوع واحد من التجار يعرف بسوق هذا النوع أو باسم الجوامع الواقعة فى المنطقة .

**الفلاحـون:**

أفاض الرحالة فى وصف أحوال الفلاحين ، فقد استرعت هذه الطبقة انتباههم بفقرها وبؤس معيشتها ، وقد وصفوا الفلاحين بأنهم سود البشرة من جراء تعرضهم للشمس وتعجب بيلون من أن هذه الطبقة رغم أنها أكبر طبقات المجتمع حجمًا إلا أنها أقلها امتيازاً فملابسهم رثة يعيشون فى منازل من الطوب النيئ ، غذاؤهم بسيط من الحبوب تزداد مصائبهم فى حالات الفيضان أو تشريق الأرض فيضطرون إلى الهجرة من أراضيهم والإقامة فى المناطق والتلال المرتفعة ، وأكد بيلون بأنه لا يمكن مقارنة الفلاحين بأوضاعهم المتردية بطبقة الأتراك أو المماليك فهم يتعرضون للعديد من المجاعات ، وذكر فيلامون بأنهم اضطروا لأكل فرس النهر بسبب انتشار المجاعة .

تنتشر الأمراض والأوبئة بين الفلاحين ، وإذا أراد شخص تحقير شخص آخر فإنه يطلق عليه فلاح .

لا ينعم الفلاح بثمرة جهده ، يعيش فى بؤس وفقر مدقع ، غذاؤه ردىء يصنع خبزه من الذرة ، ويعتمد على روث الماشية لإشعال النيران ، طعامه الرئيسى من الخبز والبصل ، ويسعد لو تخلل طعامه العسل والجبن واللبن الرائب ، أما اللحم فلا يتذوقه إلا فى الأعياد الكبرى .

وملابس الفلاح بسيطة تتكون من قميص من الخام الأسود وعلى رأسه قلنسوة من الكتان يلف حولها منديل من الصوف الأحمر ، ويظهر فى الحقول عارى الذراعين والساقين والصدر ، وأغلب الفلاحين لا يلبسون سراويل ، ومساكنهم من الطين . يضيق صدر المرء غرفها لأنها غير صحية تكثر بينهم أمراض الصدر .

تفرض الضرائب على الفلاحين ، وما يحصدونه من حبوب تذهب إلى موائد أسيادهم .

أفاض الكونت دانتريج فى تصوير الفظائع التى يتعرض لها الفلاحون خاصة من قبل المماليك، كما وصف المترجم ديجون فى استعلاء الفلاحين بأنهم عبيد لديهم انحطاط، لا يثورون ضد أسيادهم الذين ينظرون إليهم كحيوانات ولا يعاملون معاملة إنسانية.

ولكن كان لفولنى رأى مخالف فقد رأى أن الفلاحين لديهم قوة ويتسمون بالعناد ولا يحتاجون سوى التوجيه حتى تصبح شجاعتهم رهيبة، ودلل على ذلك بالفتن التى يثيرونها خاصة فى مديرية الشرقية، وأكد أنها تدل على نار تحت الرماد لا تنتظر إلا الانفجار.

ودعا للثورة ضد المماليك وإبادتهم وقال: «ولكن الفلاحين الحفاة لا أسلحة لهم أمام أسلحة المماليك وهم يجهلون فنون القتال، كما أن مصر السهلية المسطحة يسهل فيها تفريق الجماعات عكس البلاد الجبلية التى تكسب شعوبها نشاطًا وحيوية».

قدم الرحالة وصفًا للفلاح المصرى فهو طويل القامة قوى البنية متناسب الحجم منتظم التقاطيع تتوقد بالحياة، عيناه السوداوان الغائرتان فى محجريهما المرتفعان بعض الشىء نحو الجبين، وقد تعبران تعبيراً وحشيًا لولا الأهداب الطويلة التى تلطف من قدمهما، وهو قوى الشفتين جميل الأسنان ينتهى وجهه البيضاوى المستطيل بلحية سوداء مجعدة غير كثيفة، وفلاحو مصر العليا نحاسيو البشرة جفاة الطبع صفراويو المزاج أما فلاحو الدلتا فأنصع بشرة بكثير.

فى الوقت الذى أبدى الرحالة تعاطفهم مع الفلاح المصرى، إلا أنه بمجىء الحملة الفرنسية اختفت كل هذه الشعارات لأن الفلاحين قاوموا الحملة الفرنسية مقاومة عنيفة فتعرضوا للقتل وتعرضت النساء لهتك أعراضهن واغتصابهن، وكان القادة الفرنسيون يسمحون بذلك لرفع معنويات الجنود، ولذلك لجأت الفلاحات لتشويه بناتهن.

وقام الفرنسيون بحرق وسلب ونهب قرى بأكملها، والغريب أن دينون المرافق للحملة أبدى دهشته لتلك المقاومة، وكتب فى استعلاء واضح: على الرغم من كل ما تقوم به القوات الفرنسية إلا أن حالات الكراهية والحقد وعدم الثقة تتزايد.

رأى شولشيه أن فى مظهر الفلاحين وملامحهم تشابهًا كبيراً من صور المصريين المنحوتة على المسلات الجرانيتية الرائعة والتماثيل العظيمة، وقد كتبت هذه الملاحظة أيضًا إميليا إدواردز فذكرت بأن الفلاحين لم يتغيروا فى مظهرهم مما كانوا عليه قديمًا، فمحيا الفلاح المنقوش فى التصاوير الجدارية بالمقابر يبدو فيها نفس الأكتاف العريضة والأطراف القوية رغم نحولها والشفاة المكتنزة والبشرة السمراء، وها هو الفلاح المعاصر يرتدى نفس المئزر ويعمل بنفس الشادوف ونفس المحراث.

نشعر فى كتابات شولشيه بالحزن والأسى على أحوال الفلاحين، وقد عبر عن ذلك بقوله: «لا أحد يصدق أن أحفاد الفراعنة الذين نحتوا المسلات الجرانيتية الرائعة والتماثيل العظيمة بمهارة وعلم وفن وقدموا للعالم آثاراً عظيمة أضاءت الحضارة يعيشون الآن فى جهل ويغلب على طباعهم البربرية، لا شىء يضارع بؤس وشقاء القرى المصرية حتى العبيد فى مستعمرات فرنسا أكثر تقدمًا فى مساكنهم عن الفلاحين».

انتقد الرحالة اتهام محمد على وأسرته للفلاح بالغباء والجهل وقارن بين ادعاءاته بما يتردد فى أوروبا من ادعاءات عن الزنوج بأنهم حيوانات متوحشة، وبما يصف به الإنجليز الشعب الأيرلندى بأنه عاجز لا يستحق التمتع بحريته، وبادعاءات الإسبان بأن الكاريبيين ليسوا رجالاً، وطلب شولشيه بمحاربة كل هذه الادعاءات لأن التعليم يبرز ذكاء الإنسان وقد أبرز التجنيد شجاعة الفلاحين.

انتقد الرحالة السخرة ومعاناة الفلاح المصرى ولا سيما أثناء القيام بالأعمال العمرانية مثل حفر قناة المحمودية وإقامة الجسور، فكان يتم تجميع الفلاحين من قراهم بالآلاف، ولا يوجد فى مصر، منظر أكثر بؤسًا من رؤية الرجال يجمعون الطين بأيديهم ويمكثون اليوم بأكمله فى الماء بينما يقوم الحراس بضربهم بالسياط.

أطلق الفلاحون على محمد على لقب ظالم باشا بسبب ما نالهم من تعذيب على أيدى مأموريه من كى بالنار وتمزيق آذانهم وضربهم بالسياط.

ذكر شامبليون أنه أثناء رحلته فى مصر: كان الفلاحون الفقراء شبه العرايا يفرون لمرآنا مثل قطيع من الغزلان لاعتقادهم بأننا من جباة الضرائب، وتأثر شامبليون من بؤس ومعاناة الفلاح فكتب: أن محمد على كان يعلم بأن أسلافه الأقدمين كانوا

يصورون مصر على هيئة بقرة، ولذلك فهو لا يتورع عن حلبها وإنهاكها ليلاً ونهاراً.

فر الفلاحون إلى سوريا بسبب الضرائب المفروضة عليهم والعقوبات الصارمة حتى أصبحت قرى بأكملها مهجورة، وشاهد فلوبير أسرا مصرية تسكن فى سراديب المقابر ومعها أطفالها العراة.

يعانى الفلاح من انتشار الأمراض والأوبئة وخاصة الطاعون كما يعانى أولادهم من سوء التغذية، وقد وجد الرحالة أن الفلاحين فى مصر تشبه أوضاعهم إخوانهم فى الهند والمكسيك والكاريبى.

تأثر الرحالة بمآسى الفلاحين فوضع إدمون أبو روايته الشهيرة أحمد الفلاح وهى تعتبر دراسة وافية عن عادات المصريين، وقد ألقى فيها الضوء على أحوال الفلاحين على لسان بطل قصته أحمد الذى ردد: «والدى ليس سيداً وإنما يعمل فى الحقول، منزله على الأرض لا توجد به نوافذ والقش يكسوه، وثروته الحقيقية تتكون من نخلتين وجملين».

وجه بورنج الانتقاد للفلاح المصرى لعجزه وقلة حيلته أمام الأتراك، فهو يردد «ما نحن إلا فلاحون».

وكان بيرتون من القلائل الذى وجد تشابها بين الفلاحين فى مصر وبريطانيا ولا سيما فى حرصهم على اتباع طرق العلاج البدائية لأمراض الحمى باستخدام الكى، فسجل أنهم «مثل فلاحينا فى أوروبا يحبون العلاج القاسى».

**القبائل:**

يسكن البدو الجبال والصحراء لا توجد لديهم زراعة ولا منازل، شبههم تيفيه بالتتار يعيشون فى خيام وحياتهم قاسية «لا ينتمون لبشر» متوحشون، وتعجب أنه على الرغم من تبعيتهم للأتراك إلا أنهم لا يخشونهم فإذا وقع تركى فى أيديهم سارعوا بذبحه، بينما إذ ألقوا القبض على مسيحى أو أرمنى أو يونانى فإنهم يكتفون بسلب أمواله ثم يجردونه من ملابسه، وأكد أنهم رغم

كراهتهم للأتراك إلا أنهم يدفعون لهم الضرائب عن كل ما يملكونه من جمال وماعز.

وقد ذكر بالرن أن البدو لا يذهبون إلى المساجد ولا يحرصون على أداء الصلاة مثل المصريين والأتراك ولا يهتمون سوى برعى ماشيتهم، وهم يتنقلون من مكان لآخر بحثًا عن الماء وكل ما يملكون من متاع يضعونه على ظهر الإبل.

وصف الأب كوبان البدو بأنهم مشردون وقارن بينهم وبين بدو الشام، فأكد أن بدو مصر أسوأ حالاً لأن بدو سوريا يتاجرون مع التجار ويبيعون الصابون والأعشاب حتى أنهم يصدرونها إلى طولون ومارسيليا بينما بدو مصر لا يتاجرون فى شىء.

انفرد سافارى عن غيره من الرحالة بتقديم صورة مشرفة للبدو، فكتب أنهم يعشقون الحرية يعيشون أحراراً فى الصحراء ويعتقدون أن سهول مصر سوف تحولهم إلى عبيد، وكثيراً ما أعطتهم الحكومة أرضًا ولكنهم كانوا يرفضون الإقامة فيها وهم لا يعرفون الكتابة، عجز العثمانيون عن إخضاعهم يحتقرون العلوم لديهم كبرياء لا يخضعون لأحد، وهم أفضل شعوب العالم لا يعرفون الكذب ولا النفاق، معتدون بأنفسهم كرماء خيامهم مفتوحة دائمًا لاستقبال ضيوفهم فإذا نزل عندهم مسافر فإنهم يكرمونه ويذبحون له الخراف، وهم يتسمون بالجرأة لا يلجأون إلى الدسائس للانتقام من خصومهم، يعرفون المساواة فهم يتحدثون إلى مشايخهم دون خوف، وهم لا يميلون إلى الأتراك وهم شهداء الحرية يعشقون حريتهم.

قارن أوليفيه بين البدو والفلاحين فرجحت كفة الفلاحين لأنهم أكثر رقة من البدو الذين وصفهم باللصوص المتشردين.

قدم لنا الرحالة صورة مشرقة لبعض زعماء القبائل لعل أبرزهم الشيخ همام الذى اتفقت آراء الرحالة حوله، فقد وصف بالأدب الجم، سيطر على مصر العليا وامتد نفوذه من أسيوط إلى أسوان، وصفه نوردن بالكرم وأنه من خيرة العرب بينما وصفه بروس بالقوة والشجاعة والحكمة.

حرم همام على سكان فرشوط شرب الخمر والدخان وقد بلغ درجة كبيرة من النفوذ والسلطان، حتى أن بكوات القاهرة شعروا بالغيرة منه فأرسل على بك قوة للقضاء عليه.

لعب العربان دوراً هامًا فى مقاومة الحملة الفرنسية، وقد كتب جومار فى استعلاء واضح بأنهم يكنون الاحتقار لكل ما هو أوروبى.

سجل الرحالة محاولات محمد على لإخضاع القبائل فى القرن التاسع عشر وإجبارهم على التوطن، كما كلفهم بحراسة الطرق والقوافل التجارية.

سجل الرحالة أسماء أشهر القبائل فى مصر ولا سيما الهوارة والعبابدة والهنادى والهدندوة فى الوجه القبلى، والمعازة فى مصر الوسطى، والطرابين وأولاد على والقطاوية فى الوجه البحرى، كما سجلوا ملاحظاتهم على العبابدة ووجدوا بأنهم يشبهون الزنوج ولكن قسماتهم أدق وأرق، وهم يعيشون بأعداد كبيرة بين الأقصر وأسوان وجنوبى القصير حتى الدر.

وأكد مونتوليه أن العبابدة هم السلالة الحقيقية للمصريين القدماء وليس الأقباط. ثم وصفهم بأنهم أكثر القبائل نبلاً وكرمًا، أما ريفو فكان له رأى مخالف عنهم فهم فى نظره ليسوا سوى لصوص لهم شهرة فى السلب والنهب.

هذا وقد قدم بوركهارد وصفًا للبشارية فوصفهم بأنهم لصوص عريقون لايتورعون عن سرقة مضيفهم، وتمتد أوطانهم بين النيل والبحر الأحمر. ويعيشون فى الجبال وقلما ينزلون منها وهم أبعد ما يكون عن العمران، طعامهم الوحيد اللحم واللبن، يبيعون ريش النعام والسنا ويبادلون منتجاتهم فى أسوان بالمنسوجات المصنوعة من الكتان والذرة.

وتجدر الإشارة أن لينان دى بلفون عاش فترة بين البشارية وقدم وصفًا عنهم وعن مساكنهم وخيامهم.

ومن القبائل التى سكنت منطقة البحر الأحمر البجة، وقد قدم لينان دى بلفون وصفًا عنهم.

كما يقطن الجالا سواحل البحر الأحمر وتمتد أوطانهم جنوبًا حتى السودان.

أما الدناكل فأوطانهم فقيرة، وقد قدم أوبير روش عدة أبحاث عنهم.

أثارت قبائل أولاد على الإعجاب وهم يعيشون فى غرب مصر فى الصحراء الليبية ولديهم أجمل الخيول.

وقد أفاض علماء وقادة الحملة الفرنسية فى الحديث عنهم نظراً للدور الذى لعبوه فى مقاومة القوات الفرنسية ووصفوهم بالشجاعة ولديهم أجمل الخيول .

وقد شاهد كادلفين وفداً من أولاد على يقدمون الهدايا لمحمد على وكان من بينها غزال أبيض ونعامة صغيرة ، وأثناء زيارتهم له ظلوا يقبلون الأرض وأطراف ثوبه حتى أجبرهم الجنود على الخروج من الديوان .

**النوبيـون:**

لفت النوبيـون الانتبـاه وأثاروا الإعـجـاب فـسـجل علمـاء الحـملة الفـرنسـية ملاحظاتهم عنهم ولا سيما العالم الفرنسى كوستاز الذى كتب : «إنهم يعيشون بين فيلة وأسوان ، وهم لطيفوا المعشر يعيشون فى حالة سلم بقدر ما يستطيعون مع جيرانهم العربان ، وعندما يشن هؤلاء عليهم هجوماً فإنهم يلجأون إلى الصخور وهناك يتخذون وضع الدفاع . وقد اشتهر النوبيون بالأمانة والاستقامة ويكاد يعهد إليهم بحراسة كل البيوت والأسواق .

هذا وقد شاهد كايو أثناء رحلته إلى السودان مع قوات محمد على مجموعات النوبيين المختلفة التى تعيش ملاصقة للنهر فسجل إعجابه بها . كما قدم كادلفين وصفاً عنهم فسجل : «تمتـد أوطانهم من أسـوان شمـالاً حـتى الشـلال الثانى حـتى كـورتى ويتـركزون فى دنقلة فى السـودان ، ويتـصـفون بالجلد والإخلاص ودمـاثة الأخـلاق والهدوء ، والأمانة ، ملامحهم دقيقة بعيدة عن ملامح الزنوج ، طباعهم مهذبة بعيدين عن التوحش ، وبذلك هم يختلفون عن العرب والزنوج ويعمل الكثيـرون منهم فى مصر ويدخرون الأموال ثم يعودون بها إلى بلادهم لمساعدة أهاليهم .

يتحدث النوبيون اللغة النوبية وهى عدة لهجات ، فمنها : المحسى والسكوتى والكنزى ، وينقسم النوبيون إلى عدة مجموعات منهم : الكنوز الذين تمتد أوطانهم من أسـوان إلى كـرسكو والفـديجـة ويقطنون بين وادى حلفـا وكـرسكو ثم باقى المجموعات فى السودان .

يرتدى النوبيون مـلابس من الدمور الذى يتـخـذون منه سـراويل طويلة وفوقـه

قميص أزرق أو أحمر ويسيرون حفاة رءوسهم عارية، بينما يظل الأطفال حتى سن الخامسة عراة، وترتدى الفتيات الرهط وهو حزام من الجلد يلف حول خصرها تتدلى منه قطع من الجلد حتى الركبتين، أما النساء فيرتدين القرباب وهى أشبه بفوط الحمام وفوقها قميص ثم ثوب من الدمور.

وتضفر المرأة شعرها على هيئة ضفائر دقيقة جداً، ويخشى النوبيون «العين الحاسدة الشريرة»، ولذلك يصنعون الأحجبة لدفعها عنهم ويحرصون على تعليقها.

سجل إدوارد لين إعجابه بالنوبيين فوصفهم بأنهم أكثر السلالات شبهًا بالمصريين القدماء، واتفق مع ما أورده الفرنسيون بأنهم يتسمون بالأمانة والاستقامة واللطف ويحبون العيش فى سلام.

كما التقت إميليا إدواردز بالعديد من النوبيين أثناء رحلتها فى مصر فأثنت على براعتهم فى الملاحة النيلية ووجدت أن الصبية مازالوا يتحلون بخصلة جانبية من الشعر على نسق المصريين القدماء، كما تلف الصبايا خصورهن بزنار يشبه من وجهة نظرها ما كانت تتمنطق به أميرات تحتمس الأول فى التصاوير الجدارية، كما أن الشيخ لا يسير إلا قابضًا على عصاه على غرار تمثال شيخ البلد للمصريين القدماء.

أما بوركهارد فقد قدم وصفًا تفصيليًا عن النوبيين وأهم الأقاليم التى يتركزون فيها، وأكد أن معيشتهم متشابهة سواء فى مصر أو فى السودان، وذكر أن النوبيين يميلون لتدخين التبغ وزراعته منتشرة فى أرجاء النوبة ويشبه تمامًا تبغ الجبال الواقعة إلى الشرق من البحر الميت، وهو أهم ترف يستمتع به الناس وهم إما يدخنونه أو يستحلبونه مخلوطًا بالنطرون.

كما قدم وصفًا لبيوت النوبيين التى تبنى من اللبن أو من الحجارة وتبنى الأخيرة على سفوح التلال، وهى تتألف من بنائين مستديرين منفصلين أحدهما للرجال والآخر للحريم، وبيوت اللبن منخفضة حتى ليشق على المرء أن يقف فيها بقامته منتصبة. وبيوت الأثرياء من سكان القرى الكبيرة حسنة البناء لها حوش كبير فى وسطها تحيط به الحجرات من حوله وبين حجرات الرجال والحريم فاصل.

يحرص النوبيون على شراء السلاح، فما أن يشب الغلام عن الطوق حتى يغدو

همه الأول شراء مدية معقوفة صغيرة يلبسها الرجال مشدودة إلى المرفق الأيسر تحت ثيابهم ويستلونها فى أتفه المشاجرات.

كما يحمل النوبى نبوته المكسو طرفه بالحديد أو رمحه ودرقته ومنها المستدير ذو السرة فى وسطه ومنها ما يشبه الدروع المقدونية القديمة، كما يقتنى القادرون السيوف أما الأسلحة النارية فنادرة، وقد نبه بوركهارد السائحين بضرورة حمل الرصاص معهم ليقدمونه للنوبيين كهدايا عند زيارة أراضيهم.

ومناخ النوبة صحى رغم حرارة الجو فى الصيف ولا سيما فى المناطق الصخرية وهو يتسم بالجفاف، وتندر الأمراض فى المنطقة ولا يعرف السكان التطعيم، ولذلك أحيانًا تفتك بهم الأوبئة ولا سيما الجدرى.

تتسم نساء النوبة بالأدب الجم وقد ذكر بوركهارد بأنهن أكثر أدبًا من المصريات. ويبتاع النوبيون نساءهم من والديهن. ويدفع الكنزى عادة اثنى عشر محبوبًا ثمنًا لعروسة، وكثيرًا ما يتزاوجون مع عرب العبابدة ومهر الفتاة من العبابدة ستة جمال تعطى لأبيها فيرد منها ثلاثة لابنته تكون ملكها لها ولزوجها فإذا طلقت أخذ الزوج نصف ثمنها، وإذا صرت امرأة على أن تطلق زوجها كان له أن يستولى على جهازها وأن يحلق رأسها فلا يتزوجها غيره حتى يطول شعرها، والنوبى شديد الغيرة على عرض امرأته فإذا خامرته أدنى ريبة فى وفائها فإنه يحملها ليلاً إلى النهر ويغمد خنجره فى صدرها ثم يقذف بها فى النيل طعامًا للتماسيح، وقد أكد بوركهارد أنه شاهد فى أسوان حادثة مماثلة.

والبغاء غير مباح فى النوبة ويستهجن النوبيون تلك الرذائل التى نشرها المماليك فى مصر وأذاعوها بين الفلاحين.

وللنوبيين غرام بالغناء وألحانهم عذبة وشجية.

**أهل الذمة:**

**الأقباط:** استطاع الرحالة تمييز الأقباط فى مصر بملابسهم الزرقاء، ولكن كان ذلك فى فترة مبكرة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

يعمل الأقباط فى الوظائف المالية والإدارية مذهبهم أرثوذكسى نادراً ما يقترفون الجرائم لأنهم يخشون العقوبات، هكذا قدم تيفيه وصفًا عن الأقباط فى القرن السادس عشر ويلاحظ تحامله عليهم فقد عزا أمانتهم إلى خوفهم من العقاب وليس إلى وازع دينى وأخلاقى وهو ما نلمسه فى كتابات الأوروبيين ولا سيما الفرنسيين حتى عهد محمد على.

أبدى الرحالة عدم إعجابهم بكنائس الأقباط فهى مهملة ومن وجهة نظرهم تفتقر إلى النظافة، ورجال الدين لا يعتنون بأنفسهم وأدواتهم من الخشب حتى لا تنكسر.

يعيش الأقباط وينتشرون على طول وادى النيل ولكن معظمهم يقطن الصعيد حيث تتألف منهم قرى بأكملها، وهم ينحدرون من سلالة الفراعنة ولكنهم اختلطوا بالفرس والإغريق والرومان.

قدم فولنى وصفًا غريبًا للأقباط فذكر أن وجوههم صفراوية دخانية اللون ولهم وجه منتفخ وأنف أفطس وشفة ضخمة، ومجمل القول وجه خلاسى وقد امتزجوا بالإغريق ففقد لونهم حلكته الأولى.

هذا الوصف لا يتفق مع ما ذكره الرحالة فى القرن التاسع عشر، فقد عجز الكثير منهم عن التفرقة بينهم وبين المسلمين.

وصف معظم الرحالة الأقباط خاصة رجال الدين منهم بالجهل الشديد وانتقدوا تمسكهم بالمذهب الأرثوذكسى وتقديسهم المبالغ فيه لرؤسائهم الدينيين خاصة القساوسة.

ويلاحظ فى هذا الوصف نزعة استعلائية لازمت معظم الرحالة الذين حرصوا على زيارة الأديرة القبطية ولا سيما فى الصحراء الغربية فتجولوا فى وادى النطرون، وزار الأب كوبان أديرة أبى مقار والأنبا بيشوى والقديس جرجس والسريان ولم يجد هو وغيره من الرحالة تعاونًا من رهبان هذه الأديرة الذين رفضوا امدادهم بالمخطوطات ولذلك واصلوا انتقادهم له.

ولعل الأب سيكار كان من أشد المهاجمين للأقباط فكتب بأنه وجد صعوبة فى

التعامل معهم لتمسكهم بالمذهب الأرثوذكسى ووصفهم بالتعصب وسجل فى استعلاء: «التعامل مع الأقباط أمر ليس هينًا فهم متعصبون لذلك لابد لنا من التعرف على عاداتهم وتقاليدهم حتى نستطيع أن نهزمهم ونصحح أخطاءهم». ولذلك قام سيكار بزيارة الأسر القبطية فى المدن وزار المرضى فى محاولة لكسب ثقتهم ولكنه فشل فى مهمته أى فشل فى تحويل الأقباط إلى المذهب الكاثوليكى فكتب: «حاولت دون جدوى ولكنهم لا يريدون التحول عن عقيدتهم».

«حاولت اطلاعهم على قواعد مذهبنا فرفضوا بشدة ولم يقتنعوا وقد رفض أقباط دمنهور ودمياط المذهب الكاثوليكى، وعلل ذلك لأن الأقباط بصفة عامة ينقصهم التعليم وهم فى حاجة إلى إرشادنا» ولم يعلل ذلك لتمسك الأقباط بهويتهم.

فشلت مهمة سيكار فى مصر العليا لأن هذه المناطق تشتهر بالتعصب على حد وصفه وإن كان قد لاقى نجاحًا طفيفًا فى جرجا، فقد أكد أن أقباط جرجا كتبوا له عدة رسائل تضمنت اعترافًا منهم بفضله فى تبصيرهم بأمور دينهم.

وقد أعقبت بعثة سيكار عدة بعثات دينية أخرى تجولت فى مدن الصعيد فى قوص وأخميم ومنفلوط وملوى ولكنها لم تحقق إلا نتائج محدودة.

وفى غرور سجل سونينى متعجبًا من تمسك الأقباط بمذهبهم فكتب: «إن اسم فرنسا الذى يحترم فى أوروبا كلها والشرق وفى الدولة العثمانية محتقر من قبل أهالى الصعيد، فالأقباط الأرثوذكس يمقتون البعثات الدينية ويطلقون على أعضائها الكلاب ومن الصعب تحويلهم إلى المذهب الكاثوليكى، وأكد أنه لا يوجد رحالة ولا عضو بعثة دينية إلا وشكا من تعصب الأقباط».

أسهب الرحالة فى وصف عادات الأقباط الخاطئة من وجهة نظرهم لمخالفتها لمذهبهم الكاثوليكى.

فأوضح سيكار بأنهم يعمدون الأطفال بعد مضى أربعين يومًا وليس فور ولادتهم وأن التعميد يتم فى المنازل، وإذا أصاب المرض أحد الأطفال ولم يشف فإنهم يتركونه يبكى لمدة ثلاثة أيام على أسطح المنازل.

وانتقد فورمون تأثر الأقباط بالمسلمين فى طريقة ذبح الحيوانات، كذلك انتقد القنصل ميليه تقديس الأقباط لرجال دينهم كذلك عدم سماحهم للأوروبيين بالاطلاع على كتبهم فسجل: «أنهم لا يحبون العلم ولا يحبون التغير حتى كتبهم وآدابهم محفوظة لا تنشر».

وللأقباط فى القاهرة أحياء خاصة بهم وقد قدرت أعدادهم فى القرن الثامن عشر بعشرة آلاف حسب ما ورد فى أرشيف مارسيليا ومراسلات القناصل، وذكرت التقارير بأنهم يعملون فى صناعة المصوغات وتتركز محلاتهم فى خان الخليلى والحمزاوى والجمالية كذلك يعملون فى صناعة الحرير.

وعندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر حاولت الاستعانة بالأقباط وتجنيدهم وتكوين فرق عسكرية منهم، ولعل أشهر الشخصيات التى تعاونت معها المعلم يعقوب الذى كان يطلع الفرنسيين على الخبايا ويصنع لهم الحيل، كما ذكر الجبرتى «وقد استعان الفرنسيون بعدد كبير من أقباط الصعيد ليسدوا العجز فى صفوفهم ودربوهم على حَمل السلاح فجمعوا نحو ألفين من شباب الأقباط وجندوهم فى الجيش الفرنسى».

وعهد كليبر إلى المعلم يعقوب حنا بقيادة الفرق العسكرية التى كونها من الأقباط ومنحه مينو رتبة جنرال ولكن غالبية الأقباط اشتركوا مع المسلمين فى صد الحملة، بينما ساند رجال الدين والبابا ثوار القاهرة بل وأمدوهم بالمؤنة وما يحتاجون إليه.

خفت حدة الانتقادات الموجهة ضد الأقباط فى القرن التاسع عشر ولكنها لم تختف تمامًا فانتقدهم ريفو لأن معظمهم لا يعرف القراءة ولا الكتابة فهم لا يملكون النور ولا المعرفة والسبب فى ذلك مذهبهم الأرثوذكسى.

وللأقباط لغة خاصة ولكن لم يعد لها وجود مثل اللاتينية التى انقرضت فى أوروبا ولكن مازال رجال الدين المسيحى يعرفون هذه اللغة خاصة فى الصعيد.

احتكر الأقباط بعض الحرف مثل صناعة الحرير، كما وصفوا بأنهم ملوك صناعة الزيوت والشموع والسمك المملح وتقطير الورد فى الفيوم والمنزلة.

دافع شولشيه عن الأقباط فى القرن التاسع عشر فكتب: ينبغى علينا ألا نلوم

الأقباط فالبعثات الكاثوليكية فى الغرب امتلكت الزنوج والعبيد عبر البحار وتاجرت فيهم أى أنها سيئة السمعة لا يوثق بها .

أشادت إميليا إدواردز بروح التسامح الدينى التى تسود بين الأقباط والمسلمين ومشاركة الطرفين فى الاحتفالات الدينية والقومية مما ينفى على الأقباط صفة التعصب . وأكد بورنج فى تقريره بأن هناك تعاطفًا كبيراً بين المسلمين والأقباط وقد تمتعوا بمنزلة كبيرة فى عهد محمد على .

اهتم إدوارد لين بتعريف الدرجات الكهنوتية فى الكنيسة ، وأكد بورنج أن البطريرك له سلطة تشبه السلطة القضائية .

قدم الرحالة وصفًا عن الكنائس ، المصرية واهتم لين بتسجيل ملاحظاته عنها فهى تقسم إلى أربع أو خمس حجرات ، ويحتل الهيكل الذى يضم المذبح القسم الرئيسى من الحجرة عند الطرف العلوى ، وهو محجوب عن باقى الكنيسة بقطاع أو بجدار من ألواح خشبية يتوسطه باب يشكل مدخل الهيكل ، وقد أسدلت ستارة حاجبة عليها صليب كبير . هذا وتزين صور القديسين الكنائس ، ومن وجهة نظر لين أن الذوق العام فى الكنائس سقيم .

ويجرى القداس باللغة القبطية ويقوم الكاهن بقراءة التفسيرات والمواعظ وتلاوتها بالعربية .

**اليهـود:**

اعتنق العديد من اليهود الإسلام وقد علل تيفيه ذلك بالرغبة فى الحصول على مكاسب تجارية وحرية أكثر فى الحركة ولكنهم سرعان ما يرتدون إلى دينهم .

ألقى تيفيه اللوم على اليهود لأنهم لعبوا دوراً فى تسليم القسطنطينية للأتراك العثمانيين فقد تظاهروا باعتناق المسيحية وخانوا الإمبراطور ، كذلك أكد أن الخيانة من صفاتهم فهم المسئولون عن استيلاء العثمانيين على كثير من مناطق أوروبا ولا سيما رودس ونابولى وبلجراد وبودابست .

واليهود متواجدون فى جميع المدن المصرية كالإسكندرية ودمياط ورشيد، وقد أكد الرحالة بأنه لا تخلو مدينة منهم.

ويتمركز اليهود فى خان الخليلى، فلهم منازلهم الخاصة ومتاجرهم فى حارة اليهود قرب الموسكى.

وصف الرحالة اليهود بأنهم لا يتكلمون إلا كلامًا فارغًا ويقصون مئات القصص من التلمود وكلها تتسم بالسذاجة، وهم يستخدمون أحيانًا اللغة العبرية فى الكتابة ولهم احتفالاتهم الخاصة بهم وهم يتحدثون بصوت منخفض وعلى عكس المسلمين يهمسون. وعلل ميليه ذلك لخوفهم من سكان البلاد وأضاف نجد اليهودى يسير منحنى الرأس وبخطوات سريعة. وهو يتصف بصفات البخل والغش.

اهتم الرحالة بإلقاء الضوء على حاخام اليهود وأكدوا أنه يحفظ قوانينهم ولليهود حرية ممارسة شعائرهم الدينية فى معابدهم.

يعمل اليهود فى صناعة الذهب والفضة ولديهم مصانع للمنسوجات الخفيفة ويصنعون منسوجات من القطن الواردة من البنغال ومن الحرير الوارد من سورية.

وفى عام ١٧٢٧ افتتح اليهود شركة للتجارة مع المسيحيين القادمين من أوروبا ولكن محاولاتهم فشلت، وقد تمتع اليهود بالثراء فى القرن الثامن عشر وبرزت أسماء العديد من الشخصيات لعل أشهرها إبراهيم سرانو وكان من أغنى تجار القاهرة كما ذكر نيبور.

عمل اليهود فى تجارة العملة وتركزت أعمالهم فى خان الحمزاوى، كذلك عملوا فى دار سك العملة، وقد قدر ديجون أعدادهم فى القاهرة عام ١٧٧٨ بحوالى ألفين يعمل معظمهم بالتجارة.

تركز عمل اليهود فى الجمارك وقد قدمت العديد من الشكاوى ضدهم خاصة من قبل التجار الفرنسيين، وقد أورد الرحالة قضية اليهودى زافير الذى كان مسئولاً عن جمرك الإسكندرية وفرض الغرامات على التجار الفرنسيين فطالبوا الباشا بمعاقبته، واستدعى من الديوان ووجهت إليه عدة اتهامات ثم قدمت ضده الشكاوى فى إستانبول فتم استدعاؤه للمحاكمة.

قضى على بك على نفوذ اليهود فى الجمارك ففى عام ١٧٦٩ أوقف المشرف على جمرك بولاق وشنقه وصادر أمواله وحل الشوام وأحل محلهم فى إدارة الجمارك فاختفت أسماؤهم من سجلاتها.

استمر الرحالة فى انتقادهم لليهود حتى القرن التاسع عشر فما زلنا نلمس فى مؤلفاتهم صفات القذارة والتظاهر بالفقر وارتداد الثياب الرثة البالية حتى لا يلفتوا الأنظار، كما أن أعدادهم فى مصر فى القرن التاسع عشر لم يطرأ عليها التغيير فقدرت ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف.

أما عن الحرف والمهن التى عملوا بها فلم تختلف كثيراً عن القرن الثامن عشر فقد استمروا فى العمل فى تجارة العملة وفى تجارة الأحجار الكريمة المستوردة من تركيا وآسيا الصغرى والهند.

قدم إدوارد وليم لين وصفًا لليهود لا يختلف عما قدمه غيره من قبل، فذكر بأن يهود الشرق يختلفون فى الملامح عن يهود أوروبا وهم يتميزون ببياض البشرة وصبغة الشعر وصفاء عيونهم الزرقاء أو الرمادية، ويشكو يهود مصر من أمراض العيون وانتفاخ البشرة بسبب الإفراط فى استعمال زيت السمسم فى الطعام.

ويدفع اليهود الجزية مثل الأقباط ويعفون من الخدمة العسكرية ويحمل اليهود للإسلام والمسلمين بغضًا متأصلاً أكثر من أى شعب آخر ولكنهم يعيشون فى مصر عيشة هادئة.

وقد تأثروا بتقاليد المسلمين ولذلك تنتقب اليهوديات ويلبسن ملابس المصريات فى الطريق العام على حد وصف لين.

**الرقيق:**

قدرت أعداد الرقيق فى القرن السادس عشر بألف عبد معظمهم من المسيحيين، والرق غير قاصر على الأتراك فهو موجود فى البلاد المسيحية خاصة فى البرتغال.

ينبغى ألا نغفل أن فترة القرن السادس عشر مثلت ذروة عملية على نقل العبيد من أفريقيا إلى أوروبا إلى العالم الجديد.

شاهد الرحالة الأوروبيون العديد من الرقيق الأفريقى فى سوق خان الخليلى وقد تم أسرهم من حدود أراضى القس جون أى الحبشة .

دأب التجار على تنظيف الرقيق قبل عرضهم فى الأسواق ، وعادة كان يترك الرجال عرايا بينما يسمح للنساء بارتداء الملابس ومن حق المشترى أن يطلب منهن الرقص والغناء والكشف عن أسنانهن ، وقد استخدم المصريون الرقيق للعمل فى المنازل وعاملوهم معاملة طيبة .

أفاض الرحالة فى وصف أحوال الرقيق فى مصر . خاصة المجلوب من أفريقيا سواء من الحبشة أو سنار أو من كردفان ، فالقوافل تأتى إلى مصر محملة بالعبيد حيث تجمع فى أسيوط ثم يعرض الرقيق فى الأسواق فى مكان واسع ولكل منهم سيد يتبعه ، ويتم فحص العبيد والكشف عن أسنانهن ، وعيونهم ولسانهم وآذانهم للتأكد من خلوهم من الأمراض .

تجدر الإشارة أن القوافل الواردة من الحبشة والسودان لم تتوقف أثناء الحملة الفرنسية على مصر رغم الاضطرابات التى عانى منها الصعيد ، وازدهرت تجارة الرقيق فى عهد مينو الذى حرص على مراسلة حكام الحبشة وسلاطين سنار ودارفور لتكوين قوات من الرقيق وتدريبهم على حمل السلاح .

أشار الرحالة للعبيد من الخصيان الموكول إليهم حراسة الحريم ومراقبته ، والخصيان هم الرجال الوحيدون الذين يجوز لهم غشيان حجرات النساء ، باعتبار أنهم الحراس الذين أقامهم الأزواج على عفة أزواجهن ، وهم حريصون على كسب ثقة الأزواج والزوجات وإدخال الغش عليهما كما ذكر كلوت بك .

والحقيقة أن مهمة الخصيان كانت حراسة الحريم واستخدامهم يرجع إلى الأزمان القديمة . وأكد كلوت بك أن الملكة سمير اميس هى التى ابتكرت خصى الرجال واقتدى بها ملوك آسيا واحتفظ اليونانيون فى القسطنطينية بعادة اتخاذ الخصيان .

ومع أن الشريعة الإسلامية تحرم الخصى إلا أن المسلمين استمروا فى اتباع هذه العادة السيئة .

وعملية إخصاء الرقيق تتم فى أسيوط وجرجا يقوم بها رجال الدين المسيحى ، وقد وصفهم كلوت بك قائلاً : «إن هؤلاء الناس أصبحوا عاراً على الدين وخزيًا

ووصمة مزرية بالإنسانية لما يترتب على الصناعة التى يباشرونها بغير رحمة ولا حياء وهى الجريمة ضد الإنسانية».

وتتم عملية إخصاء الرقيق فى زاوية الدير القريبة من أسيوط وقد أطلق عليها كلوت بك عاصمة السفاحين، حيث يتم فيها إخصاء ما يزيد على ثلاثمائة عبد، ويتم اختيار الضحايا بين صغار العبيد الذين تختلف أعمارهم من ست سنوات إلى تسع سنوات أتت بهم قوافل الجلابة من سنار ودارفور.

وتتم عملية الجلب فى فصل الخريف باعتبار أنه من أوفق فصول السنة لنجاحها ولا يكتفى الرهبان ببتر أعضاء التذكير وإنما يصبون الزيت المغلى على مكان الجرح مع مسحوق الحناء، ثم يدفنون الفتى المعذب فى الأرض إلى ما فوق البطن بعد أن يتركوه أربعًا وعشرين ساعة ويستخرجونه من التراب ويدهنون مكان الجرح بعجينة من الطين والزيت.

وكثير من الغلمان يفقدون حياتهم بعد هذه العملية، ومن يبقوا على قيد الحياة يعرفوا بمظهرهم الخارجى، فإن الخصى يكون أمرد سليب اللحية والشاربين وبجسمه ميل إلى السمنة وفى صوته خنوثة، كما يغلب عليه سرعة الغضب والبعض منهم يغلب عليه مظاهر الصلاح والتقوى تعويضًا عما أصابه من النقص فى جثمانه، ومن الخصيان فريق يحبون الاجتماع بالنساء والسكون إليهن، بل إن فيهم من يتزوجون بهن.

انتقد كلوت بك الحكومات الأوروبية التى تتوانى عن التدخل فى شئون الدولة العثمانية، ومن وجهة نظره كان من الأجدر أن تتدخل لمنع الجلب واتخاذ الخصيان وعلق قائلاً «وأتمنى صونًا لكرامة أوروبا وشرفها ووقاية لمجدها أن تفكر حكوماتها فى الحصول على هذا الإلغاء من سلطان تركيا ووالى مصر لكى ترحم الإنسانية المعذبة».

اهتم الرحالة بإلقاء الضوء على غزوات صيد الرقيق فى السودان وقد اعتبروها من أهم موارد محمد على، ولا سيما وأن جنوده كانوا يتقاضون رواتبهم عبيدًا ولذلك أظهروا نشاطًا كبيراً فى قنص الرقيق لاستيفاء رواتبهم.

وكانت عملية القنص تتم فى جبال النوبا جنوب كردفان فى غرب السودان

كذلك فى وادى مدنى وفى سنار، وكان لقوافل العبيد خط سير معروف يبدأ من كردفان إلى الخرطوم، وخلال رحلة الأسر يموت العديد منهم لقلة الماء والطعام وأحيانًا تسير القوافل براً وأحيانًا نهراً.

هذا ويتم اختطاف الرقيق الأحباش ويسلموا إلى الجلابين النوبيين.

ألقى الرحالة الضوء على أسعار الرقيق سواء داخل أفريقيا أو فى أسيوط.

| النوع | داخل أفريقيا | أسيوط |
| --- | --- | --- |
| الأطفال (الثلاثى) | ٨٠ – ١٠٠ | ١٥٠ – ٤٠٠ قرش |
| الرباعى | ١٠٠ – ١٦٠ | ٣٠٠ – ٤٠٠ قرش |
| الخماسى | ١٨٠ – ٢٠٠ | ٥٠٠ – ٦٠٠ قرش |
| السداسى | ٢٥٠ – ٤٠٠ | ٧٠٠ – ٨٠٠ قرش |

يلاحظ أن الغلمان فى سن الخامسة عشرة أكثر الفئات ارتفاعًا فى السعر سواء داخل أفريقيا أو فى أسيوط.

كما ترتفع أسعار الفتيات من ٥٠٠ إلى ٧٠٠ قرش داخل أفريقيا ثم يرتفع السعر فى أسيوط من ٩٠٠ إلى ألف قرش.

هذا ويتم مراقبة العبد عند شرائه لمدة ثلاثة أيام لمعرفة العيوب كالتبول ليلاً أو الشخير ويمكن رده إلى التاجر مرة أخرى إذا ما ثبتت هذه العيوب.

التقى الرحالة الأوروبيون فى القاهرة بالعديد من مشاهير الجلابة وقدموا وصفًا لوكلائهم، ولعل أشهر الأسماء التى أوردوها هو على عبد الكريم وكان يحسن معاملة العبيد قبل بيعهم ويوفر لهم الغذاء المناسب.

أما الرقيق الأبيض فيتم جلبه من القوقاز وأرمينيا وقد ازدادت أعدادهم بعد الحرب اليونانية، فقد تم بيع الأسرى فى أسواق القاهرة كرقيق.

ورغم كل ما دون عن أحوال الرقيق فى مصر إلا أن العديد من الرحالة دافعوا عن موقف الإسلام من الرق. فأكد جيرار دى نرفال أن أحوال الرقيق فى ظل

الإسلام أفضل بكثير من أحوالهم فى أوروبا، فقد كانوا يحظون بحياة أكثر رغداً من الفلاح المصرى، وأن الرق فى الإسلام من وجهة نظره هو لون من ألوان التبنى المتسم بالود أكثر منه استعباداً قاسيًا، وأن هناك فارقًا كبيراً بين ما يلقاه الرقيق فى بلاد المسلمين وما لاقاه الرقيق فى المستعمرات الأمريكية على يد المسيحيين البيض الذين يسومونهم الذل والهوان، بل إن الأرقاء فى الإسلام ينعمون بالطمأنينة والاستقرار حيث يشكلون جزءاً من الأسرة يأكلون مما تأكل ويلبسون مما تلبس، ويروى جيرار أنه عرض على جاريته حريتها فرفضت وأكد أن السيد يعامل الجوارى معاملة حسنة، ومن النادر أن يطرد أحد دون تدبير أو معاش فإذا تخلص من جارية فإنه يمنحها حريتها ويزوجها من شخص يثق به، فمن العار أن يبيع رقيقًا له بعد أن يكون قد أمضى مدة طويلة فى خدمته.

أكد الرحالة أن القرآن عالج موضوع الرق بشجاعة وإنسانية، وقد شهد جيرار بنفسه احترام بعض أنظمة الحكم فى الدولة الإسلامية إلغاء الرق بمباركة العلماء.

هكذا جاء رد جيرار دى ترفال على أصحاب الدعاوى الإنسانية وجمعيات محاربة الرقيق التى جاءت إلى مصر لإلغائه.

**الغجـر:**

لفتت جماعات الغجر انتباه الرحالة ولا سيما فى القرن السادس عشر وقد ارجعوا أصولهم إلى آسيا وأوروبا، وأكدوا أنهم شاهدوا أعداداً كبيرة منهم فى القاهرة وأن لهم لهجات ولغات وصلات مشتركة مع غجر اليونان والبعض منهم من كورفو وكريت وقبرص، وأكد بيلون أن جماعات الغجر فى مصر تنتمى لأصول من ولاشيا وملدافيا (رومانيا).

والغجر يقرأون الطالع ويعملون بالحدادة ويعيشون على السحر والشعوذة وهم لا ينتمون للمصريين ومعظمهم مسيحيون ولكنهم تابعون للأتراك، وقد وُجد الغجر فى القاهرة وضواحيها وفى المطرية، وكذلك فى المدن والقرى المصرية ويطلق العرب عليهم دائمًا لفظ حرامى.

**حريم مصر:**

ظل مجتمع حريم مصر مغلقًا حرًا وغامضًا للأوروبيين لم يتعرفوا عليه سوى من خلال زوجات القناصل، فكن بمثابة عيون لهم فى الداخل.

اتسمت كتابات الأوروبيين عن المرأة المصرية بالندرة فى العصر العثمانى فأوردوا المبالغات، وعنهن أوردوا قصصا ذكرها المؤرخ بلينى بأن المصرية تضع العديد من التوائم دفعة واحدة، ومن الطرائف التى ذكرها بيلون أن النساء فى مصر يلدن دائمًا فى الشهر الثامن بسبب حرارة الطقس والرطوبة.

لم يتح للرحالة التعرف عن قرب على المصريات سوى فى بعض المواقف الطريفة، ففى القرن السادس عشر وصف بيلون إحدى حفلات الزفاف التى حضرها والتى اندهش فيها من النساء اللاتى يطلقن الزغاريد طوال فترة الاحتفال، واستاء من تلك الأصوات وأصر على أن يقدم لقارئه الفرنسى صورة عنها فذكر أن المرأة تفتح فمها إلى أقصى اتساع فتبعث أصواتا غريبة وتحرك لسانها بين أسنانها ثم تسحبه إلى الخلف فتنطلق الأصوات المزعجة.

والنساء المسلمات هن الشطر الأوفى من الجنس اللطيف فى مصر متوسطات القامة يلفتن الأنظار إليهم بحسن شكلهن، وعمودهن الفقرى مقوس وأعضاؤهن المختلفة مستديرة منتظمة، وأيديهن وأرجلهن صغيرة، وأعينهن واسعة سوداء سوادًا فاحمًا ينقدح منها شرر الحياة تحيط بها أهداب طويلة تزيد وجوههن حسنًا وتبث فيها من الحلاوة ما يستهوى الأفئدة، وأنوفهن صغيرة خفيفة الانطباع، وشفاههن سميكة قليلاً وأسنانهن جيدة الاصطفاف ناصعة البياض، وصدورهن جيدة التكوين لا قبل لها بالحيل الضارة التى يلجأ إليها السيدات الأوروبيات لتحسينها. أما مشيتهن فهى تتسم بالرشاقة والدلال خطواتهن واسعة، فيها رشاقة وخفة، وفى أصواتهن عذوبة ورخامة ولين، وإذا وجهن الخطاب إلى أحد دعونه بقولهن «يا عينى - ياروحى - يا قلبى»، وإذا كان المخاطب رجلاً أطلقن عليه اسم السيد أو الأخ.

كان هذا وصف كلوت بك للمرأة المصرية وهو على النقيض تمامًا مما سجله

فولني الذى سجل : «أجسادهن ضعيفة جلودهن عليها صفرة»، ولم ير فى سيدات مصر سوى أشباح جائلة بعباءات فضفاضة ولو لا العيون التى تنفذ من ثقوب البراقع ما فطن المرء إلى أنوثتهن .

أما سونيني فقد وصف المرأة المصرية بالجمال سواء المسلمات أو القبطيات يضعن جميعًا الكحل فى أعينهن ويصبغن رموشهن ويتزين بالحناء، كما تطرق إلى حجم نساء مصر فسجل أنهن أكبر حجمًا من نساء فرنسا .

وأثنى الرحالة على غيرة الرجل الشرقى وحرصه على المحافظة على الفضيلة، فكتب ميليه : «يراعى الشرقيون التقاليد أكثر منا ويعرفون الفضيلة والطهر أكثر من الغرب، والشرقى غيور على زوجته، وقد ذكر بريس دافين : «محال أن نعلم شيئًا عن النساء إلا من الأوروبيات أو السوريات اللاتى يختلطن بهن وإنك لتسب المسلم سبًا إذا سألته عما يخص حريمه فهو لا يذكر أبدًا اسم زوجته فى مجلس عام ولا يتحدث مطلقًا فى مجلس خاصة عن شئون بيته» .

كان رأى الرحالة الأوروبيات قاسيًا على المرأة المصرية فاتهمتها هارييت مارتينو بأنها لا روح ولا عقل تتصف بالكسل والتفاهة وتتعمد الإكثار من الأطعمة الدسمة السكرية ولا تمارس الرياضة، وقد نصحت هارييت البعض منهن باستخدام الحبل لانقاص الوزن . وأكد بريس دافين هذا الرأى فاتهم المرأة المصرية بالعجز عن القيام بأى عمل فهى تمضى النهار ممددة على الأرائك تضفر شعرها أو تسترسل فى الأحلام واغتياب غيرها من النساء أو التجسس على الجيران، بينما نفى أمبير هذه الفكرة وأكد أن نساء مصر لهن حرية الخروج ويشاركن فى الحياة السياسية ولسن منعزلات فى البيوت .

وعن جمال المرأة المصرية كتب الجراح البريطانى مادين أنه من غير اللائق أن تصطدم مشاعر الأوروبيات بوصف نساء مصر اللاتى يفوقهن جمالاً على الرغم من أصباغهن وأصابعهن الملونة بالحناء .

أما لين فقد أكد أن المرأة المصرية تبدو جميلة فى سن الرابعة عشرة وحتى الثامنة عشرة ثم يخبو جمالها بعد الإنجاب .

تهتم المصريات بوسائل الزينة والتبرج والتجمل، وقد اعتادت نساء الطبقة الدنيا وشم شفاههن السفلى وذقونهن وسواعدهن وأيديهن .

كما قدم الرحالة وصفًا لعملية الختان التي تجرى في الحمامات العامة للفتيات، والطريف أن كلوت بك نفى عن الدين الإسلامى أن يكون قد حتم هذه العملية للإناث فكتب: «لست أعلم أصل هذه العادة ولا سببها والمرجح أنها كانت شائعة على عهد قدماء المصريين فوجودها الآن راجع إلى استمرارها على توالى الأجيال».

هذا وقد أتيح لصوفيا لين دخول حريم الطبقة الوسطى في مصر ولا سيما حريم التجار وكبار الشخصيات، وأكدت بأن لهن نفوذًا كبيرًا ولكن تسلية أزواجهن هو الشغل الشاغل لهن، ويستفدن من ساعات الفراغ فى حياكة وتطريز المناديل والطرح ويقضين وقتًا كبيرًا أمام المنسج وأحيانًا تقوم الدلالة ببيع إنتاجهن فى الأسواق أو فى حريم آخر.

أما نساء العامة والطبقة الدنيا ولا سيما فى القاهرة فعليهن أعباء ثقيلة.

وهن يتصايحن فى الطرقات وفى الأسواق ويتسمن بالشراسة خاصة أثناء المنازعات.

وصف أوليفَيه الفلاحات بالقبح، ولكن سافارى خالفه فى الرأى فقدم وصفًا شاعريًا عنهن فهن ممشوقات القوام يحرصن على الاستحمام فى مياه النيل فتبدو أجسادهن الممشوقة الجذابة يدلكنها بطمى النيل وتسترسل جدائل شعورهن على أكتافهن القمحية الداكنة وبشرتهن التى لفحتها الشمس الحارقة.

أما سونينى فقد وجد أن نساء الوجه البحرى أجمل بكثير من نساء الوجه القبلى ووصفهن بأنهن قبيحات.

سجل شولشيه أن الفلاحات جميعهن يفتقرن إلى الرقة والجمال وتعجب من أنهن يخفين وجوههن رغم قبحهن، بينما كتب كادلفين أن أجسادهن قوية ولكنهن قذرات وكسالى، ووجد بواتو بأنهن يتمتعن بجمال وحشى طبيعى، وأكد ميشو أن الفلاحات لسن على درجة كبيرة من الجمال فالفم واسع كبير والصوت حاد غليظ واعتقد أن نساء سورية أجمل من نساء مصر.

ولكنه أبدى تعاطفًا معهن لأنهن يحملن أعباء العمل فى المتاجر ويساهمن فى إعالة عائلاتهن وهن يعشن عيشة خضوع لأزواجهن أكثر من نساء الطبقات الراقية.

أما بريس دافين فقد وجد أن جمال الفلاحة أقل من جمال الفلاح ونظرتها أقل ذكاء، وإن كان وجهها حسب التقاطيع مشرقًا كوجهه وسحر الفلاحة فى طول القامة والرشاقة، وهى تتزوج فى سن الثالثة عشرة ولا تكاد تبلغ الخامسة والعشرين حتى تذبل نضارتها من إرهاق الأمومة ومعاناة البؤس.

سجلت إميليا إدواردز ملاحظاتها عن الفلاحة المصرية فأكدت أن مظهرها لم يتغير عما كانت عليه قديمًا فى النقوش المصورة على جدران المعابد منذ عهد الفراعنة.

بينما أبدت لوسى داف جوردن إعجابها بجمال الفلاحة، فذكرت أنها رأت جمالاً لم تشهده من قبل.

ألقى الرحالة الضوء على معاناة الفلاحات المصريات، فهن يساهمن فى إعالة عائلاتهن ويعشن عيشة خضوع لأزواجهن أكثر من نساء الطبقة الراقية ولا يسمح للفلاحة بتناول الطعام مع زوجها، وإذا خرجت من المنزل تسير خلفه حاملة الأثقال فوق رأسها.

ساهمت الفلاحة فى مشروعات التعمير ولا سيما حفر ترعة المحمودية، وعانت من نقص الغذاء والمياه حتى أدوات الحفر لم تكن متوفرة وقد اشتركت أيضًا فى حفر قناة السويس.

أفاض الرحالة فى وصف نساء المماليك والأتراك، وقد سجلوا إعجابهن بنساء الأتراك لأنهن على جانب كبير من الجمال، فهن من أجمل نساء العالم يتم جلبهن من موسكو وجورجيا ولكنهن لم ينلن أى نصيب من التعليم.

أكد فولنى على أن نساء البكوات على قدر كبير من الجمال، كما أكدت هذه الحقيقة زوجة ماجلون بحكم اختلاطها وزيارتها لنساء المماليك.

قدم بعض الرحالة وصفًا لمقاييس الجمال بالنسبة للمرأة من وجهة نظر الأتراك والمماليك فلابد أن تكون بيضاء سمينة، ولذلك تكثر فى أقوال المصريين (بيضاء سمينة، وجهها كالقمر)، وأكد فولنى هذه الحقيقة فذكر أن العامة يرددون فى أمثالهن (خذ البيضاء من أجل عينيها).

أتيح لمدام روزيتى دخول حريم أسرة محمد على بحكم إقامتها فى البلاد فترة طويلة فقدمت وصفًا لزوجة سعيد باشا القوقازية الأصل، كذلك قدمت وصفًا آخراً لنازلى هانم ابنة محمد على زوجة محمد بك الدفتردار، وأفاضت فى وصف جمالها فهى بيضاء وجهها مستدير شعرها حالك السواد، ولكنها أضافت شعرت أن دماء محمد على تجرى فى عروقها. وسجلت صوفيا لين ملاحظات مماثلة قائلة «تمثل نازلى هانم مكانة كبيرة فى الحريم، وهى تشبه والدها محمد على لها نفس ذكائه ونظراته السريعة الفاحصة تتمتع بالمرح واللطف».

لم تقتصر صلات المصاهرة فى أسرة محمد على بينه وبين كبار رجال الدولة، وإنما سجل الرحالة زواج عباس باشا من إحدى البدويات التى ظلت على وفائها له حتى بعد وفاته، فلم تبرح الصحراء وظلت تفضل سكنى الخيام على سكنى القصور.

ومن أسماء الأميرات التى سجلها الرحالة الأوروبيات كلين هانم أرملة إسماعيل باشا ابن محمد على الذى قتل فى سنار.

وقد عرفت بكلين هانم وكلين كنه وهى زوجة الأخ الكبير أو العم وعرفت فى إستانبول بمصرلى هانم، وفى دار الوثائق ملف هام باسمها وباسم فاطمة الزهراء الشهيرة بزهرة هانم البولاقية.

لم تكن حريم الأسرة العلوية بعيدات عن السياسة، فقد ظلت كلين هانم تراسل عباس باشا من الآستانة تسجل له كل خطوات نازلى هانم ابنة محمد على فى العاصمة وتحذره من المكائد والمشاكل التى تثيرها ضده.

ومن أميرات الأسرة الحاكمة أرملة طوسون باشا ابن محمد على وقد سجلت صوفيا لين إعجابها بها فهى والدة عباس باشا ولها مكانة كبيرة وهى أكبر الحاضرات سنًا وقد أتيح لصوفيا مقابلة زوجة محمد على أم أصغر أولاده ووجدت أنها تتصف بالمرح ودماثة الأخلاق.

أقام حريم محمد على فى القصور المنتشرة فى أنحاء القاهرة ولا سيما قصر شبرا الذى حرص الباشا على جلب النباتات لتزيينه من أوروبا، كما بنيت الأكشاك

الجميلة فى الحدائق للاستماع للموسيقى وقد اعتادت الأميرات التنزه بالعربات الملكية فى حدائق القصر.

قدم الرحالة وصفًا للعوالم فى مصر، فذكر سافارى للعوالم مجتمع خاص بهن وهن يتقن الغناء والرقص ولا يوجد احتفال يتم فى مصر دون غناء ورقص العوالم اللاتى يمتزن بنعومة أجسادهن، يرقصن على نغمات الطبول ينشدن الأشعار والمواويل، حتى الأتراك أعداء كل الفنون على حد قوله يجدون متعة فى الاستماع لغناء العوالم ولابد من وجود عالمة فى حفلات الزفاف.

لم يفرق الرحالة بين العوالم والغوازى، ربما إدوارد لين كان أدق فذكر أن الغازية تطلق عامة على الراقصة وأكد أن هناك خطأ وقع فيه الرحالة فقد خلطوا بين العوالم وهن المغنيات وبين الغوازى أى الراقصات المنتشرات فى البلاد. فالغازية ترقص سافرة الوجه فى الشوارع العامة ولا يتسم رقصهن بأدنى لباقة أو أناقة وأثواب رقصهن مشابه لأثواب نساء الطبقة المتوسطة، وتتزين الراقصات بحلى مختلفة ويرسمن أصابعهن وأيديهن بالحناء. ويرافقهن موسيقيون يعزفون على الربابة والطار وترقص الغوازى فى ساحات المنازل وفى الشوارع وفى بعض المناسبات كالاحتفال بمولد طفل أو زواج، ولا يرحب بهن فى حريم حسن السمعة وهن أكثر النساء خلاعة فى مصر.

وجد الرحالة العوالم فى جميع المدن المصرية حتى مدن الصعيد. وقد نفى محمد على العوالم خارج القاهرة، وفى عام ١٨٣٤ منع رقص الفتيات فى الشوارع وفرض عقوبة خمسين جلدة.

وفى أسيوط قابل كادلفين عددا من الحبشيات أكد أنهن كنّ يدفعن مبلغًا شهريًا للجلابة ليتركهن يمارسن البغاء.

يصاحب العوالم المخنثين فى الرقص ومظهرهم العام قريب من مظهر النساء ويعزفون على الآلات.

عقد الرحالة مقارنة بين رقص العوالم ورقص المصريين القدماء على جدران المعابد فكانت النتيجة لصالح الأخير فهو رقص راق.

وللعوالم عدة رقصات سجلها الرحالة فمنها البدوية حيث ترقص العالمة وهى تضع أسلحتها على رأسها كذلك رقص المراكشيات، وسجل برديو ما عرف برقصة النحلة حيث تتظاهر العالمة بدخول نحلة فى ملابسها فتبدأ فى الرقص وكأنها تبحث عنها بين ملابسها.

ومن أشهر العوالم كوتشك هانم وهى سورية الأصل من دمشق نفاها عباس إلى إسنا، كانت شديدة الجمال، شاهدها دى كان وهى تؤدى رقصة النحلة بنفسها كما أنها دربت بعض الفتيات على الرقص فى إسنا.

قدم الرحالة وصفًا لملابس وزينة المرأة المصرية، وقد قدمت صوفيا لين وصفًا تفصيليًا عن ذلك، وأكدت أن حريم الأسرة العلوية والطبقة الوسطى يحرصن على ارتداء ملابس مصنعة من أقمشة باهظة الثمن من الكريب الملون أو الأسود وأحيانًا من الحرير الرقيق، أما السروال أو الشنتيان فيكون عادة مصنع من الموسلين الأبيض أما نساء الطبقة الفقيرة فيكون مصنع من الكتان.

ترتدى المرأة القميص ثم اليلك وهو ثوب طويل فضفاض وتحرص نساء الطبقة العليا على لف الخصر بشال من الكشمير حافته مذهبة.

وفوق اليلك ترتدى المرأة الجبة المصنوعة من الحرير، أما ملابس التجوال فهى التزييرة أو الثوب أو السبلة ولابد أن تضعه المرأة عند خروجها فى الطريق العام، ومن الطريف أن صوفيا لين أعجبت بزى التزييرة وارتدته أثناء خروجها فى شوارع القاهرة وأكدت بأنه ثوب مريح مناسب لجو مصر كما غطت وجهها ببرقع من الموسلين الأبيض عند زيارتها لحريم محمد على.

كما تغطى المرأة نفسها بعد كل ذلك بالحبرة أو الملاءة وهى من اللون الأسود للمتزوجات ومن الحرير الأبيض للفتيات.

وقليل من النساء يرتدين الجوارب بينما ترتدى الكثيرات المز أو الحذاء الداخلى المصنوع من الجلد المراكشى الأصفر أو الأحمر المطرز بالذهب وفوق المز البابوج وهو مستدق الرأس من الجلد المراكشى، وقد يستعملن القباقيب الخشبية المرتفعة أربعة أو خمسة بوصات عن الأرض وتكون مزينة باللؤلؤ والفضة.

وتزين المرأة رأسها بالطربوش والفردية التى تقوم بلفها حول الطربوش وتحرص على تزيين الطربوش بأقراص من الماس المرصع بالذهب أو بالقمرية وهى صفيحة ذهبية مزخرفة تدلى من القمرية سبع قطع ذهبية مسطحة . وتزين أذنها بأقراط من الماس والذهب وتختال بالعقد أو القلادة فى رقبتها وبالأساور فى معصمها .

أما نساء الطبقة الدنيا فزينتهن تبدو رخيصة تفتقر إلى الذوق يضعن الخزام فى أنوفهن وهو نحاس يضم ثلاث خرزات ملونة حمراء أو زرقاء ويمر عبر المنخر الأيمن ويتدلى جزء منه أمام الفم . أما ملابس العوالم فتختلف تمامًا عما سبق وهن حريصات على ارتداء أفخر أنواع الملابس الدمشقية المذهبية الحمراء والزرقاء المصنوعة من الحرير وهى شفافة وشعورهن مزينة بالذهب حتى الأحزمة المستخدمة حول الخصور من الذهب، ولكن رغم كل هذه الزينة إلا أن العوالم بلا جمال ولا سحر يفتقرن إلى الرقة وتتزين العالمة بالحلى من عقود ذهبية وتترك العوالم شعورهن يتدلى منها الضفائر المزينة بقطع من العملات الذهبية ويحرصن على تزيين أذرعهن وأقدامهن بالأساور والخواتم الذهبية .

تعتقد المرأة المصرية فى الخرافات، وتعتقد أن الجن يسكنون الأنهار والحمامات والجن الماكر يستقر فوق أسطح المنازل أما الغيلان ففى الأماكن المعزولة وتتغذى على جثث الموتى ويشترك المسلمون والمسيحيون فى مثل هذه المعتقدات .

ترتدى المرأة الحجر الأزرق لوقاية أولادها من شر الحسد والعين كذلك تستخدم حجر الشب لنفس الغرض فيزينون به قلنسوة الصبى، وتعلق النساء على الأبواب نبات الألوة ( الصبر )، وإذا خشيت من شر شخص كسرت آنية وراء ظهره، كما تميل لعلم الركة أو التنجيم لجلب الحظ .

تقضى المرأة أوقاتا طويلة فى الحمامات ففيها يقضين فى كل أسبوع ساعات طويلة حلوة ولذيذة، وقد قارنها الرحالة بحمامات أوروبا فوجدوا أن الأولى تفوقها جمالاً، فهى مزودة بالمياه الساخنة والأحواض الرخامية حيث يتم تدليك الجسم بالماء المعطر وليف الجمل .

والحمامات مزخرفة يغلب عليها اللونان الأبيض والأحمر ويتألف الحمام من حجرات مبلطة بالرخام وكل قسم منها تعلوه القباب مثقوبة بثقوب مستديرة ينفذ

الضـوء منهـا من خـلال قطع متكورة من الزجـاج، والجـدران والقبـاب تبنى عـادة بالأجر وتوجد على الأجزاء المرتفعة من الحمام ساقية لتغذية الخزان بالماء، وهو يؤخذ إما من بئر أو من حوض فى أسفل البناء. وتجلس النساء فى الحمام يعرضن ترفهن وعطورهن ويسلمن شعورهن لتضفر وتصفف فيها صفائح ذهبية أو فضية وفى الحمام يأكلن وينمن وينفقن نهارهن بأكمله، وكثيراً ما يدخلن بعض المطربين المكفوفين ليشنفوا أسماعهن، وتعلق ستارة تدل على أن باب الحمام مغلق دون الرجال، وإذ ذاك يترك جميع خدم الحمام مكانهم للخادمات.

أما عن احتفالات الزواج فتكون عادة مصحوبة بالمنشدين والراقصات والطبالين والعبيد وأحيانًا بمجموعة من المصارعين يؤدون الألعاب والحركات الغريبة، ومجموعة من اللاعبين يتبارزون بالعصى، وأحيانًا يرتدى الراقصون الرجال ثيابًا نسائية.

قدم الرحالة وصفًا لاحتفالات الزواج لدى النوبيين حيث يرقص الجميع على شكل حلقات ويعزفون على آلات تعرف بالنوجورا مثل الطمبورا، بينما يتولى المدعوون التصفيق جالسين على الأرض ويحرص النوبيون على تواجد العوالم فى الأفراح.

أما عن العروس فيتم دهن جسدها بنبات له رائحة نفاذة وتجدل شعرها بضفائر صغيرة ويدهن بالعنبر ويزين بالعاج ويتولى تزيين العروس سيدة متخصصة فى ذلك ولابد أن يحضر العريس عقدا من الذهب وأساور وحلقات ذهبية، وإذا لم تعجب العروس بالهدايا فيمكنها أن تردها، وعند إتمام الزواج لابد من ذبح ثلاث بقرات وعدد من الأغنام وتوزع لحومها، وتخرج العروس على رأس موكب ويرتدى العريس القفطان بينما تنطلق الزغاريد وتوزع اللحوم والبلح، ثم تقوم أم العروس بقراءة الفاتحة وتستمر الاحتفالات عدة أيام لا يتوقف الرقص والغناء خلالها.

يعتبر الاحتفال بالزواج من أهم الاحتفالات التى لا تغيب ذكراها عن الفتاة المصرية وتقوم العروس بتخصيب قدميها ويديها بالحناء وتذهب إلى الحمام فى موكب كبير ينشد المغنون الأغانى، ثم يقام احتفال كبير فى الليل يستمتع فيه الناس

بالغناء ورقص العوالم، وكان معظم الرحالة حريصين على حضور احتفالات الزواج حيث تضاء الشوارع بالمشاعل ويحمل الأطفال الشموع وتسير العوالم بملابسهن من الحرير المقلم ووجوهن مكشوفة ويصاحب العازفين طابور طويل، ثم يصطف العبيد خلفهم والنساء فى الوسط. أما العروس فجسدها مغطى بالملابس الطويلة من الكشمير وحولها اثنتان من النساء ممسكتان بيديها، ويسير الجميع ببطء شديد وقد بدت العروس وكأنها تخشى الانزلاق والوقوع ثم تجيء العوالم وتردد الأغانى ولا يتوقف الرقص ولا الغناء طوال الليل.

ألقى الرحالة الضوء على حفلات زفاف كبار الشخصيات فقدم لين وصفًا لحفل زفاف ابنه السيد عمر نقيب الأشراف.

وفى القرى تجلس العروس على جمل وتغطى وجهها بشال إلى أن تصل إلى منزل العريس ويقضى الجميع الليل فى الغناء والرقص، وعقدت لوسى دان جوردن مقارنة بين حفلات الزفاف المصرى والألمانى فوجدت تطابقًا حيث يتم إطلاق النار فى الهواء، ويتم عرض أثاث المنزل الجديد فى الريف على ظهور الجمال وفى ألمانيا فوق العربات.

اهتمت صوفيا لين بتقديم وصف لحفلات زفاف أبناء أسرة محمد على وقد سمح لها بمشاهدة جهاز العروس والمجوهرات والهدايا التى قدمت لها فأذهلتها الأطقم الفضية وأثواب العروس المتعددة المرصعة بالأحجار الكريمة وشيلان الكشمير وأطقم من الفناجين والأطباق الأنيقة المصنوعة من الفضة.

كما قدمت صوفيا وصفًا لحفل زفاف أقيم فى حديقة الأزبكية وكان العريس ابن عم محمد على، وقد نصبت الأعلام والمصابيح حول بركة الأزبكية كما وضعت منصة لإطلاق الصواريخ، وكان فى البركة عدد من القوارب للإيجار ونصبت خيام كثيرة لبيع القهوة والحلوى، وفى المساء أطلقت الألعاب النارية ووزع على الحاضرين الفطائر والمشروبات السكرية.

تتجلى مظاهر الوحدة الوطنية فى الاحتفالات والأعياد المصرية، ومن أجمل هذه الاحتفالات سفر المحمل إلى الأراضى المقدسة، وقد أفاض الرحالة فى وصف القوافل المتجهة للحجاز وطرق حراستها، كذلك تحدثوا عن الاحتفالات التى تقام

عند عودة القافلة، وقد كتب دى نرفال: أن مشاهدة الاحتفال الأخير من أكثر المشاهد إثارة. ولذلك يحرص الرحالة على مشاهدته وقد يستأجرون بعض الغرف فى المنازل التى يمر المحمل أمامها بعد عودته ليشاهدوا هذا الحدث الهام الذى يشهده الآلاف من المقطم ومن قمم أسوار أبراج قلعة صلاح الدين، كما يحضره الراقصون والمنشدون ونافخو الأبواق وقارعو الطبول، ويردد الجميع الذكر والمديح ويحتشد الموكب بالبيارق ذات الألف لون والسوارى المقرونة بالرنوك والتروس، ويمتطى الأمراء والشيوخ صهوات جيادهم وعليها الحلول المزركشة المرصعة بالقصب والأحجار الكريمة وتنطلق المدافع من القلعة، ويدوى الهتاف وتنطلق الأبواق معلنة عودة المحمل وقد بلغ مشارف القاهرة وجاء فى أثره سبعة جمال زين رءوسها أجمل زينة وقد كست أجسادها البسط النضرة، وكانت الجمال الأولى لقارعى الطبول من الشباب ترتفع أذرعتهم العارية وتهوى بعصيهم المذهبة، والمحمل عليه هودج على شكل الخيمة المربعة، وقد كسى نقوشًا مطرزة وتتدلى من قمته ومن زواياه الأربع كرات فضية ضخمة. وعند مرور المحمل يخر الناس ساجدين فوق التراب.

ومن الاحتفالات الهامة المولد النبوى حيث يكتظ ميدان الأزبكية بالناس الذين يلتفون حول المهرجين والراقصات والمغنيات. وتقام السرادقات حيث يجلس المسلمون يرتلون آيات قرآنية كما يجلس الدراويش صفوفًا متوازية يتمايلون دون توقف بأعلى أجسامهم إلى الأمام ثم إلى الخلف ويرددون لا إله إلا الله. وقد انتقد الرحالة اختلاط الحفلات الدينية بهذا المزيج من الألعاب الدنيوية.

ومن الاحتفالات الدينية الهامة الاحتفال بعيد الفطر حيث تضاء القاهرة بالمشاعل والأنوار وتزدحم الشوارع بالناس. ويحرص الأقباط على المشاركة فى هذه الاحتفالات الدينية، كما أن أثرياء الأقباط يتبرعون للانفاق على تجديد أضرحة بعض الأولياء والمشاركة فى الاحتفالات.

وتحتفل القاهرة والمدن المصرية بمولد كبار المشايخ والأولياء وتتشابه هذه الاحتفالات فى معظم المدن المصرية ولعل أهمها الاحتفال بمولد الحسين الذى يستمر لمدة خمس عشرة ليلة تضاء خلالها المساجد بالشموع والمصابيح وتظل

الدكاكين والمقاهى مفتوحة حتى الصباح، وفى داخل المسجد تجلس جماعات مختلفة لتلاوة بعض سور القرآن والأدعية ومدح الرسول ويزدحم المسجد بالزوار من الرجال والنساء، وتنتشر مواكب الدراويش التى تطوف بشوارع القاهرة وهى تحمل الأعلام والرايات والطبول والموسيقى.

ورغم هذه المظاهر الدينية إلا أن المشعوذين ينتشرون فى المدينة ويقومون ببلع الجمرات المشتعلة أو أكل الزجاج والتهام الثعابين.

عبر لوكا عن هذه الاحتفالات بقوله «لا يوجد فى العالم بلد مغرم بالاحتفالات مثل مصر فلا يمر يوم لا نرى فيه احتفالاً، فالمصريون مغرمون بها وهى تتركز فى المدن أكثر من الريف».

ولعل أشهر الاحتفالات الدينية ما عرف بالدوسة حيث ينام الدراويش على الأرض متلاصقين متجاورين أرجلهم ممددة وأذرعهم مضمومة تحت جباههم، ثم يقوم عدد من الدراويش بالسير على ظهور زملائهم الممددين على الأرض وهم يهتفون الله إلى أن يظهر شيخ الطريقة فيقوم بالدوس على ظهور الدراويش وهو يمتطى حصانه الذى تدرب على القيام بهذه المهمة، كما يتواجد فى احتفالات الدوسة بعض الحواة الذين يقومون باستعراض ألعابهم والبعض منهم يقوم بأكل الثعابين الحية.

يحتفل المصريون بشهر رمضان وتنطلق المدافع من القلعة معلنة بداية الشهر وبالأعياد.

ومن مظاهر الوحدة الوطنية الاحتفال بالغطاس وهو من أعياد الأقباط فى مصر ويبادر الرجال والأطفال بالغطس فى الماء، ومن الأقوال الشعبية الدارجة أن المسلمين يقولون أنه فى يوم الغطاس يقول الأقباط لبعضهم بعض «اغطس كما غطس والدك وجدك وامح الإسلام من قلبك»، ورغم ما يشاع يحرص المسلمون على حضور هذا الاحتفال.

كذلك يحتفل الأقباط بعيد البشارة والشعانين والقيامة وعيد الصليب، فى سبع عشر من شهر توت فى فترة ارتفاع النيل إلى أعلى مستوى حيث ينادى المنادى على الناس ويقدم الفواكه والليمون، أما ليلة النقطة فهى فى الحادى عشر من شهر بئونة

ويعتقد الأقباط بسقوط نقطة عجائبية فى النيل مما يسبب ارتفاع منسوب مياهه، وفى ليلة النقطة تضع النساء فى شرفة المنزل بعد المغيب قطعة من العجين باسم سكان المنزل وتضع علامة فوقها وعند فجر اليوم التالى إذا وجدت مشقوفة فمعناه أن صاحبها ستكون حياته طويلة.

أعجبت لوسى داف جوردن بروح التسامح والوئام بين المسلمين والأقباط لأنهم يحتفلون سويًا بعيد القديس مار جرجس ويحرصون على تهنئة بعضهم فى الأعياد الدينية.

ويعتبر شم النسيم خير مثال على الوحدة الوطنية وله موعد محدد وقت التقويم القبطى ويعرف يوم الأربعاء الذى يسبقه بأربعاء أيوب، حيث يغتسل فيه الناس بالماء البارد ويفركون أنفسهم بنبات يعرف بعرعر أيوب أو الغبيرة.

كما يحتفل المصريون بوفاء النيل ويصيح المنادى فى الشوارع وهو يصيح ربنا فاض بخيره علَى الأراضى فيعطيه الناس قطعة خبز، وتجرى الاستعدادات لفتح الخليج ويتمتع الناس بالتنزه فى المراكب ويبحرون من بولاق إلى الروضة.

قدم الرحالة وصفًا لمواكب الختان والولائم التى تقام بهذه المناسبة، كذلك احتفالات سبوع المولود ورش الملح المختلط بحبة البركة لمنع العين الشريرة أى الحسودة.

كما قدموا وصفًا لإجراءات دفن الموتى، وقد كتب شولشيه لا يوجد فى العالم أبسط من إجراءات دفن الموتى فى مصر، حيث تم حفر حفرة صغيرة بطول الجسد ثم يدفن الميت ويوضع عامود عند رأسه عليه عمامة أو طربوش لتحديد جنس المتوفى.

**الجاليات الأجنبية:**

كانت الجالية الفرنسية من أهم الجاليات فى القرن الثامن عشر تمثلت الجالية فى القنصل الفرنسى ونوابه فى المدن المصرية الهامة كذلك المترجمين. وكان لوظيفة المترجم أهمية كبيرة لأنه همزة الوسط بين الأوروبيين والسلطات المحلية. ولقد

شعر المترجمون بأهميتهم فعملوا على تقوية علاقاتهم بالسلطات المحلية فتعاظم نفوذهم حتى أنهم تطاولوا على القناصل مما أدى إلى كتابة العديد من الشكاوى ضدهم .

سكن الأوروبيون بصفة عامة أحياء مخصصة لهم فأقام الفرنسيون فى حى خاص بهم يقع بين الخليج وحديقة قريبة من الأزبكية .

وكان يسمح للأوروبيين بتجديد منازلهم ووصف لوكا منازل التجار بأنها مريحة .

أفاد القناصل من توثيق الصلات مع السلطات الحاكمة للحصول على الامتيازات فأفاد لى مير من صلاته بضباط الأوجاق لإعادة بناء الحائط الذى يفصل بين خيمهم وأحياء المسلمين .

تمتع القناصل بتعضيد الإنكشارية فى نظير جعل معين ، وأثثت منازل التجار بأحسن أنواع الأثاث وعادة كان المنزل يتكون من عدة غرف ومحلات مثل منزل التاجر الفرنسى ديبينى الذى حوى مكتبة ضخمة ضمت العديد من المؤلفات .

لم يختلف الحى الفرنسى فى الإسكندرية ورشيد عن القاهرة . أما فى رشيد فقد أقام الفرنسيون مع جاليات أخرى ولا سيما اليونانيين وقد ضاق المكان بالجميع وأراد الفرنسيون بناء وكالة أخرى خاصة بهم .

كان معظم الفرنسيين من التجار القادمين من بروفانس وليفورن ، وقد وجد من بينهم أطباء عملوا لدى البكوات والباشوات ، وقامت غرفة تجارة مارسيليا بدور هام للمحافظة على التجارة الفرنسية فكانت هى الجهة التى تصدر التراخيص للتجار بإنشاء بيوتهم التجارية .

شارك الفرنسيون فى احتفالات وانتصارات فرنسا وأنشدوا الأناشيد الوطنية وأقاموا الصلوات لعقد صلح بين هولندا وبريطانيا فى ١٧١٣ ، كما ارتدوا السواد وأقاموا القداس فى الكنيسة عند وفاة لويس الرابع عشر .

هذا وقد تزايدت أعداد الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ولا سيما بعد عام

١٨١٥ أى بعد انتهاء فترة حكم نابليون ، فأخذ المعارضون للنظام الجديد فى التواجد على مصر ، كذلك بقى فى مصر عدد من الجنود الفرنسيين بعد جلاء الحملة الفرنسية أى بقايا جيش بونابرت ومينو وقد أطلق عليهم المماليك الفرنسيين وقد تجمعوا واختاروا بك فرنسيًا ، وقد اتخذ العديد منهم أسماء عربية مثل عبد الله واتقنوا الحديث بالتركية والعربية .

ومن أبرز هؤلاء الفرنسيين المماليك الذين أثروا البقاء فى مصر شخص يدعى جان بنى قصراً واقتنى عددا كبيرا من الجوارى وكون ثروة من بيع النبيذ .

وإلى جانب المماليك الفرنسيين عمل فى مصر عدد كبير من الأجانب خاصة الفرنسيين وقد سجل شولشيه : «لقد حمل الفرنسيون إلى مصر النور والحضارة لقد أرسلنا إلى محمد على العباقرة من أبنائنا للعمل معه» .

ولعل أشهر هؤلاء العاملين الذين جاء ذكرهم على لسان الرحالة الكولونيل سيف أو سليمان بك . وبيسون الذى عمل فى البحرية الفرنسية وسريزى الذى وكل إليه محمد على بناء ترسانة الإسكندرية ولينان دى بلفون المسئول عن الأشغال العامة وكلوت بك الذى أشرف على مدرسة الطب ، وهو أول فرنسى يحمل لقب بك دون أن يضطر لتغيير ديانته أو جنسيته ، ومن أشهر المهندسين موجيل .

هذا وقد عبر محمد على عن امتنانه لوجود هذه الأعداد الضخمة من الفرنسيين فى خدمته فى حديث له مع البارون بوالكومت فقال : «إننى مدين بجيشى لسيلمان بك وعدد آخر من الفرنسيين ببحريتى لمسيو بريزى» .

جذبت مصر أعداداً من الفنانين الفرنسيين فامتلك دوليه مرسمًا فى الأزبكية ونال النحاس جاكومار مكانة كبيرة لدى محمد على .

ومن أشهر نواب القناصل باسيلى فخر الذى عين فى دمياط وهو سورى الأصل ، تعلم الإيطالية والعربية وكانت له اتصالاته مع تجار المدينة ، اقتنى مكتبة ضخمة بها العديد من المؤلفات وامتلك العديد من الجوارى والعبيد وكان يستقبل ضيوفه بعزف الموسيقى لهم .

## الجالية البريطانية :

نظمت شركة الليفانت البريطانية أمور الجالية المقيمة فى مصر والولايات العثمانية ولكنها توقفت عن العمل قبل مجيء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٧ بسبب الاضطرابات التى سادت فى مصر .

تمتع البريطانيون بالاحترام فى مصر ولا سيما فى القرن التاسع عشر ، وقد علل ولسون ذلك بسبب الجهود التى بذلها قناصل بريطانيا للتأكيد على مكانة مواطنيهم وضرورة تمتعهم بالامتيازات ، ومن هؤلاء جون ستيوارت الذى تمتع البريطانيون بفضله بميزة ركوب الخيل .

عمل العديد من البريطانيين فى خدمة محمد على ولا سيما تريل الذى وكل إليه العناية بحدائق الباشا ، أما عن التجار فمن أشهر الشخصيات كيزى ومالين كذلك جالواى وتيبالدى ، كذلك أشاروا للشركات البريطانية مثل شركة هاريس وشركائه وجويس ثربورن وشبرد .

فضل البريطانيون سكن الأحياء الشعبية ، وعلل صوفيا ذلك لبساطة الناس وتمسكهم بتقاليدهم التى تدعو إلى الإعجاب وترابطهم الأسرى .

قدم الرحالة وصفًا للجالية اليونانية وقد قدر بوسيبار أعدادهم بحوالى ألفين ومعظمهم يعملون بالتجارة والصناعة ويسكنون فى حارة الروم ولهم كنائس خاصة بهم ، ولعل أشهرها دير سانت كاترين فى سيناء وقد سمحت لهم السلطات ببناء كنيسة فى مصر القديمة ورغم نشوب حرب المورة إلا أن محمد على لم يحاول طرد اليونانيين المقيمين فى البلاد فأبقى عليهم فى وظائفهم .

عمل اليونانيون كتراجمة للقناصل وأتقنوا اللغات التركية والعربية واللاتينية .

**الأرمن** : تعاظم نفوذهم فى عهد محمد على فعملوا مترجمين ومستشارين ولمعت أسماء العديد منهم خاصة بوغوص ونوبار ، وذكر ميشو أن أعداد الأرمن كبيرة فى مصر ولهم بطريركية أرثوذكسية خاصة بهم وعدد من المدارس وقد أصبح لهم نفوذ كبير فى البلاد ، حتى أن السلطات سمحت لهم بركوب البغال وركزت معظم الكتابات على شخصية بوغوص والمكانة التى وصل إليها .

وجد فى مصر جاليات أخرى ولا سيما البنادقة والهولنديين وأشرفت شركة الليفانت الهولندية على تجارتهم فذكر كوبان أن البعض منهم اشتغلوا بالطب .

**متاعب الأوربيين فى مصر :**

عانى الأوروبيون فى مصر من الطقس والحرارة الشديدة مما أدى إلى إصابة العديد منهم بالحمى وللتغلب على هذه المشكلة كانوا ينتقلون للإقامة فى الإسكندرية فى فصل الصيف .

- شكا الأوروبيون من الأوبئة والمجاعات وانخفاض مياه النيل فى القرن الثامن عشر واستمرت معاناتهم من الأمراض والأوبئة ولا سيما الطاعون الذى تكون الإصابة به فادحة .

وقد اهتمت الحكومة بإنشاء المحاجر واستعانت بالأطباء وساهمت الجمعيات العالمية فى مكافحة الطاعون ولا سيما الجمعية البريطانية فى نيو كاسل .

- إجبار السلطات المحلية الأوروبيين بارتداء ملابس شرقية ومنعهم من ارتداء القبعات والشعر المستعار ، كذلك منعهم من ركوب الخيل والسماح لهم بركوب الحمير فقط .

وقد ذكر نيبور أن السلطات فى مصر أجبرت الأوروبيين على ارتداء الملابس الشرقية ولكن القناصل كانوا يصممون على ارتداء ملابسهم الغربية ولذلك كثيراً ما تعرضوا للسباب من العامة .

- عانى الأوروبيون من العقوبات والإهانات فى الشوارع ، وكتب القنصل ليركنور من النادر أن يعود التاجر من القاهرة إلى بلاده دون أن يكون قد تلقى عدة ضربات بالعصى .

- واجه التجار الأوروبيون منافسة كبيرة من اليهود الذين كانت لهم صلاتهم التجارية مع يهود ليفورن .

- تزايدت الغرامات والأتاوات المفروضة على الأوروبيين ولا سيما فى القرن

الثامن عشر، ولعل أشهر هذه الغرامات طلب محمد بك الألفى مركبة تجرها الخيل من الفرنسيين .

ويسبب هذه الغرامات أفلس العديد من التجار الأوروبيين، كما كانت حجة وذريعة فى تقارير ماجالون لإرسال الحملة الفرنسية على مصر .

وقد اختفت هذه الغرامات فى القرن التاسع عشر .

عانى الأوروبيون من الحشرات وانتشار الذباب والبراغيث والقمل فى مصر .

يمكن القول أن الأوروبيين عاشوا فى حرية فى مصر ولا سيما فى القرن التاسع عشر وخفت حدة المضايقات التى تعرضوا لها من قبل، كما كانت لهم علاقتهم بالشوام الكاثوليك وبالأقباط والمسلمين .

هذا وقد اعتنق بعض الأوروبيين الإسلام من ألمان وفرنسيين بل ومن رجال الدين الكاثوليك .



## الخاتمـــة

يتضح مما سبق أن النزعة الاستعمارية للرحالة الأوروبيين ظهرت مبكراً منذ القرن السادس عشر ولا سيما بين الفرنسيين الذين حرضوا على تكوين الأحلاف الصليبية من جديد لغزو مصر ، وكان من أهم رواد هذه الدعوة دى فنسان والأب كوبان والأب فانزليب أرادوا جميعًا إحياء أمجاد الصليبيين القديمة ، وأكدوا فى مؤلفاتهم على تذكير القارئ الأوروبى والفرنسى بانتصارات الصليبيين فى الشام إبان فترة العصور الوسطى ، أما فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فسوف تتحقق تلك الأمجاد فى مصر .

نمت فكرة غزو مصر فى القرن الثامن عشر ولا سيما بعد هزيمة فرنسا فى حرب السنوات السبع وضياع مستعمراتها فى العالم الجديد والهند ، فكانت مصر هى البديل المثالى للسيطرة على ثروتها الاقتصادية والإفادة من موقعها الجغرافى الهام للسيطرة على تجارة البحر الأحمر وبالتالى الهند .

ظهر فى القرن الثامن عشر ما يمكن أن نطلق عليه الرحالة الجواسيس الذين اهتموا برصد أحوال مصر السياسية والاقتصادية وتفقدوا قلاعها واستحكاماتها ، نذكر من بينهم البارون دى توت والضابط الفرنسى أوليفيه . وقد حرص العديد من الرحالة الفرنسيين على تزويد مؤلفاتهم بالخرائط التفصيلية عن المدن المصرية ، بل وضع البعض منهم تصوراً للأماكن التى يمكن أن تنزل بها القوات العسكرية عند غزو مصر ونصحوا بضرورة توزيع تلك القوات على طول نهر النيل وإقامة الاستحكامات فى أسوان وفى البحر الأحمر ولا سيما السويس وهو ما فعلته بالفعل الحملة الفرنسية .

اتسمت كتابات الرحالة الفرنسيين بالطابع العلمى الدقيق ولا سيما فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أو ما أطلق عليه التحقيقات العلمية الدقيقة، كانت كلها نواة للمعهد العلمى المصرى، ولذلك جاءت موسوعة وصف مصر التى أنجزها العلماء فى ثلاث سنوات نتيجة لوجود أساس قوى ومتين استند عليه علماء الحملة الفرنسية ألا وهو كتابات الرحالة على مدى ثلاثة قرون فجاءت الحملة وهى مزودة بفكرة عامة عن كل ما يتعلق بمصر .

إذا كانت فكرة غزو مصر قد ألحت على الرحالة الفرنسيين فإنها أيضًا لم تغب عن غيرهم فالرحالة الروس جاءوا إلى مصر موفدين من قبل الأكاديميات العلمية اهتموا بدراسة أحوال مصر الاقتصادية والسياسية .

أما الرحالة البريطانيون فكان من بينهم العديد من المكتشفين والتجار وعملاء شركة الهند الشرقية البريطانية، وركزوا حديثهم فى مؤلفاتهم عن أهمية موقع مصر ولا سيما البحر الأحمر لفتح طريق مباشر مع الهند .

إذا كانت كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن الثامن عشر قد أدت إلى غزو مصر، فإن مؤلفات البريطانيين فى القرن التاسع عشر حققت نفس الهدف، وينبغى ألا نغفل أن أحوال بريطانيا الداخلية ساعدت على تحقيق أهدافها الاستعمارية ولا سيما أن العصر الفيكتورى اتسم بالتوسع وشعر البريطانيون خلاله تفوقهم على غيرهم من الدول الأوروبية .

قدم الرحالة البريطانيون وصفًا شاملاً لأحوال مصر السياسية والاقتصادية كما تجولوا فى المدن المصرية .

شجع الرحالة الأوروبيون إقامة المشاريع الاستعمارية فى مصر ولا سيما تلك التى تخدم أهداف دولهم ودعا سان سيمون لحفر قناة السويس، بينما شجع البريطانيون مشروع الخط الحديدى بين القاهرة والسويس .

نلمس فى مؤلفات بعض الرحالة نزعة استعلائية ولا سيما عند حديثهم عن المجتمع المصرى، وقد ظهرت هذه النزعة مبكرة ضد المصريين الأقباط ولا سيما من قبل الفرنسيين والسبب فى ذلك مجىء البعثات الدينية الكاثوليكية إلى الشرق

ومصر منذ القرن السادس عشر وكان هدفها الرئيسى نشر المذهب الكاثوليكى بينما تمسك الأقباط بهويتهم ورفضوا التخلى عن المذهب الأرثوذكسى، ولذلك نلمس فى مؤلفات الرحالة الفرنسيين تحاملاً يصل إلى درجة الغيظ تجاه رجال الدين الأقباط والكنائس ومحاولات لإثبات عدم صحة عقائدهم فيصفون رهبان أديرة وادى النطرون بأنهم ينسجون الأساطير ، عقولهم فارغة تحوى الخرافات . ويمكن تعليل هذه الآراء أن الرهبان رفضوا بيع المخطوطات لأعضاء البعثات الدينية الفرنسية الذين وصفوا مسألة التنصير اليسوعى سواء فى مصر أو فى الحبشة بأنه أمر شائك مظلم مثل قصر التيه وتعجبوا من عدم احترام الأقباط للمذهب الكاثوليكى، وذكر سونينى فى القرن الثامن عشر أن اسم فرنسا يحترم فى أوروبا بينما يطلق أقباط الصعيد على بعثاتنا الكلاب .

هذا وقد اتهم الأقباط بالتعصب وفى غرور واضح عبر الفرنسيون عن رغبتهم فى دراسة عاداتهم لكى يصححوا أخطاءهم ، كما ذكر الأب سيكار ولكى نهزمهم .

خفت حدة الانتقادات للمصريين الأقباط فى القرن التاسع عشر وبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر ولكن نبرة الاستعلاء لم تختف تمامًا، فاعتبر جوبينو الأقباط سلالة أدنى مرتبة من الأوروبيين واتهمتهم هارييت مارتينو بالانطواء والانغلاق .

بينما اتخذت إميليا إدواردز موقفًا مدافعًا عنهم ونفت كل الانتقادات التى وجهت إليهم وإلى رجال الدين بل سجلت إعجابها بروح التسامح الدينى التى تسود فى مصر بينهم وبين إخوانهم من المسلمين .

نالت الطبقة الحاكمة فى مصر نصيبها من الاستعلاء ولا سيما الأتراك والمماليك وقد وصف الأتراك بالبخل والكسل والقسوة والضعف فهم غرباء يحكمون مصر وانتقد العديد من الرحالة باشوات مصر . وينبغى ألا نغفل صورة التركى فى المؤلفات الأوروبية، وقد اتسمت بالتحامل لتوسع الدولة العثمانية فى جنوب شرق أوروبا .

أجمع معظم الرحالة على وصف المماليك بالطغيان والدموية والقسوة ، محمد

أبو الذهب وصفه دانتريج بأنه طاغية متوحش يشبه نيرون يحب سفك الدماء، كما سجل رأيه فى مراد بك الذى وجده يشبه محمد أبو الذهب فى نقائصه يتسم باللؤم والقسوة .

حاول أوليفيه إضفاء نزعة إنسانية موالية ومتعاطفة مع المصريين فوصف مراد بك وإبراهيم بك : « إن مصر بائسة بين هذين الرجلين اللذين يفتقران إلى موهبة العلم والأخلاق عاجزان عن إقرار العدالة » .

أما فى القرن التاسع عشر فقد غلبت النزعة الإنسانية فى كتابات الرحالة عند حديثهم عن مذبحة القلعة والطريقة الدموية التى تخلص بها محمد على منهم ولكن إدوارد لين أكد بأنها الطريقة الوحيدة التى كان يمكن اتباعها .

أما عن الأسرة العلوية فقد وصف محمد على بأنه الشعلة التى أضاءت البلاد بينما وصفه البعض الآخر بوحش الروملى . بينما وصف عباس باشا بالجهل والانغلاق ويمكن تعليل ذلك بكراهيته للأوروبيين واستبعادهم من البلاد .

تعاطف الرحالة مع المصريين باعتبارهم سكان البلاد الأصليين وقد وصفوهم بأنهم أفضل من الأتراك تسهل معاشرتهم وهم مرحون لا يبخلون بالكلمة الطيبة، متسامحون تمنى بعضهم أن تسود هذه العادات بين المسيحيين الأوروبيين فهم بلا ضغينة، ليس لديهم رغبة فى الانتقام وتنتهى خلافاتهم بانتهاء اليوم .

بينما وصف البعض المصريين بأنهم أشرار لا يستحقون سوى السيطرة على بلادهم .

جذب الفلاحون الانتباه بمعاناتهم والسخرة المفروضة عليهم ولا سيما عند إقامة المشروعات العمرانية فى القرن التاسع عشر .

ورغم هذا التعاطف إلا أن الأمر لم يخل من نزعة استعلاء ووصفهم بالجبن واللؤم والاستكانة وإن كان هناك آراء نفت كل هذه الصفات، والغريب أنه من بينها كان رأى فولنى الذى دافع عن الفلاح المصرى وهو الذى دأب على انتقاد مصر ومن فيها .

رغم وجود النزعتين ، النزعة الإنسانية ونزعة الاستعلاء ، فى مؤلفات الرحالة

الأوروبيين عند حديثهم عن مصر إلا أن هذا لم يمنع من تأثرهم بالحضارة المصرية في مؤلفاتهم ونقلوا هذا التأثير للقارئ الأوروبي .

استلهم الرحالة من الأدباء أعمالهم من المجتمع والتاريخ المصرى نذكر من بينهم جوستاف فلوبير الذى تأثر بقصص ألف ليلة وليلة وأعجب بالشرق وأفريقيا وألف رواية بعنوان « سالامبو » . أما شارل أدمون فقد ألف رواية « زفيران كازفان » وهي تمثل شخصية هزلية استوحى أحداثها من سليمان باشا الفرنسى فقد أراد تسلية القارئ الفرنسي وإطلاعه على حياة المواطنين المغتربين على ضفاف النيل . كما قدم جوتييه رواية بعنوان « أمسية كليوباترة » وقدم مومياء وقصيدة بعنوان « حنين بين مسلتين » وقصص ألف ليلة وليلتان ، ورصد أدمون أبو أحوال الفلاح في مصر فوضع مؤلفًا بعنوان « أحمد الفلاح » أوضح على لسان البطل المأساة التى يتعرض لها الفلاحون في مصر .

أما عن أعمال الرحالة البريطانيين فقد وضع كنجليك مؤلفًا بعنوان « ايوثن » أى الغجر باللغة اليونانية ليتخذ منه صديقه إليوت بيرتون مرشداً في رحلاته إلى الشرق . هكذا يتضح لنا ظهور أدب في أوروبا متأثرًا بمصر اقتبس موضوعاته من حياتها .

قدم الرحالة من الفنانين والمصورين العديد من اللوحات التى أثارت الإعجاب في أوروبا ، فقدم باسكال كوست العديد من اللوحات عن العمائر الفاطمية والأيوبية والمملوكية ، كما قدم مابيه ودوز عدة رسومات عن الآثار والمعابد والمساجد في مصر وزينت هذه اللوحات قصور ملوك فرنسا ومتحف اللوفر وزود دى كان مؤلفه بمائة وخمسين لوحة فوتوجرافية عن معابد الأقصر وأبو سمبل .

كما قدم إدوارد لين في مؤلفه العديد من الرسوم التى تصور الحياة الاجتماعية مثلت طبقات المجتمع وسجل روبرت هاى في مؤلفه العديد من الرسومات عن الأسبلة والمساجد وقدم المصوران جون جرين وفرانسيس فريث مجموعة من الصور عن النيل وآثار طيبة ومعابد هابو .

قدم الرحالة الأثريون الموسوعات والمؤلفات الرائعة عن الآثار المصرية .

لقيت الآثار القبطية الاهتمام من كنائس وأديرة وكهوف ولا سيما فى مصر العليا، كما ألقى الرحالة الضوء على العمائر الإسلامية ( المساجد والأسبلة والمارستانات والتكايا وغيرها ) .

أما الآثار المصرية القديمة فكانت موضع الاهتمام الشديد ولا سيما وأن علم الآثار تطور فى القرن التاسع عشر واستقبلت أوروبا الاكتشافات الأثرية بالإعجاب والانبهار . ويرجع الفضل لشامبيليون فى فك رموز اللغة الهيروغليفية القديمة، وبفضله لم تعد آثار مصر بكماء ولذلك لقب بالمصرى وقد أعاد ترتيب قائمة الفراعنة وتسلسلهم الزمنى وجمع المعلومات الخاصة بعلم الجغرافية والديانة واقتنع باستقلال الفن المصرى عن الفن اليونانى، وقام بالعديد من الدراسات الجادة عن المعابد المشيدة على ضفتى النيل، ويكفى ما ذكره شامبيليون لسنا سوى أقزام فى أوروبا وأنه ما من شعب ـ قديمًا أو حديثًا ـ بلغ الدراسة الرفيعة العظيمة التى بلغها المصريون القدماء .

تجول الرحالة الأثريون فى المدن المصرية يقطعون نهر النيل ذهابًا وإيابًا حتى وصلوا إلى النوبة واهتموا بتقديم وصف عن آثارها .

وأخيراً بفضل كتابات الرحالة نمت حركة الاستشراق فى أوروبا وازداد الاهتمام بالشرق ومصر فلم تعد مصر أرضا يسكنها الجن والشياطين وإنما تم دراستها دراسة عميقة ثقافيًا واجتماعيًا وأثريًا .

نلاحظ مما سبق غزارة إنتاج مؤلفات الرحالة الأوروبيين إلا أن الفرنسيين تفوقوا فى العدد وفى الإنتاج وكانوا سلسلة متعددة الحلقات تسلم كل منها الأخرى .

وأخيراً درست مصر دراسة مستفيضة عميقة وازداد الولع بها فى فرنسا بصفة خاصة وفى أوروبا بصفة عامة .

# المراجـع

**المراجع العربية:**


- ابن إياس (محـمد بن أحـمـد بن إياس الحنفى): بدائع الزهور فى وقائع الدهور، حققها محمد مصطفى (٩٢٢ـ٩٢٨ هـ/ ١٥١٦ـ١٥٢٢ م)، القاهرة ١٩٦٢، جـ ٥.

- ابن زنبـل ( الشـيخ أحـمد الرمـال ٩٦٠ هـ ): آخرة المماليك، تحقيق عبد المنعم عامر.

- أحمـد الدمرداشى: كتابات الدرة المصانة، تحقيق د. عبد المنعم عبد الرحمن، القاهرة ١٩٨٩.

- أحمـد شلبى عبـد الغنى: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العينى، تقديم وضبط وتصحيح د. عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة ١٩٧٨.

- إدريس أفندى: إدريس أفندى فى مصر مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسى بريس دافين فى مصر (١٨٠٧ ـ ١٨٧٩)، جمعها وترجمها الدكتور أنور لوقا، القاهرة ١٩٩١.

- إدوارد وليم لاين: عـادات المصريين المحدثين وتقاليدهم (مصر ما بين ١٨٣٣ ـ ١٨٣٥)، ترجمة سهير دسوم، القاهرة ١٩٩١.

- الحسن بن محمد الوزان الزياتى: ليو الأفريقى: وصف أفريقيا فى ١٣٩٩ هـ.

- **إلهام محمد على ذهنى**: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، القاهرة ١٩٩١ .

- **إلهام محمد على ذهنى**: مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٩٢ .

- إلهام محمد على ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٩٤ .

- **إلهام محمد على ذهنى**: مصر فى كتابات الرحالة البريطانيين فى القرن التاسع عشر، القاهرة ٢٠٠٣ .

- **ثروت عكاشة**: مصر فى عيون الغرباء والرحالة والفنانين والأدباء (القرن التاسع عشر)، القاهرة ١٩٨١ .

- **جوزيف بتس**: رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، القاهرة ١٩٩٥ .

- **جيرار دى نرفال**: رحلة إلى الشرق، ترجمة كوثر بحيرى، القاهرة ١٩٨٤ .

- **ريتشارد بيرتون**: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة.

- **شامبيليون فى مصر**: الرسائل والمذكرات، ترجمة عماد عدلى، القاهرة ١٩٩١ .

- **صوفيا لين بول**: حريم محمد على، رسائل من القاهرة (١٨٤٢ - ١٨٤٦)، ترجمة د. عزة كرارة، القاهرة ١٩٩٩ .

- **عبد الرحمن الجبرتى**: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، بيروت، جـ ١ ، ٢ .

- **علماء الحملة الفرنسية**: وصف مصر، جـ ١ ، القاهرة ١٩٨٦ .

- **علماء الحملة الفرنسية**: وصف مصر، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٨٠ .

- **علماء الحملة الفرنسية**: وصف مصر، جـ ٥ ، القاهرة ١٩٧٩ .

- **فولني**: ثلاثة أعوام فى مصر وبر الشام، نقلها إلى العربية إدوارد البستانى، ١٩٤٩ .

- كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، القاهرة، جـ١ ، ٢ .

- لينان دى بلفون: مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التى تمت فى مصر منذ أقدم العصور حتى عام ١٨٧٢ ، القاهرة ١٩٤٢ .

- ماريت: نظرة عامة عن مصر ، ترجمة عبد الله أبو السعود .

- محمود منسى: مشروع قناة السويس بين أتباع سان سيمون وفردناند دى ليسبس ، القاهرة ١٩٧١ .

**المراجع الأجنبية:**

1. **About, E :** Le fellah, Paris 1869.
2. **Ampere, J :** Voyage en Egypte et en Nubie, Paris 1928.
3. **Audouard, Mmc Olympe :** l'Orient et ses peuplades, Paris 1867.
4. **Belon, Pierre De Mans :** Le voyage en Egypte 1547, le Caire 1969.
5. **Belzoni :** Le jeune voyage en Egypte et en Nubie, Paris 1826.
6. **Blanc, Charles :** Voyage de la Haute Egypte, Paris 1876.
7. **Browne W :** Nouvau voyage dans la haute la basee Egypte la Syrie, le Dar Four, Paris 1798, T 2.
8. **Bruce, J :** Travels to discover the source of the Nile Edinburgh 1805.
9. **Burton, R :** Personal narrative of a pilgrimage to al Madina and Mecca. N. Y. 1963.
10. **Cadalvene, M :** L'Egypte et la Nubie, Paris 1841, T. 1 - 2.
11. **Caillaud, F :** Voyage à l'orient et à l'occident de la theibade fait par M. Caillaud pendant les anneés 1815 - 1816 - 1817 - 1818.
12. **Capper, J. :** Observation on the passage to India through Egypt, London 1783.

13. **Carré, J :** Voyageurs et ecrivains Français en Egypte, Le Caire 1922.

14. **Champollion, F :** Egypte Ancienne, Paris 1825.

15. **Chesnau, J :** Voyages en Egypte. auxXVII et XVIII Siecles. Le Caire 1960.

16. **Clerghon, H :** Cleghorn Papers, London 1815.

17. **Combe, E :** Lettre De Mure Consul de France à Alexandrie à M. G. R le Comte de choiseul Gouffier, Le Caire 1927.

18. **Cuny, Ch :** Journal de voyage de docteur cuny de siout à el obeid de 22 Novembre 1857 à 5 Avril 1858, Paris 1863.

19. **De Bellefonds, L :** L'Etbaye pays habité par les Arabes Bicharieh, Paris 1869.

20. **De Bussiere, R :** Lettres sur l'orient ecrites pendant tes annés 1827 et 1828, Paris, T 2.

21 **De chateaubrian :** Itineraie de Paris à Jerusalem, Paris 1863.

22. **De Forbin, L, C. :** Voyage daus le levant en 1817 et 1818, Paris 1818.

23. **De Garcy, E :** De Paris en Egypte Souvenirs de voyage, Paris 1875.

24. **De Gobineau, le Comte :** Trois ans en Asie, Paris 1859.

25. **De Marcellus :** Souvenir de l'orient, Paris 1861.

26. **De Montulé :** Voyage en Amerique en Italie sicilie et en Egypte pandant les anneés 1816 - 1817 - 1818 - 1819, Paris 1921.

27. **De Nerval, G :** Voyage en Orient, Paris 1865, T 1.

28. **De Pardieu, le C. :** Excursion en Orient, Paris 1851.

29 **De Tott :** Memoires du Baron de tott sur les turcs et les tartares, Paris 1875, T 2.

**30. De Villamont :** Voyage en Egypte des anneés 1589 - 1590 - 1591, le Caire 1971.

**31. Duff Gordon :** Letters from Egypt.

**32. Edmond, Ch :** L'Egypte à léxposition universelle de 1867, Paris 1967.

**33. Edwards, A :** The thousand miles up the Nile, London 1878.

**34. El Abassy, Ali, B :** Voyage d'Ali Bey en Afrique et én Asie pendant les anneés 1803 - 1805 - 1806, Paris 1814.

**35. Fermanel, G :** Voyages en Egypte 1631 le Caire 1975.

**36. Flaubert, G :** La tentation de Saint Antoine , Paris 1922.

**37. Fromentin, E :** Voyage en Egypte, Paris 1869.

**38. Granger, le. S :** Relation du voyage Fait en Egypte, Paris 1765.

**39. Horneman, E :** The Journal of Horneman travels in 1798, London 1808.

**40. Kurzon, R :** Visits to the monastris of the levant, London.

**41. L'hôte, N :** Lettres écrites de l'Egypte en 1838 et 1839, Paris 1839.

**42. Lucas, P :** Voyage des Sieur paul lucas an lecant, Rouen 1772.

**43. Madden :** Travels in Turkey, Nubia and Palestine, London 1827.

**44. Maillet :** Description de l' Egypte, Paris 1735.

**45. Manley, D. Abdel - H - Sahar :** Travelling through Egypt from 480 Bc. to the twentieth Centuries Cairo 2004.

**46. Mariette, A :** Voyage dans la haute Egypte entre le Caire et le Premier cataracte, Paris 1903.

**47. Martineau, H :** Eastern life present and Past, London 1849.

**48. Monconys De B :** Les voyages en Egypte 1646-1647, le Caire 1970.

49. **Michaud, M :** Correspondance D'orient 1934, Paris 1835, T 6.

50. **Nightingal, F :** Letters from Egypt, London 1854.

51. **Norden, E :** Voyage d'Egypte et de Nubie, Paris 1795.

52. **Olivier, C :** Voyage daus l'empire ottoman.

53. **Palerne, J :** Le voyage en Egypte 1581, le Caure 1970.

54. **Pocok, R :** A description of the east and some countries, London 1763.

55. **Poitou, E :** Un hiver en Egypte, Paris 1860.

56. **Rifaud, J :** Tableau de l'Egypte et la Nubie, Paris 1830.

57. **Saint Hilaire, B :** Lettres d'Egypte, Paris 1857.

58. **Saint John, J :** Egypt and Mohamed Aly or travels in the valley of the Nile, London 1934.

59. **Salt, H :** Twenty four views in Hellena, the cape, Judia, Ceylon, Egypt, London 1803.

60. **Savary :** Lettres sur l'Egypte, Paris 1846.

61. **Scholcher, V :** L'Egypte en 1845, Paris 1846.

62. **Sonnini, C :** Voyage en Egypte, Paris 1793.

63. **Sicard, P :** Nouveaux memoirs dEs missions de la Campagne de Jesus le levant, Paris 1722.

64. **Thenaud, J :** Le voyage d'outremes, Paris 1884.

65. **Thevenot :** Voyage de M. T. De thevenot au levant, Amesterdam 1872.

66. **Thevet, A :** Voyage en Egypte 1549 - 1582, le Caire 1894.

67. **Volkof, O :** Voyageurs russes en Egypte, le Caure 1972.

68. **Wilkinson, J :** The ancient Egyptians, London 1837.

69. **Wilson, Rae :** Travels in Egypt and the holy land, London 1823.

# الفهرس

تقديم د. يونان لبيب رزق ........ ٥
مقدمة المؤلف ........ ٩

الفصل الأول: الرحلة إلى مصر ........ ١٣
- المرحلة الأولى : فضول وعاطفة دينية ........ ١٨
- المرحلة الثانية : الدراسة الأكاديمية ........ ٢٣
- المرحلة الثالثة : الولع بمصر ........ ٢٩

الفصل الثاني: تعريف بالرحالة الأوربيين ........ ٣٣

الفصل الثالث: حكومة مصر ........ ٦٧
- حكام مصد بين العظمة والطغيان؟ ........ ٦٩
- ثروة مصر الاقتصادية إعجاب أم مخطط استعماري؟ ........ ٨٦

الفصل الرابع: الحياة الاجتماعية ........ ١١٩
الخاتمة ........ ١٧١
المراجع ........ ١٧٧

يتناول هذا الكتاب رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر، سواء من وجهة نظر إنسانية تعكس تعاطفهم مع المصريين لأحوالهم المتردية، أو من وجهة نظر استعمارية تبحث وتنقب عن كل ما يتعلق بمصر تمهيداً لغزوها.

فهو محاولة للتعرف على الأهداف الحقيقية لهؤلاء الرحالة وإبراز الجوانب الإنسانية والأهداف الاستعمارية، ولا سيما أن الرحالة وفدوا من جميع بلدان أوروبا من فرنسا وبريطانيا وبروسيا وسويسرا وإيطاليا وروسيا، منذ القرن السادس عشر وحتى أواخر القرن التاسع عشر.

وختامًا هو محاولة تعكس رؤية الأوروبى للآخر الشرقى.




6 221102 014830

دار الشروق
www.shorouk.com